منازل الهدي

مختارات من تراث

حجة الإسلام أبي حامد الغزالي

الجزء الأول

تصنيف

محمد جمال امام

١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

"طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب"

الحسن بن علي رضي الله عنهما

"زمانك محسوب عليك"

الإمام الغزالي

إلهي أنت أنت وأنا أنا الذي دأبي كل يوم أعود إلى عصيانك ودأبك أن تعود إليّ برحمتك

مناجاة من هارون الرشيد لربه

الفهرست

		الصفحة
١-	تمهيد	٤
٢-	تعريف بالإمام	٦
٣-	يا أيها الولد	٣٣
٤-	مشكاة الأنوار	٤٤
٥-	المنقذ من الضلال	٦٣
٦-	الاقتصاد في الاعتقاد	٨٨
٧-	فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة	١١٠
٨-	التبر المسبوك في نصيحة الملوك	١٢٨
٩-	المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى	١٨٥

تمهيد

كان كتاب "إحياء علوم الدين" من أوائل الكتب الدينية التي مَنَّ الله علي بقراءتها قبل نحو ثلاثين عاما، فأبهرني الإمام الغزالي بقدراته العقلية الفائقة، وأخذ بيدي خطوات طويلة في البحث عن معارج الوصول إلى رضوان الله تعالى. ثم قرأت رسالته الشاعرية الصوفية الجميلة "يا أيها الولد" فعذبني أيما تعذيب بتذكيري بمواطن تقصيري في طاعة الله، وأضاء لي مصابيح جديدة في بحثي عن معارج الوصول إلى حضرة الربوبية. وحدث أن انشغلت بعد ذلك بالسعي إلى رزق أسرتي وتوقفت كثيرا عن رحلة البحث تلك، حتى نالني عفو من الله فاتسع وقتي للعودة إلى رحلة البحث المضنية عن معارج الوصول إلى نول رضاه وعفوه، وكانت البداية بتراث الإمام ابن تيمية لأسباب شرحتها في تمهيدي لكتاب "الاستقامة في العبادة"، وهو عبارة عن مقتطفات من تراث هذا الإمام العظيم رحمه الله وجزاه خير الجزاء عما أفادنا به من الحرص على التمسك الصارم بشرع الله وسنة رسوله وما كان عليه عمل الصحابة رضوان الله عليهم. وقد حدث أن استعبدني ابن تيمية فكريا تماما فلم أستطع الفكاك من تراثه كتابا بعد كتاب، ولكن ذهني، وقد بلغت مشارف الثالثة والسبعين، كل عن القدرة على استيعاب أسلوبه المثقل بالمعاني العميقة ومحاوراته المتعمقة مع أصحاب الكلام والفلسفة والبدع، وتتبع طروحاته التي تخرج من موضوع إلى آخر في محاولة دائبة مني على ألا يضيع مني الخيط الأساسي للأطروحة حتى أصل إلى النتيجة المبتغاة بعد جولة طويلة في أفكار متعددة منبثقة عن الفكرة الرئيسية. ففكرت في الاستراحة مؤقتا بالعودة إلى شاعرية الغزالي الصوفية الجميلة. وقد كان، وعدت إلى الإحساس بالذنب المضني لما فات من العمر دون التمسك بأهداب التقى وبمسالك الهدى، ولعل الله يغفر لي ذلك بما أفعله من محاولة نقل مصابيح الإمام الغزالي العظيمة إلى من أحب وأعرف من الأهل والأصدقاء والباحثين عن بصيص من نور الهدى في نهاية نفق الإنشغال بأمور الدنيا، لعلهم يهتدون إلى مسالك الوصول ومنازله في وقت مبكر من عمرهم فيقيهم ذلك عن الندم في مؤخر العمر عما فاتهم من حسن الطاعة لله وعبادته حق العبادة، وما يجب أن يفعله "سالك سبيل الحق" كما أشار إليه الإمام في رسالته "أيها الولد". ومن يصبر على بعض شطحات الإمام الصوفية وعلى ما تبقي لديه من تأثيرات بفترتي الانغماس في عالم المتكلمين والفلاسفة والصوفية، سيجد بإذن الله ثروة من الأفكار العظيمة التي تهدي سبيله إلى طريق الاستنارة بنور العلم والمعرفة الذي يهدي إلى منازل الهدى، كما سماها الإمام.

يبقى أن ألفت نظر الأحباب أن هؤلاء الأئمة العظام كانوا يكتبون في عصر لم تكن هناك فيه مطابع ولا دور نشر للجماهير، وإنما تراثهم عبارة عن دروس كانوا يلقونها على مريديهم وطلابهم في المساجد أو بعض دور العلم، أو مساجلات مع نظرائهم من الأئمة ومفكري عصرهم من علماء الكلام والفلسفة والمذاهب الدينية الكثيرة

التي كانت شائعة حينئذ. وكانوا إذن يتحاورون ويصنفون باللغة والمصطلحات التي كان يعرفها من يتلقون العلم منهم أو من يبادلونهم الحجة بالحجة، وهي مصطلحات ولغات لم تعد شائعة في عصرنا، وقد اجتهد محققوا كتبهم في شرح بعض تلك المصطلحات والمفردات، ولعل القارئ يصبر حتى يستوعبها ابتغاء لما وراءها من فائدة محققة.

ولعل الله يمن علينا بالعفو والعافية. وعلى الله قصد السبيل.

محمد جمال امام
القاهرة الجديدة
في ١٧ ربيع ثان ١٤٣٥ هـ
الموافق ١٧ فبراير ٢٠١٤ م

تعريف بالإمام

"من ويكيبيديا، الموسوعة الحرة"

أبو حامد الغزّالي
رسم تخيّلي لأبي حامد الغزّالي
حجّة الإسلام، وزين الدين، وشرف الأئمة، ومحجّة الدين، والعالم الأوحد، ومفتي الأمّة، وبركة الأنام، وإمام أئمة الدين
تاريخ الميلاد: 450هـ / 1058م
مكان الميلاد: طابران، أحد قسمي طوس، الدولة السلجوقية
تاريخ 14جمادى الآخرة 505هـ

الوفاة:	19ديسمبر 1111
مكان الوفاة:	طابران، أحد قسمي طوس، الدولة السلجوقية
الفقه:	شافعي
العقيدة:	أهل السنة، أشعرية
درجته:	مجدّد القرن الخامس الهجري
تأثر بـ:	أحمد الراذكاني أخذ عنه الفقه إسماعيل بن سعدة الإسماعيلي أبو المعالي الجويني أخذ عنه الفقه وأصوله وعلم الكلام والمنطق الفضل بن محمد الفارمذي أخذ عنه التصوف عمر بن عبد الكريم بن سعدويه قرأ عليه صحيح البخاري وصحيح مسلم
أثر بـ:	عبد القادر الجيلاني[1][2] أبو بكر بن العربي[3] أبو عبد الله الجيلي البارباذي محمد بن يحيى أبو العباس الأقليشي

أبو حامد محمد الغزّالي الطوسي النيسابوري الصوفي الشافعي الأشعري، أحد أهم أعلام عصره وأحد أشهر علماء المسلمين في التاريخ، ومجدّد علوم الدين الإسلامي في القرن الخامس الهجري،[٤] (٤٥٠ هـ - ٥٠٥ هـ / ١٠٥٨م - ١١١١م). كان فقيهاً وأصولياً وفيلسوفاً، وكان صوفيّ الطريقةِ، شافعيّ الفقهِ إذ لم يكن للشافعية في

آخر عصره مثلَه.[٥]، وكان سنّيّ المذهب على طريقة الأشاعرة في العقيدة، وقد عُرف كأحد مؤسسي المدرسة الأشعرية السنّيّة في علم الكلام[1]، وأحد أصولها الثلاثة بعد أبي الحسن الأشعري، (وكانوا الباقلاني والجويني والغزّالي).[٦] لُقّب الغزالي بألقاب كثيرة في حياته، أشهرها لقب "**حجّة الإسلام**"، وله أيضاً ألقاب مثل: زين الدين، ومحجّة الدين، والعالم الأوحد، ومفتي الأمّة، وبركة الأنام، وإمام أئمة الدين، وشرف الأئمة.

كان له أثرٌ كبيرٌ وبصمةٌ واضحةٌ في عدّة علوم مثل الفلسفة، والفقه الشافعي، وعلم الكلام، والتصوف، والمنطق، وترك عشرات الكتب في تلك المجالات.[٧] ولد وعاش في طوس، ثم انتقل إلى نيسابور ليلازم أبا المعالي الجويني (الملقّب بإمام الحرمين)، فأخذ عنه معظم العلوم، ولما بلغ عمره ٣٤ سنة، رحل إلى بغداد مدرّساً في المدرسة النظامية في عهد الدولة العباسية بطلب من الوزير السلجوقي نظام الملك. في تلك الفترة اشتُهر شهرةً واسعةً، وصار مقصداً لطلاب العلم الشرعي من جميع البلدان، حتى بلغ أنه كان يجلس في مجلسه أكثر من ٤٠٠ من أفاضل الناس وعلمائهم يستمعون له ويكتبون عنه العلم.[٨] وبعد ٤ سنوات من التدريس قرر اعتزال الناس والتفرغ للعبادة وتربية نفسه، متأثراً بذلك بالصّوفية وكتبهم، فخرج من بغداد خفيةً في رحلة طويلة بلغت ١١ سنة، تنقل خلالها بين دمشق والقدس والخليل ومكة والمدينة المنورة، كتب خلالها كتابه المشهور إحياء علوم الدين كخلاصة لتجربته الروحية، عاد بعدها إلى بلده طوس متخذاً بجوار بيته مدرسةً للفقهاء، وخانقاه (مكان للتعبّد والعزلة) للصوفية.

محتويات

- ١ نسبته
- ٢ ولادته ونشأته
- ٣ تعليمه
- ٤ تدريسه ورحلاته
  - ٤.١ الغزالي في بغداد
  - ٤.٢ رحلة الغزالي
  - ٤.٣ عودته إلى طوس
- ٥ وفاته
- ٦ الغزالي والفلسفة
- ٧ الغزالي والتصوف
  - ٧.١ المراحل الفكرية التي مرّ بها الغزالي

[1] علم يرمي إلى إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج عليها (المعجم العربي الأساسي)

- ٧.٢ استقراره على التصوف
- ٧.٣ كتاب إحياء علوم الدين

- ٨ تلاميذ الغزالي
- ٩ آثار الغزالي
  - ٩.١ من كتب الغزالي
- ١٠ أقوال العلماء فيه
  - ١٠.١ المؤيدون
  - ١٠.٢ المعارضون
- ١١ كتب وأبحاث عن الغزّالي
- ١٢ أعمال فنية ومؤسسية عن الغزّالي
- ١٣ المصادر
- ١٤ وصلات خارجية

نسبته

هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزّالي الطوسي النيسابوري، يُكنّى بأبي حامد لولد له مات صغيراً،[٧] ويُعرَف بـ "**الغزّالي**" نسبة إلى صناعة الغزل،[٩] حيث كان أبوه يعمل في تلك الصناعة، ويُنسب أيضاً إلى "**الغَزَالي**" نسبة إلى بلدة غزالة من قرى طوس، وقد قال عن نفسه: «النّاس يقولون لي الغزّالي، ولستُ الغزّالي، وإنّما أنا الغَزَالي منسوبٌ إلى قرية يُقال لها غزالة».[١٠]، وقد قال ابن خلكان أن نسبته إلى "الغزّالي" (بتشديد الزاي) هو المشهور، وهو أصحّ من نسبته إلى "الغَزَالي"،[١١] ويؤكّد ذلك ما رواه الرحّالة ياقوت الحموي بأنّه لم يسمع ببلدة الغزالة في طوس.[١٢] كما يُعرف بـ"الطوسي" نسبة إلى بلدة طوس الموجودة في خراسان، والتي تعرف الآن باسم مدينة مشهد موجودة في إيران. وقد اختلف الباحثون في أصل الغزالي أعربي أم فارسي، فهناك من ذهب على أنه من سلالة العرب الذين دخلوا بلاد فارس منذ بداية الفتح الإسلامي، ومن الباحثين من ذهب إلى أنه من أصل فارسي.[١٣]

ولادته ونشأته

ولد أبو حامد الغزّالي عام ٤٥٠ هـ الموافق ١٠٥٨، في "الطابران" من قصبة طوس، وهي أحد قسمي طوس، وقيل بأنّه وُلد عام ٤٥١ هـ الموافق ١٠٥٩.[٥] وقد كانت أسرته فقيرة الحال، إذ كان أباه يعمل في غزل الصوف وبيعه في طوس، ولم يكن له أبناء غيرَ أبي حامد، وأخيه أحمد والذي كان يصغره سنّاً.[١٤] كان أبوه مائلاً للصوفية، رجلاً

صالحاً لا يأكل إلا من كسب يده، وكان يحضر مجالس الفقهاء ويجالسهم، ويقوم على خدمتهم، وينفق بما أمكنه إنفاقه، وكان كثيراً يدعو الله أن يرزقه ابنا ويجعله فقيهاً، فكان ابنه أبو حامد أفقه علماء زمانه، وكان ابنه أحمد واعظاً مؤثراً في الناس.[١٥] ولما قربت وفاة أبيهما، وصّى بهما إلى صديق له متصوّف، وقال له: «إن لي لتأسفاً عظيماً على تعلم الخط وأشتهي استدارك ما فاتني في وَلَديّ هذَيْن فعلّمهما ولا عليك أن تنفذ في ذلك جميع ما أخلّفه لهما»، فلما مات أقبل الصوفيّ على تعليمهما حتى نفد ما خلّفهما لهما أبوهما من الأموال، ولم يستطع الصوفيّ الإنفاق عليهما، عند ذلك قال لهما: «اعلما أنيّ قد أنفقت عليكما ما كان لكما وأنا رجل من الفقر والتجريد بحيث لا مال لي فأواسيكما به وأصلح ما أرى لَكمَا أن تلجئا إِلَى مدرسة كأنكما من طلبة الْعلم فَيحصل لَكمَا قوت يعينكما على وقتكما»، ففعلا ذلك وكان هو السبب في علو درجتهما، وكان الغزاليّ يَحكي هذا ويقُول: «طلبنا الْعلم لغير الله فأبى أن يكون إِلّا لله».[١٥]

تعليمه

موقع مدينة **طوس** التاريخية، وهو حالياً مكان قريب من مدينة مشهد في إيران. وتظهر مدينة **نيسابور** حيث ارتحل الغزالي ملازماً أبو المعالي الجويني

ابتدأ طلبه للعلم في صباه عام ٤٦٥ هـ،[١٦] فأخذ الفقه في طوس على يد الشيخ أحمد الراذكاني، ثم رحل إلى جرجان وطلب العلم على يد الشيخ الإسماعيلي (وهو أبو النصر الإسماعيلي بحسب تاج الدين السبكي، بينما يرى الباحث فريد جبر أنه إسماعيل بن سعدة الإسماعيلي وليس أبا النصر لأنه توفي سنة ٤٢٨ هـ قبل ولادة الغزالي)،[١٦] وقد علّق عليه التعليقة (أي دوّن علومه دون حفظ وتسميع)، وفي طريق عودته من جرجان إلى طوس، واجهه قطّاع طرق، حيث يروي الغزالي قائلاً: «قطعت علينا الطريق وأخذ العيّارون جميع ما معي ومضوا فتبعتهم فالتفت إليّ مقدّمهم وقال: ارجع ويحك وإلا هلكت! فقلت له: أسألك بالذي ترجو السلامة منه أن ترد علي تعليقتي فقط فما هي بشيء تنتفعون به. فقال لي: وما هي تعليقتك: فقلت: كتبت في تلك المخلاة هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها. فضحك وقال: كيف تدّعي أنّك عرفت علمها وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا

علم؟ ثم أمر بعض أصحابه فسلّم إليّ المخلاة».[١٧] بعد ذلك قرّر الغزالي الاشتغال بهذه التعليقة، وعكف عليه ٣ سنوات من ٤٧٠ هـ إلى ٤٧٣ هـ حتى حفظها.

وفي عام ٤٧٣ هـ رحل الغزّالي إلى نيسابور ولازم إمام الحرمين أبو المعالي الجويني (إمام الشافعية في وقته، ورئيس المدرسة النظامية)، فدرس عليه مختلف العلوم، من فقه الشافعية، وفقه الخلاف، وأصول الفقه، وعلم الكلام، والمنطق، والفلسفة، وجدّ واجتهد حتى برع وأحكم كل تلك العلوم، ووصفه شيخه أبو المعالي الجويني بأنه: «بحر مغدِق».[١٧] وكان الجويني يُظهر اعتزازه بالغزالي، حتى جعله مساعداً له في التدريس،[١٨] وعندما ألف الغزالي كتابه "المنخول في علم الأصول" قال له الجويني: «دفنتني وأنا حيّ، هلّا صبرتَ حتى أموت؟».[١٩]

تدريسه ورحلاته

تمثال للوزير نظام الملك أحد أبرز وزراء الدولة السلجوقية (٤٠٨ هـ – ٤٨٥ هـ)، ومؤسس المدرسة النظامية والتي تولّى أمرها الغزالي وهو في الرابعة والثلاثين من العمر

عندما تُوفي أبو المعالي الجويني سنة ٤٧٨ هـ الموافق ١٠٨٥، خرج الغزالي إلى "العسكر" أي "عسكر نيسابور"، قاصداً للوزير نظام الملك (وزير الدولة السلجوقية)، وكان له مجلس يجمع العلماء، فناظر الغزالي كبار العلماء في مجلسه وغلبهم، وظهر كلامه عليهم، واعترفوا بفضله، وتلقوه بالتعظيم والتبجيل.[١٧] كان الوزير نظام الملك زميلاً للغزالي في دراسته، وكان له الأثر الكبير في نشر المذهب الشافعي الفقهي، والعقيدة الأشعرية السنّي، وذلك عن طريق تأسيس المدارس النظامية المشهورة، والتي قبل الغزالي عرض نظام الملك بالتدريس في المدرسة النظامية في بغداد، وكان ذلك في جمادى الأولى عام ٤٨٤ هـ الموافق ١٠٩١، ولم يتجاوز الرابعة والثلاثين من عمره.[٢٠]

الغزالي في بغداد

وصل الغزالي إلى بغداد في جمادى الأولى سنة ٤٨٤ هـ،[٢١] في أيام الخليفة المقتدي بأمر الله العباسي، ودرّس بالمدرسة النظامية حتى أُعجب به الناس لحسن كلامه وفصاحة لسانه وكمال أخلاقه. وأقام على التدريس وتدريس العلم ونشره بالتعليم والفتيا والتصنيف مدّة أربعة سنوات، حتى اتسعت شهرته وصار يُشدّ له الرّحال، ولُقّب يومئذٍ بـ "الإمام" لمكانته العالية أثناء التدريس بالنظامية في بغداد،[٢٢] ولقّبه نظام الملك بـ "زين الدين" و"شرف الأئمة".[٢١] وكان يدرّس أكثر من ٣٠٠ من الطلاب في الفقه وعلم الكلام وأصول الفقه،[٢٢] وحضر مجالسه الأئمة الكبار كابن عقيل وأبي الخطاب وأبي بكر بن العربي،[١٩] حيث قال أبو بكر بن العربي: «رأيت الغزالي ببغداد يحضر درسه أربعمائة عمامة من أكابر الناس وأفاضلهم يأخذون عنه العلم»،[٨]

انهمك الغزالي في البحث والاستقصاء والردّ على الفرق المخالفة بجانب تدريسه في المدرسة النظامية، فألّف كتابه "مقاصد الفلاسفة" يبيّن فيه منهج الفلاسفة، ثمّ نقده بكتابه "تهافت الفلاسفة" مهاجماً الفلسفة ومبيّناً تهافت منهجهم.[٢٣] ثمّ تصدّى الغزالي للفكر الباطني (وهم الإسماعيلية) الذي كان منتشراً في وقته والذي أصبح الباطنيون ذوو قوّة سياسية،[٢٤] حتى أنّهم قد اغتالوا الوزير نظام الملك عام ٤٨٥ هـ الموافق ١٠٩١، وتُوفي بعده الخليفة المقتدي بأمر الله، فلما جاء الخليفة المستظهر بالله، طلب من الغزالي أن يحارب الباطنية في أفكارهم، فألّف الغزالي في الردّ عليهم كتب "فضائح الباطنية" و"حجّة الحق" و"قواصم الباطنية".[٢٣]

رحلة الغزالي

كتاب إحياء علوم الدين أحد أهم الكتب التي ورّثها الغزّالي، وأحد أهمّ الكتب في موضوع التصوف وعلم الأخلاق، والذي ألّفه خلال رحلة عزلته التي دامت ١١ سنة، حيث ابتدأ التأليف به في القدس، وأنهاه في دمشق.[١٩] وكان أبو بكر ابن العربي من أول الجالبين لكتاب الإحياء إلى المغرب العربي[٣]

بعد خوض الغزالي في علوم الفلسفة والباطنية، عَكَف على قراءة ودراسة علوم الصوفية، وصحب الشيخ الفضل بن محمد الفارمذي (الذي كان مقصداً للصوفية في عصره في نيسابور، وهو تلميذ أبو القاسم القشيري).[٢٥] فتأثر الغزالي بذلك، ولاحظ على نفسه بعده عن حقيقة الإخلاص لله وعن العلوم الحقيقية النافعة في طريق الآخرة، وشعر أن تدريسه في النظامية مليء بحب الشهرة والعُجُب والمفاسد، عند ذلك عقد العزم على الخروج من بغداد، يقول عن نفسه:[٢٦]

> ثم لاحظت أحوالي، فإذا أنا منغمس في العلائق، وقد أحدقت بي من الجوانب، ولاحظت أعمالي – وأحسنها التدريس والتعليم – فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة، ولا نافعة في طريق الآخرة. ثم تفكرت في نيتي في التدريس، فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت، فتيقنت أني على شفا جرف هار، وأني قد أشفيت على النار، إن لم أشتغل بتلافي الأحوال.. فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا، ودواعي الآخرة، قريباً من ستة أشهر أولها رجب سنة 488هـ .وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار، إذ أقفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً تطييباً لقلوب المختلفة إلي، فكان لا ينطق لساني بكلمة واحدة ولا أستطيعها البتة. ثم لما أحسست بعجزي، وسقط بالكلية اختياري، التجأت إلى الله التجاء المضطر الذي لا حيلة له، فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال والأهل والولد والأصحاب

فكان خروجه من بغداد في ذي القعدة سنة ٤٨٨ هـ، وقد ترك أخاه أحمد الغزّالي مكانه في التدريس في النظامية في بغداد. وقد خرج إلى الشام قاصداً الإقامة فيها، مُظهِراً أنه متّجه إلى مكة للحجّ حذراً أن يعرف الخليفة فيمنعه من السفر إلى الشام.[٢٦] فوصل دمشق في نفس العام،[٨] ومكث فيها قرابة السنتين لا شغل له إلا العزلة والخلوة، والمجاهدة، اشتغالاً بتزكية النفس، وتهذيب الأخلاق. فكان يعتكف في مسجد دمشق، يصعد منارة المسجد طول النهار، ويغلق على نفسه الباب،[٢٦] وكان يكثر الجلوس في زاوية الشيخ نصر المقدسي في الجامع الأموي والمعروفة

اليوم بـ "الزاوية الغزالية" نسبةً إليه.[١٧] بعد ذلك رحل الغزالي إلى القدس واعتكف في المسجد الأقصى وقبة الصخرة. ثم ارتحل وزار مدينة الخليل في فلسطين، وما لبث أن سافر إلى مكة والمدينة المنورة لأداء فريضة الحج، ثم عاد إلى بغداد، بعد أن قضى ١١ سنة في رحلته،[٢٧] ألّف خلالها أعظم كتبه "إحياء علوم الدين"، وقد استقر أمره على الصوفية.

وبحسب تاج الدين السبكي وابن الجوزي وغيرهما، فإن الغزالي خرج أولاً من بغداد إلى الحج سنة ٤٨٨ هـ، ثم عاد منها إلى دمشق فدخلها سنة ٤٨٩ هـ، فلبث فيها أياماً، ثم توجّه إلى القدس، فجاور فيها مدّة، ثم عاد وبقي في دمشق معتكفاً في جامعها، ثم رحل وزار الإسكندرية في مصر، واستمرّ يجول في البلدان ويزور المشَاهد وَيَطوف على المساجد حتى عاد إلى بغداد للتدريس فيها.[١٧][١٩]

عودته إلى طوس

مبنى الهارونية في طوس، حيث وُجد على مدخله لوحة أرضية رخامية مكتوب عليها بالفارسية «بياد بود امام محمد غزالي»، أي "ذكرى الإمام الغزالي".[٢٨]

بعد قرابة ١١ سنة من العزلة والتنقّل، عزم الغزّالي على العودة إلى بغداد، فكان ذلك في ذي القعدة سنة ٤٩٩ هـ،[٢٧] ولم يدم طويلاً حتى أكمل رحلته إلى نيسابور ومن ثمّ إلى بلده طوس، وهناك لم يلبث أن استجاب إلى رأي الوزير فخر الملك للتدريس في نظامية نيسابور مكرهاً، فدرّس فيها مدة قليلة، وما لبث أن قُتل فخر الدين الملك على يد الباطنية، من ثمّ رحل الغزالي مرة أخرى إلى بلده طابران في طوس، وسكن فيها، متخذاً بجوار بيته مدرسة للفقهاء وخانقاه (مكان للتعبّد والعزلة) للصوفية، ووزّع أوقاته على وظائف من ختم القرآن ومجالسة الصوفية والتدريس لطلبة العلم وإدامة الصلاة والصيام وسائر العِبَادات،[١٧] كما صحّح قراءة أحاديث صحيح البخاري وصحيح مسلم على يد الشيخ عمر بن عبد الكريم بن سعدويه الرواسي.[٢٩] يروي بعض الناس حال الغزالي عند دخوله بغداد أول مرة، وحال دخوله إياها بعد رحلته، فعن أبي منصور الرزاز الفقيه، قال: «دخل أبو حامد بغداد، فقوّمنا ملبوسه ومركوبه خمسمائة دينار. فلمّا تزهد وسافر وعاد إلى بغداد، فقوّمنا ملبوسه خمسة عشر قيراطاً» وعن

أنوشروان (وكان وزيراً للخليفة) أنه زار الغزالي فقال له الغزالي: «زمانك محسوب عليك وأنت كالمستأجر فتوفرك على ذلك أولى من زيارتي» فخرج أنوشروان وهو يقول: «لا إله إلا الله، هذا الذي كان في أول عمره يستزيدني فضل لقب في ألقابه، كان يلبس الذهب والحرير».[١٩]

وفاته

قبر يُعتقد أنه يعود لأبي حامد الغزّالي

بعد أن عاد الغزّالي إلى طوس، لبث فيها بضع سنين، وما لبث أن تُوفي يوم الاثنين ١٤ جمادى الآخرة ٥٠٥ هـ، الموافق ١٩ ديسمبر ١١١١م، في "الطابران" في مدينة طوس،[٥] ولم يعقب إلا البنات. روى أبو الفرج بن الجوزي في كتابه "الثبات عند الممات"، عن أحمد (أخو الغزالي): «لما كان يوم الإثنين وقت الصبح توضأ أخي أبو حامد وصلّى، وقال: "عليّ بالكفن"، فأخذه وقبّله، ووضعه على عينيه وقال: "سمعاً وطاعة للدخول على الملك"، ثم مدّ رجليه واستقبل القبلة ومات قبل الإسفار».[٣٠] وقد سأله قبيل الموت بعض أصحابه:، فقالوا له: أوصِ. فقال: «عليك بالإخلاص» فلم يزل يكررها حتى مات.[١٩]

وأما عن تعيين قبره، فقد روى تاج الدين السبكي بأن الغزّالي دُفن في مقبرة "طابران"، وقبره هناك ظاهر وبه مزار.[١٧] أمّا حالياً فلا يُعرف قبر ظاهر للغزّالي، إلا أنه حديثاً تم اكتشاف مكان في طوس قرب مدينة مشهد في إيران حيث يُعتقد بأنه قبر الغزّالي،[٣١] والذي أمر رئيس الوزراء التركي رجب طيب أردوغان بإعادة إعماره خلال زيارته إلى إيران في ديسمبر ٢٠٠٩.[٣٢] وقد ادّعى الشيخ فاضل البرزنجي بأن قبر الغزالي موجود في بغداد وليس في طوس، بينما يؤكد أستاذ التاريخ بجامعة بغداد الدكتور حميد مجيد هدو، بالإضافة للوقف السني في العراق بأن قبره في طوس، وأن ما يتناقله الناس حول دفن الغزالي ببغداد، مجرد وهم شاع بين العراقيين،[٣٣] حيث أن المدفون في بغداد هو شخص صوفي يلقب بالغزالي وهو مؤلف كتاب "كشف الصدا وغسل الرام"، وجاء إلى بغداد قبل نحو ثلاثة قرون، وبعد فترة من وفاته جاء من قال إن هذا قبر الغزالي، وهو وهم كبير وقع فيه الناس.[٣٤]

الغزالي والفلسفة

الفيلسوف ابن سينا الذي تعرّض لنقد شديد من الغزّالي، حتى أنّه في كتابه المنقذ من الضلال كفّره، فقال: «فوجب تكفيرهم وتكفير شيعتهم من المتفلسفة الإسلاميين كابن سينا والفارابي وأمثالهما»[٣٦]

كانت الفلسفة في عصر أبي حامد الغزالي قد أثرت في تفكير الكثيرين من أذكاء عصره وسلوكهم، وأدى ذلك إلى التشكيك في الدين الإسلامي والانحلال في الأخلاق، والاضطراب في السياسة، والفساد في المجتمع.[٣٧] فتصدّى أبو حامد الغزالي لهم بعد أن عكف على دراسة الفلسفة لأكثر من سنتين، حتى استوعبها وفهمها، وأصبح كواحد من كبار رجالها، يقول عن نفسه: «ثم إني ابتدأت بعد الفراغ من علم الكلام بعلم الفلسفة، وعلمت يقيناً أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم، من لا يقف على منتهى ذلك العلم، حتى يساوي أعلمهم في أصل ذلك العلم.. فشمرت عن ساق الجد في تحصيل ذلك العلم من الكتب.. ثم لم أزل أواظب على التفكر فيه بعد فهمه قريباً من سنة أعاوده وأردده وأتفقد غوائله وأغواره، حتى اطَّلعت على ما فيه من خداع، وتلبيس وتحقيق وتخييل، واطلاعاً لم أشك فيه»،[٣٨] وألّف في ذلك كتابه "مقاصد الفلاسفة" مبيّناً منهجهم. ثم بعد ذلك وصل إلى نتيجته قائلاً: «فإني رأيتهم أصنافاً، ورأيت علومهم أقساماً وهم – على كثرة أصنافهم – يلزمهم وصمة الكفر والإلحاد، وإن كان بين القدماء منهم والأقدمين، وبين الأواخر منهم والأوائل، تفاوت عظيم، في البعد عن الحق والقرب منه».[٣٨]

تناول الغزالي الفلسفة بالتحليل التفصيلي، وذكر أصنافهم وأقسامهم، وما يستحقون به من التكفير بحسب رأيه، وما ليس من الدين، بذلك اعتُبر الغزالي أول عالم ديني يقوم بهذا التحليل العلمي للفلسفة، وأول عالم ديني يصنّف في علومهم التجريبية النافعة، ويعترف بصحة بعضها.[٣٩] إذ قسّم الغزالي علوم فلاسفة اليونان إلى العلوم الرياضية،

والمنطقيات، والطبيعيات، والإلهيات، والسياسات، والأخلاقيات، وكان أكثر انتقاد الغزالي وهجومه على الفلاسفة ما يتعلق بالإلهيات، إذ كان فيها أكثر أغاليطهم بحسب الغزالي، وقد كفّر الغزالي فلاسفة الإسلام المتأثرين بالفلسفة اليونانية في ٣ مسائل، وبدّعهم في ١٧ عشر مسألة، وألّف كتاباً مخصوصاً للرد عليهم في هذه ال ٢٠ مسألة سمّاه "تهافت الفلاسفة"،[٣٩] وفيه هاجم الفلاسفة بشكل عام والفلاسفة المسلمون بشكل خاص، وخاصة ابن سينا والفارابي فقد هاجمهم هجوماً شديداً، ويُقال إنه قضى على الفلسفة العقلانية في العالم العربي، منذ ذلك الوقت ولعدة قرون متواصلة.[٤٠] فجاء بعده ابن رشد فرد على الغزالي في كتابين أساسيين هما "فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال"، ثم "تهافت التهافت".[٤٠]

وبحسب الباحثين أمثال يوسف القرضاوي وعباس محمود العقاد، فإن الغزالي يُعدّ في كثير من نظرياته النفسيّة والتربوية والاجتماعية صاحب فلسفة متميّزة، وهو في بعض كتبه أقرب إلى تمثيل فلسفة إسلامية، وأنه فيلسوف بالرغم من عدم كونه يريد ذلك،[٣٧] وهذا ما صرّح به كثيرون من العرب والغربيين، حتى قال الفيلسوف المشهور رينان: «لم تنتج الفلسفة العربية فكراً مبتكراً كالغزالي»،[٤١] وقد رأى كثير من علماء المسلمين قديماً أن الغزالي رغم حربه للفلسفة، لم يزل متأثراً بها، حتى قال تلميذه أبو بكر بن العربي: «شيخُنا أبو حامد: بَلَعَ الفلاسفةَ، وأراد أن يتقيَّأهم فما استطاع».[٤٢]

الغزالي والتصوف

المراحل الفكرية التي مرّ بها الغزالي

جزء من سلسلة

تاريخ التصوف

العقائد والعبادات

توحيد · الشهادتين · الصلاة ·الصوم · الحج · الزكاة

أعلام التصوف

الرفاعي · عبد القادر الجيلاني ·أحمد البدوي · إبراهيم الدسوقي · المحاسبي · **أبو حامد الغزالي** · حسن البصري · أحمد السرهندي · ابن عربي · أبو الحسن الشاذلي · الجنيد · القشيري

كتب التصوف

إحياء علوم الدين · الرسالة القشيرية الفتوحات المكية · قواعد التصوف · الحكم العطائية · قوت القلوب · التعرف على مذهب أهل التصوف · الجوهرة

طرق الصوفية

الرفاعية · القادرية · البدوية · الدسوقية · النقشبندية · السهروردية · الشاذلية · السنوسية · المولوية · الإدريسية التيجانية · البكداشية · العروسية

مصطلحات علم التصوف

المحبة · المعرفة · فناء · بقاء · سالك · الشيخ · الطريقة ·

تجلي · وحدة الوجود
مساجد
المسجد الحرام · المسجد النبوي
المسجد الأقصى · جامع الأزهر
جامع الزيتونة · جامع القرويين
مسجد الدسوقي
بلاد التصوف
الأغواط · دمشق · خراسان · القدس · البصرة · الإسكندرية · فاس · دسوق طنطا · بغداد

قبل أن يستقر أمر الغزالي على التصوف، مرّ بمراحل كثيرة في حياته الفكرية، كما يرويها هو نفسه في كتابه المنقذ من الضلال، فابتدأ **بمرحلة الشكّ** بشكل لا إرادي، والتي شكّ خلالها في الحواس والعقل وفي قدرتهما على تحصيل العلم اليقيني، ودخل في مرحلة من السفسطة غير المنطقية حتى شُفي منها بعد مدة شهرين تقريباً.[٤٣] ليتفرّغ بعدها لدراسة الأفكار والمعتقدات السائدة في وقته، يقول: «ولما شفاني الله من هذا المرض بفضله وسعة جوده، أحضرت أصناف الطالبين عندي في أربع فرق: المتكلمون: وهم يدعون أنهم أهل الرأي والنظر. والباطنية: وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم، والمخصوصون بالاقتباس من الإمام المعصوم. والفلاسفة: وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان. والصوفية: وهم يدعون أنهم خواص الحضرة، وأهل المشاهدة والمكاشفة»،[٤٣] ويتابع ويقول: «فابتدرت لسلوك هذه الطرق، واستقصاء ما عند هذه الفرق مبتدئاً بعلم الكلام، ومثنياً بطريق الفلسفة، ومثلثاً بتعلّم الباطنية، ومربعاً بطريق الصوفية».[٤٣] فعكف على دراسة علم الكلام حتى أتقنه وصار أحد كبار علمائهم، وصنف فيه عدة من الكتب التي أصبحت مرجعاً في علم الكلام فيما بعد مثل كتاب "الاقتصاد في الاعتقاد"، إلا أنه لم يجد ضالته المنشودة في علم الكلام، ورآه غير واف بمقصوده، يقول عن نفسه: «فلم يكن الكلام (أي علم الكلام) في حقي

كافياً، ولا لدائي الذي كنت أشكوه شافياً».[٤٤] بعد ذلك توجّه لعلم الفلسفة ودرسها وفهمها، ثم نقدها بشدة بكتابه تهافت الفلاسفة. ثم درس بعدها الباطنية[٢] فردّ عليهم وهاجمهم. ليستقر أمره على علم التصوف.

استقراره على التصوف

بعد تلك المراحل بدأ اهتمام الغزالي يتّجه نحو علوم التصوف، فابتدأ بمطالعة كتبهم مثل: قوت القلوب لأبي طالب المكي، وكتب الحارث المحاسبي، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد وأبي بكر الشبلي وأبي يزيد البسطامي. كما أنه كان يحضر مجالس الشيخ الفضل بن محمد الفارمذي الصوفي، والذي أخذ عنه الطريقة،[١٩] فتأثر بهم تأثيراً كبيراً، حتى أدّى به الأمر لتركه للتدريس في المدرسة النظامية في بغداد، واعتزاله الناس وسفره لمدة ١١ سنة،[٢٦] تنقل خلالها بين دمشق والقدس والخليل ومكة والمدينة المنورة، كتب خلالها كتابه المشهور في التصوف "إحياء علوم الدين"، وكانت نتيجة رحلته الطويلة تلك أن قال:[٢٦]

> وانكشفت لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها، والقدر الذي أذكره ليُنتفع به أني علمتُ يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة،وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق.

كتاب إحياء علوم الدين

- **مقالة مفصلة:** إحياء علوم الدين

كان من أشهر مؤلفات الغزّالي في التصوف كتابه "إحياء علوم الدين"، والذي قد حاز شهرةً وانتشاراً ما لم يقاربه أي كتاب من كتبه الأخرى، حتى صارت نسخه المخطوطة مبثوثة في مكتبات العالم.[٤٥] وقد امتدح الكتاب غير واحد من علماء الإسلام، مثل ما قاله عبد الرحيم العراقي المحدث الذي خرّج أحاديث الإحياء، حيث قال عنه: «إنه من أجل كتب الإسلام في معرفة الحلال والحرام، جمع فيه بين ظواهر الأحكام، ونزع إلى سرائر دقت عن الأفهام، لم يقتصر فيه على مجرد الفروع والمسائل، ولم يتبحر في اللجة بحيث يتعذر الرجوع إلى الساحل، بل مزج فيه علمي الظاهر والباطن، ومرج معانيها في أحسن المواطن، وسبك فيه نفائس اللفظ وضبطه، وسلك فيه من النمط أوسطه»، وقال غيره: «من لم يقرأ الإحياء فليس من الأحياء»،[٤٦] كما أُلّف الكثير من الكتب في شرح واختصار الإحياء والدفاع عنه، مثل كتاب "الإملاء على مشكل الإحياء" والذي ألفه الغزالي نفسه للرد على من انتقده في عصره، وكذلك كتاب "إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين" للزبيدي، و"تعريف الأحياء بفضائل

[2] مجموعة فرق إسلامية قوام معتقدها أن لكل ظاهر باطنا ولكل تنزيل تأويلا (المعجم العربي الأساسي)

الإحياء" لعبد القادر العيدروس، وكذلك "المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار" لعبد الرحيم العراقي. أما الاختصارات، فقد اختصره أخوه أحمد الغزّالي في كتاب "لباب الإحياء"، و"منهاج القاصدين" لابن الجوزي، وغيرها الكثير.

وعلى العكس من ذلك، فقد ذمّ جمع من العلماء الإحياء منتقدين فيه كثرة الأحاديث الضعيفة، وإيراده لقصص الصوفية،[٤٦] وقد أقر الغزالي بضعفه في علم الحديث، حيث قال عن نفسه «أنا مُزجَى البِضاعةِ في الحديث».[٤٧] وأُلفت عدة كتب في الرد على الإحياء، مثل كتاب "إحياء ميت الأحياء في الرد على كتاب الإحياء" لأبي الحسن ابن سكر، و"إعلام الأحياء بأغلاط الإحياء" لابن الجوزي،[١٠] و"الضياء المتلالي في تعقب الإحياء للغزالي" لأحمد ابن المنيّر، حتى وصل الأمر أن أُمر بحرق كتاب الإحياء في قرطبة على عهد علي بن يوسف بن تاشفين ثاني أمراء المرابطين.[٤٥] سبب تسمية الكتاب بإحياء علوم الدين هو القناعة التي وصل لها الغزالي بأن **العلم والفقه الحقيقي هو الذي ينعكس على سلوك الإنسان نتيجة يقينه بأن الآخرة خيرٌ من الأولى**، وهو بذلك يذم ما يسمى علوماً دينية تبنى على الإغراق في التفاصيل الفقهية وترتيب المناظرات والفوز بها، وقد قسم الكتاب إلى أربع أجزاء بعد مفدمة عن العلم والتفريق بين أنواعه.

- ربع العبادات كالصلاة والزكاة والحج موضحاً لبعض التفاصيل الدقيقة المتعلقة بأثر العبادات هذه على قلب الإنسان.
- ربع العادات كالزواج والعمل لاكتساب الرزق.
- ربع المهلكات كالغرور والتكبر وحب الدنيا والجاه والإفراط في شهوتي الطعام والجنس وجعلهما باباً واحداً
- ربع المنجيات بدأه بالتوبة وأن حقيقتها معرفة الله ثم الخجل منه فالندم والاعتذار ، ثم تكلم عن الصبر والخوف من الله وعبادة التفكر.

معظم ما كتبه الغزالي في الإحياء يبدأ عادة بشرح واستدلال بآية من القرآن الكريم ثم بحديث ثم بأخبار الصحابة ثم بأخبار الصالحين

تلاميذ الغزالي

كانت مدرسة الغزالي تضم عشرات التلاميذ الأذكياء، وقد أثّر الغزالي تأثراً كبيراً في جمهور كبير من تلاميذه، وذكر الزبيدي منهم:[٤٨]

- أبو النصر أحمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الخمقدي، توفي سنة ٥٤٤ هـ، وتفقّه في طوس على الغزالي.

- أبو منصور محمد بن إسماعيل بن الحسين العطاري، الواعظ في طوس والملقّب بـ "جندة"، توفي ٤٨٦ هـ، وتفقّه في طوس على الغزالي.
- أبو الفتح أحمد بن علي بن محمد بن برهان، وكان حنبلياً، ثم تفقّه على الغزالي، وكان يدرّس في المدرسة النظامية علوم شتى، ودرّس إحياء علوم الدين للطلاب، توفي ٥١٨ هـ.
- أبو سعيد محمد بن أسعد التوقاني، توفي ٥٥٤ هـ.
- أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت المصمودي، الملقّب بـ "المهدي".
- أبو حامد محمد بن عبد الملك الجوزقاني الإسفراييني، تفقّه على الغزالي في بغداد.
- محمد بن يحيى بن منصور، وهو من أشهر تلامذته، تفقه على الغزالي، وشرح كتابه الوسيط.
- أبو بكر بن العربي، القاضي المالكي، وهو من حمل كتابه إحياء علوم الدين إلى المغرب العربي عند عودته من رحلته المشرقية عام ٤٩٥ هـ.
- أحمد بن مَعَدّ بن عيسى بن وكيل التجيبي الداني الأُقْلِيشي، لم يكن له لقاء مباشر مع الغزالي، فإن أخذه وروايته لمؤلفات الإمام، كانت عن طريق شيخيه أبو بكر بن العربي وعبَّاد بن سَرْحَان المعَافِرِي.

آثار الغزالي

- **مقالة مفصلة:** مؤلفات أبي حامد الغزالي

صندوق لقلم يعود للإمام الغزّالي، موجودة في متحف القاهرة

مخطوطة قديمة لكتاب "كيماء السعادة" للغزالي

ألّف الإمام الغزّالي خلال مدة حياته (٥٥ سنة) الكثير من الكتب في مختلف صنوف العلم، حتى أنه قيل: إن تصانيفه لو وزعت على أيام عمره أصاب كل يوم كتاب. وقد وضع الباحثان جميل صليبا وكامل عيّاد قائمة بمؤلفات الغزالي ضمت ٢٢٨ كتاباً ورسالة، ما بين مطبوع ومخطوط ومفقود.[٤٩] وبسبب شهرة الغزالي وتصانيفه، نُسبت إليه الكثير من الكتب والرسائل، وأصبح من الصعب تحديد صحة نسبتها إليه. فقد ذكر المتقدمون، من أمثال عبد الغافر الفارسي (ت. ٥٢٩ هـ) وأبو بكر بن العربي (ت. ٥٤٣ هـ) وتاج الدين السبكي (ت. ٧٧١ هـ) وطاش كبرى زادة (ت. ٩٦٨ هـ) المرتضى الزبيدي (ت. ١٢٠٥ هـ)، الكثير من تصانيف الغزالي، واعتمد الباحثون على هذه المصادر في تحديد مصنفات الغزالي.

وفي منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، بدأ المستشرقون في البحث في مؤلفات الغزالي، فنشر المستشرق جوشه بحثاً سنة ١٨٥٨ م، تنوال فيه أربعين مؤلفا للغزالي، وحوال أن يحقق صحة نسبتها إليه. ثم تلاه ماكدونلد وجولد تسهير وماسينيون ومونتكمري وات وبويج وغيرهم بأبحاث أخرى تناولت نفس الموضوع.[٥٠] ثم جاء عبد الرحمن البدوي بعمل ضخم في كتاب أسماه «مؤلفات الغزالي» ونُشر سنة ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م، وفيه تناول البدوي ٤٥٧ مصنفا يُنسب إلى الغزالي، وقسّمه على النحو التالي:

- من ١ إلى ٧٢: كتب مقطوع بصحة نسبتها إلى الغزالي.
- من ٧٣ إلى ٩٥: كتب يدور الشك في صحة نسبتها إلى الغزالي.

- من ٩٦ إلى ١٢٧: كتب من المرجح أنها ليست للغزالي.
- من ١٢٨ إلى ٢٢٤: أقسام من كتب الغزالي أفردت كتبا مستقلة، وكتب وردت بعنوانات مغايرة.
- من ٢٢٥ إلى ٢٧٣: كتب منحولة.
- من ٢٧٤ إلى ٣٨٠: كتب مجهولة الهوية.
- من ٣٨١ إلى ٤٥٧: مخطوطات موجودة ومنسوبة إلى الغزالي.

وأخيرا أتى مشهد العلاّف ببحث إستدرك بها على ما جاء به البدوي، وخصوصا "ما يتعلق منها بالكتب المقطوع بصحة نسبتها للغزالي فقد تضمنت بعض المنحولات".[٥١]

من كتب الغزالي

هذا ثبت بأهم الكتب المنسوبة للغزالي:

في العقيدة وعلم الكلام في علم الفقه وأصوله وعلم في علم التصوف: متنوعات: والفلسفة والمنطق: الجدل:

- الاقتصاد في الاعتقاد.
- بغية المريد في مسائل التوحيد.
- إلجام العوام عن علم الكلام.
- المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى.
- المعارف العقلية ولباب الحكمة الإلهية.
- القانون الكلي في التأويل.
- التعليقة في فروع المذهب.
- البسيط في الفروع.
- الوسيط، في فقه الإمام الشافعي.
- الوجيز، في فقه الإمام الشافعي.
- فتاوى الغزالي.
- غاية الغور في دراية الدور، في المسألة السريجية.
- المستصفى في علم أصول الفقه.
- المنخول في علم
- إحياء علوم الدين.
- الإملاء على مشكل الإحياء.
- بداية الهداية.
- أيها الولد.
- أسرار معاملات الدين.
- روضة الطالبين وعمدة السالكين.
- الأربعين في أصول الدين.
- مدخل السلوك الي منازل الملوك.
- ميزان العمل.
- كيمياء السعادة،
- المنقذ من الضلال.
- المضنون به على غير أهله.
- المضنون به على أهله.
- جواهر القرآن ودرره.
- حقيقة القرآن.
- الحكمة في مخلوقات الله.
- التبر المسبوك في نصحية الملوك.
- القصيدة المنفرجة.
- شفاء الغليل في بيان الشبه والمخيل

- فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة.
- فضائح الباطنية.
- حجّة الحق، في الرد على الباطنية.
- قواصم الباطنية.
- مقاصد الفلاسفة.
- تهافت الفلاسفة.
- معيار العلم في فن المنطق.
- محك النظر في المنطق.
- ميزان العمل.
- الأصول.
- تهذيب الأصول.
- المباديء والغايات.
- شفاء الغليل في القياس والتعليل.
- القسطاس المستقيم.
- أساس القياس.
- المنتحل في علم الجدل.
- مآخذ الخلاف.
- لباب النظر.
- تحصين المآخذ في علم الخلاف.
- جواب مفصل الخلاف.
- (وقد كتبه بالفارسية وتُرجم إلى العربية).
- زاد الآخرة، (وقد كتبه بالفارسية وتُرجم إلى العربية).
- مكاشفة القلوب المقرب إلى حضرة علاّم الغيوب.
- سر العالمين وكشف ما في الدارين.
- منهاج العابدين.
- منهاج العارفين.
- معارج القدس في مدارج معرفة النفس.
- مشكاة الأنوار.
- الرسالة اللدنية.
- الكشف والتبيين في غرور الخلق أجمعين.
- تلبيس إبليس.
- ومسالك التعليل.

أقوال العلماء فيه

المؤيدون

كان أبو حامد الغزالي عند جمهور المتقدمين حجّة الإسلام ومجدد القرن الخامس الهجري،[٥٢] ومحيي علوم الدين، وكان من أقوال مَن أثنى عليه ومدحه:

- شيخه أبو المعالي الجويني: الغزالي بحر مغدق.[١٧]
- الذهبي: الشيخ الإمام البحر، حجة الإسلام، أعجوبة الزمان، زين الدين أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الشافعي، الغزالي، صاحب التصانيف والذكاء المفرط.[١٠]
- ابن الجوزي: صنف الكتب الحسان في الأصول والفروع، التي انفرد بحسن وضعها وترتيبها، وتحقيق الكلام فيها.[١٩]
- تاج الدين السبكي: حجة الإسلام ومحجة الدين التي يتوصل بها إلى دار السلام، جامع أشتات العلوم، والمبرز في المنقول منها والمفهوم، جرت الأئمة قبله بشأو ولم تقع منه بالغاية، ولا وقف عند مطلب وراء مطلب لأصحاب النهاية والبداية.[١٧]
- ابن النجار: أبو حامد إمام الفقهاء على الإطلاق ورباني الأمة بالإتفاق، ومجتهد زمانه وعين أوانه، وكان شديد الذكاء، قوي الإدراك، ذا فطنة ثاقبة، وغوص على المعاني.[٥٣]
- أبو الحسن الشاذلي: إذا عرضت لكم إلى الله حاجة فتوسلوا إليه بالإمام أبي حامد.[٥٤]
- أبو العباس المرسي: إنا لنشهد له بالصديقية العظمى.[٥٤]
- ابن العماد الحنبلي: الإمام زين الدين حجة الإسلام، أبو حامد أحد الأعلام، صنف التصانيف مع التصون والذكاء المفرط والاستبحار في العلم وبالجملة ما رأى الرجل مثل نفسه.[٨]
- ابن كثير: كان من أذكياء العالم في كل ما يتكلم فيه.
- أبو بكر ابن العربي: كان أشهر من لقينا من العلماء في الآفاق، ومن سارت بذكره الرفاق لطول باعه في العلم، ورَحب ذراعه، الإمام أبو حامد بن محمد الطوسي الغزالي.[٥٥]
- أسعد الميهني: لا يصل إلى معرفة علم الغزالي وفضله إلا من بلغ أو كاد يبلغ الكمال في عقله.[٥٣]
- عبد الغافر بن إسماعيل الفارسي: أبو حامد الغزالي حجة الإسلام والمسلمين، إمام أئمة الدين، من لم تر العيون مثله لساناً وبياناً ونطقاً وخاطراً وذكاءً وطبعاً.
- تلميذه محمد بن يحيى: الغزالي هو الشافعي الثاني.[٥٣]
- الأسنوي: الغزالي إمام باسمه تنشرح الصدور وتحيا النفوس، وبرسمه تفتخر المحابر وتهتز الطروس، وبسماعه تخشع الأصوات وتخضع الرؤوس. وهو قطب الوجود والبركة الشاملة لكل موجود وروح خلاصة أهل الإيمان والطريق الموصلة إلى رضا الرحمن يتقرب إلى الله به كل صديق ولا يبغضه إلا ملحد أو زنديق.[٨]

المعارضون

كان لأبي حامد الغزالي، كغيره من قادة الفكر، جماعة ممن انتقدوه، فأنكروا عليه بعض ما كتب في كتبه، أو بعض ما تبنّاه من أفكار، أو بعض ما اختاره من طريق الزهد والتصوف، وحتى مَن انتقده فقد أشاد بعلمه وفضله،[٥٢] فكان ممن انتقده:

- أبو بكر الطرطوشي، والذي انتقد الغزالي في هجرانه للعلوم الشرعية، وإقباله على طريق الصوفية، وإدخاله الفلسفة، وانتقاده فيما بعد للفقهاء والمتكلمين، حتى قال عنه أنه «كاد ينسلخ من الدين»، متهماً إياه بأنه «غير أنيس بعلوم الصوفية ولا خبير بمعرفتها». ولقد ردّ تاج الدين السبكي على انتقاد الطرطوشي، وقال بأن الغزالي درس الفلسفة لينقضها، وأنه «كان ذا قدم راسخ في التصوف، وإن لم يكن الغزاليّ يدري التصوف فَمن يدريه».[٥٦]
- المازري، والذي أنكر على الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين إيراده الأحاديث الضعيفة، وأنكر عليه قراءته للفلسفة، فردّ عليه أيضاً تاج الدين السبكي، وبيّن علّة إنكاره على الغزالي، ألا وهي التعصّب لأبي حسن الأشعري في علم الكلام، وتعصّبه لمالك بن أنس في الفقه، فقد كان الغزالي ربما خالف أبا حسن الأشعري في مسائل فرعية في علم الكلام حتى أن المازري قال «من خطأ شيخ السّنة أَبَا الْحسن الْأَشْعَرِيّ فَهُوَ المخطيء». كما رد عليه في مسألة أحاديث كتاب الإحياء، بأن الغزالي لم يكن ذا علم غزير في الأحاديث النبوية، وأن «عامة مَا في الإحياء من الأخبار والآثار مبدد في كتب من سبقه من الصوفية والفقهاء».[٥٦]
- ابن الصلاح، وقد انتقده بسبب إدخاله المنطق في علم أصول الفقه، وردّ أيضاً عليه تاج الدين السبكي.[٥٦]
- ابن الجوزي، له كلام في مدح الغزالي، وله كلام في انتقاده، وذلك في عدة مواضع في كتابه تلبيس إبليس، وقد ألف أيضاً كتاباً في الرد على إحياء علوم الدين سمّاه "إعلام الأحياء بأغلاط الإحياء".[٥٢]
- ابن تيمية، وقد انتقده بقوة أيضاً، وذلك في مواضع متعددة في فتاويه، وفي كتابه "الرسالة السبعينية".[٥٢]

كتب وأبحاث عن الغزالي

- أبو حامد الغزالي المفكر الثائر، محمد الصادق
- الحقيقة في نظر الغزالي، سليمان دنيا، دار

عرجون، الدار القومية للطباعة والنشر، مصر.
- أبو حامد الغزالي دراسات في فكره وعصره وتأثيره، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، المغرب.
- أعلام المسلمين الإمام الغزالي، صالح أحمد الشامي، دار القلم، دمشق.
- الغزالي (سلسلة فلاسفة العرب) ، يوحنا قمير، دار المشرق.
- الأخلاق عند الغزالي، زكي مبارك، دار الجيل، بيروت.
- الآداب التعاملية في فكر الإمام الغزالي، أحمد خواجة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت.
- الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه، يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- الإمام الغزالي وعلاقة اليقين بالعقل، محمد إبراهيم الفيومي، دار الفكر العربي، القاهرة.
- التربية الإسلامية عند الإمام الغزالي، أيوب دخل الله، المكتبة العصرية، بيروت.
- التصوف السنّي حال الفناء بين الجنيد والغزالي، مجدي محمد إبراهيم، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.
- التصوف بين الغزالي وابن تيمية، عبد الفتاح محمد سيد أحمد، دار الوفاء، المنصورة.

المعارف، مصر.
- الإمام الغزالي وعلم الحديث، محمد عقيل بن علي المهدلي، دار الحديث، القاهرة.
- الفيلسوف الغزالي، عبد الأمير الأعسم، دار قباء للطباعة والنشر.
- اللامعقول وفلسفة الغزالي، محيي الدين عزوز، الدار العربية للكتاب، ليبيا.
- المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت، محمود حمدي زقزوق، دار المعارف، القاهرة.
- حجة الإسلام الإمام الغزالي، مأمون غريب، مركز الكتاب للنشر.
- دور الغزالي في الفكر، حسن الفاتح قريب الله، مطبعة الأمانة، مصر.
- مقارنة بين الغزالي وابن تيمية، محمد رشاد سالم، دار القلم، الكويت.
- مؤلفات الغزالي، عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت.
- الغزالي، مصطفى غالب، منشورات دار مكتبة الهلال، بيروت – لبنان.

المصادر

١. ^ هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، تأليف: ماجد الكيلاني، ص١٨٤.

٢. ^ الشيخ عبد القادر الكيلاني رؤية تاريخية معاصرة ، تأليف جمال الدين فالح الكيلاني ، مؤسسة مصر مرتضى ، بغداد ، ٢٠١١ ،ص٦٣.

٣. ^ Jump up to: أ ب ت نظم الأقليشي في الدفاع عن فكر الغزالي، الدكتورة حياة قارة، كلية الآداب، الرباط.

٤. ^ تحفة المهتدين بأخبار المجددين، السيوطي، كما هي منقولة في كتاب "عون المعبود شرح سنن أبي داود"، ج١١، ص٢٦٥، دار الكتب العلمية.

٥. ^ Jump up to: أ ب ت معجم البلدان، ياقوت الحموي، ج٤، ٢١٦-٢١٩.

٦. ^ الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي، محمد البهي، ص٢٣٢، ط٣.

٧. ^ Jump up to: أ ب الفيلسوف الغزالي، عبد الأمير الأعسم، ص٢٧-٣٢، دار قباء، ط١٩٩٨.

٨. ^ Jump up to: أ ب ت ث ج شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي

٩. ^ شذرات من ذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد، ج٤.

١٠. ^ Jump up to: أ ب ت سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج١٩.

١١. ^ وفيات الأعيان، ابن خلكان، ج١، ص٩٨.

١٢. ^ معجم البلدان، ياقوت الحموي، ج٣، ص٥٦١.

١٣. ^ انظر مقدمة تحقيق كتاب الوجيز في الفقه، الإمام الغزالي، علي معوض وعادل عبد الموجود، دار الأرقم، بيروت، ط١، ١٩٩٧.

١٤. ^ حجة الإسلام، العزيزي، ص٣٥.

١٥. ^ Jump up to: أ ب طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين السبكي، ج٦، ص١٩١-١٩٤.

١٦. ^ Jump up to: أ ب سيرة الغزالي، عبد الكريم العثمان، ص١٧.

١٧. ^ Jump up to: أ ب ت ث ج ح خ د ذ طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين السبكي، ج٦، ص١٩٥-٢٠١.

١٨. ^ رجال الفكر والدعوة في الإسلام، أبو الحسن الندوي، ص١٥٩.

١٩. ^ Jump up to: أ ب ت ث ج ح خ د المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ابن الجوزي، ج٩، سنة ٥٠٥هـ.

٢٠. ^ الإمام أبو حامد الغزالي، مصطفى جواد، ص٥٥.

٢١. ^ Jump up to: أ ب البداية والنهاية، ابن كثير، ج١٦، ص١١٨، أحداث سنة ٤٨٤ هـ.

٢٢. ^ Jump up to: أ ب التعليم في المدرسة النظامية، مجلة المعلم الجديد العراقية، حسين أمين، ج٦، ج١٨، سنة ١٩٥٥، ص٣٥.

٢٣. ^ Jump up to: أ ب الفيلسوف الغزالي، عبد الأمير الأعسم، ص٣٨-٤٠، دار قباء، ط١٩٩٨.

٢٤. ^ مختصر تاريخ العرب، أمير علي، ص٢٧٨.

٢٥. ^ طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين السبكي، ج٥، ص٣٠٦.

٢٦. ^ Jump up to: أ ب ت ث ج المنقذ من الضلال، أبو حامد الغزالي، ص١٧٠-١٧٧، دار الكتب الحديثة.

٢٧. ^ Jump up to: أ ب المنقذ من الضلال، أبو حامد الغزالي، ص١٨٠-١٩٠، دار الكتب الحديثة.

٢٨. ^ جريدة القبس: الهارونية.

٢٩. ^ البداية والنهاية، ابن كثير، ج١٦، ص٢٠٨، أحداث سنة ٥٠٣ هـ.

٣٠. ^ الثبات عند الممات، ابن الجوزي.

٣١. ^ موقع الإمام الغزالي: قبر الإمام الغزالي.

٣٢. ^ صحيفة تركية: إعادة إعمار قبر الإمام الغزالي.

٣٣. ^ جريدة المؤتمر: الوقف السني: الإدعاء بأن قبر الغزالي في بغداد غايته استغلال الناس.. وأكد ان القبر يقع في مدينة طوس.

٣٤. ^ الجزيرة نت: جدل عراقي حول قبر الإمام الغزالي.

٣٥. ^ Jump up to: أ ب طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين السبكي، ج٦، ص٢٢٠-٢٢٤.

٣٦. ^ المنقذ من الضلال، أبو حامد الغزالي، ص١٣٧.

٣٧. ^ Jump up to: أ ب الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه، يوسف القرضاوي، ص٢٠-٤٥، مؤسسة الرسالة، ط١.

٣٨. ^ Jump up to: أ ب المنقذ من الضلال، أبو حامد الغزالي، ص١٢٦-١٢٧.

٣٩. ^ Jump up to: أ ب التصوف بين الغزالي وابن تيمية، عبد الفتاح محمد سيد أحمد، ص٦٤-٧٢، دار الوفاء، ط١.

٤٠. ^ Jump up to: أ ب البيان: الفلسفة في القرون الوسطى، جون مارينبون، ٢٠٠٥.

٤١. ^ دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية ورجالها، عبده الشمالي، ص٥٥٣.

٤٢. ^ سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج١٩، ص٣٢٧.

٤٣. ^ Jump up to: أ ب ت المنقذ من الضلال، أبو حامد الغزالي، ص١١٢-١١٨، دار الكتب الحديثة.

٤٤. ^ المنقذ من الضلال، أبو حامد الغزالي، ص١٢٤، دار الكتب الحديثة.

٤٥. ^ Jump up to: أ ب أبو حامد الغزالي وكتابه إحياء علوم الدين، عبد الله بن سالم البطاطي.

٤٦. ^ Jump up to: أ ب الدرر السنية، إحياء علوم الدين.

٤٧. ^ . من أجل ذا حُرِّقت كتب الغزالي!. موقع الصوفية (٢٠ صفر ١٤٣٤هـ). وصل لهذا المسار في شباط ٢٠١٣ م.

٤٨. ^ إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، الزبيدي المرتضى، ج١، ص٥٥.

٤٩. ^ . الغزالي (أبو حامد .). الموسوعة العربية . هئية الموسوعة العربية سورية- دمشق. وصل لهذا المسار في آذار ٢٠١٣.

٥٠. ^ بدوي، عبد الرحمن (١٩٧٧). *مؤلفات الغزالي* (الطبعة الثانية). الكويت: وكالة المطبوعات. صفحات ٩—١٥.

٥١. ^ . كُتُب الإمام الغزالي الثَّابت مِنها والمنحول. موقع الإمام الغزالي. وصل لهذا المسار في شباط ٢٠١٣.

٥٢. ^ Jump up to: أ ب ت ث الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه، يوسف القرضاوي، ص٨٤-٩٢، مؤسسة الرسالة، ط١.

٥٣. ^ Jump up to: أ ب ت طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين السبكي، ج٦، ص٢٠٢-٢٠٣.

٥٤. ^ Jump up to: أ ب لطائف المنن، ابن عطاء الله السكندري، ص٩٧.

٥٥. ^ دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، عصمت دندش، ص١٩٥.

٥٦. ^ Jump up to: أ ب ت طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين السبكي، ج٦، ص٢٤٠-٢٥٨.

٥٧. ^ مؤسسة الأقصى: افتتاح الكرسي المكتمل لفكر الغزالي في الأقصى.

٥٨. ^ موقع أمازون: فيلم الغزالي.. كيميائي السعادة.

٥٩. ^ سينما دوت كوم: مسلسل الإمام الغزالي.

الغزالي

يا أيها الولد

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على نبيه محمد وآله أجمعين.

إعلم أن واحدا من الطلبة المتقدمين لازم خدمة الشيخ الإمام زين الدين حجَّة الإسلام أبي حامد بن محمد الغزالي، قدس الله روحه، واشتغل بالتحصيل وقراءة العلم عليه حتى جمع دقائق العلوم، واستكمل فضائل النفس. ثم إنه تفكر يوما في حال نفسه، وخطر على باله، وقال: إني قرأت أنواعا من العلوم وصرفت ريعان عمري على تعلمها وجمعها، والآن ينبغي لي أن أعلم أي نوعها ينفعني غدا ويؤنسني في قبري؟ وأيها لا ينفعني حتى أتركه، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهم أعوذ بك من علم لا ينفع". فاستمرت هذه الفكرة حتى كتب إلى حضرة الشيخ حجة الإسلام محمد الغزالي رحمه الله تعالى واستفتاه، وسأله مسائل والتمس نصيحة ودعاء، قال: وإن كانت مصنفات الشيخ كالإحياء وغيره تشتمل على جواب مسائلي، لكن مقصودي أن يكتب الشيخ حاجتي في ورقات تكون معي مدة حياتي، وأعمل بما فيها مدة عمري إن شاء الله تعالى. فكتب الشيخ هذه الرسالة إليه في جوابه، والله أعلم.

إعلم أيه الولد المحب العزيز، أطال الله بقاك بطاعته وسلك بك سبيل أحبائه، أن منشور النصيحة يُكتب من معدن الرسالة، وإن كان قد بلغك منه نصيحة، فأي حاجة لك في نصيحتي، وإن لم يبلغك فقل لي: ماذا حصلت في هذه السنين الماضية؟

أيها الولد، من جملة ما نصح به رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته قوله عليه الصلاة والسلام: "علامة إعراض الله تعالى عن العبد اشتغاله بما لا يعنيه. وإن امرأ ذهبت ساعة من عمره في غير ما خُلِق له العباد لجدير أن تطول عليه حسرته. ومن جاوز الأربعين ولم يغلب خيره على شره فليتجهز إلى النار"، وفي هذه النصيحة كفاية لأهل العلم.

أيها الولد، النصيحة سهلة والمشكلة قبولها، لأنها في مذاق متبعي الهوى مُرة. إذ المناهي محبوبة في قلوبهم، وعلى الخصوص لمن كان طالب العلم الرسمي ومشتغلا في فضل النفس ومناقب الدنيا، فإنه يحسب أن العلم المجرد له سيكون نجاته وخلاصه فيه، وأنه مستغن عن العمل، وهذا اعتقاد الفلاسفة. سبحان الله العظيم! لا يعلم هذا المغرور أنه حين حصل العلم، إذا لم يعمل به تكون الحجة عليه آكد، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لا ينفعه الله بعلمه". ورُوي أن الجنيد، قدس الله سره، رؤي في المنام بعد موته فقيل له: ما الخبر يا أبا القاسم؟ قال: طاحت تلك العبارات، وفنيت تلك الإشارات، وما نفعنا إلا ركيعات ركعناها في جوف الليل.

أيها الولد، لا تكن من الأعمال مفلسا، ولا من الأحوال خاليا، وتيقن أن العلم المجرد لا يأخذ باليد. مثاله لو كان على رجل في بريّة عشرة أسياف هندية مع أسلحة أخرى، وكان الرجل شجاعا وأهل حرب، فحمل عليه أسد عظيم مهيب، فما ظنك؟ هل تدفع الأسلحة شره عنه بلا استعمالها وضربها؟ ومن المعلوم أنها لا تدفع إلا بالتحريك والضرب. فكذا لو قرأ رجل مائة ألف مسألة علمية وتعلمها ولم يعمل بها، لا تفيده إلا بالعمل. ومثل أيضا لو كان لرجل حرارة ومرض صفراوي يكون علاجه بالكسنجين والكشكاب، فلا يحصل البرء إلا باستعمالهما.

ولو قرأت العمل مائة سنة، وجمعت ألف كتاب، لا تكون مستعدا لرحمة الله تعالى إلا بالعمل، {وإن ليس للإنسان إلا ما سعى}[النجم: ٣٨]، {فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا}[الكهف: ١١٠]، {جزاء بما كانوا يكسبون}[التوبة: ٨٢]، {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا* خالدين فيها لا يبغون عنها حولا}[الكهف: ١٠٧- ١٠٨]، {فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا* إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا}[مريم: ٥٩- ٦٠].

وما تقول في هذا الحديث: "بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا".

والإيمان قول باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان. ودليل الأعمال أكثر من أن يُحصى، وإن كان العبد يبلغ الجنة بفضل الله تعالى وكرمه، لكن بعد أن يستعد بطاعته وعبادته، لأن رحمة الله قريب من المحسنين. ولو قيل أيضا: يبلغ بمجرد الإيمان، قلنا: نعم، ولكن متى يبلغ؟ وكم من عقبة كؤود يقطعها إلى أن يصل؟ فأول تلك العقبات عقبة الإيمان، وأنه هل يسلم من سبل الإيمان أم لا؟ وإذا وصل هل يكون خائبا مفلسا؟ وقال الحسن البصري: يقول الله تعالى لعباده يوم القيامة: ادخلوا يا عبادي الجنة برحمتي واقتسموها بأعمالكم.

أيها الولد، ما لم تعمل لم تجد الأجر. حُكي أن رجلا من بني إسرائيل عبد الله سبعين سنة، فأراد الله تعالى أن يجلوه على الملائكة، فأرسل إليه ملكا يخبره أنه مع تلك العبادة لا يليق به دخول الجنة، فلما بلغه قال العابد: نحن خُلقنا للعبادة فينبغي لنا أن نعبده. فلما رجع الملك قال إليه: أنت أعلم بما قال. فقال الله تعالى: "إذا هو لم يعرض عن عبادتنا فنحن مع الكرم لا نعرض عنه. اشهدوا يا ملائكتي أني قد غفرت له".

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا". وقال علي رضي الله عنه: "من ظن أنه بدون الجهد يصل فهو متمن. ومن ظن أنه ببذل الجهد يصل فهو مستغن". وقال الحسن رحمه الله: "طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب"، وقال: "علامة الحقيقة ترك ملاحظة العمل لا ترك العمل". وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الكيس من دان نفسه وعمِل لما بعد الموت، والأحمق من اتبع هواه وتمنى على الله تعالى الأماني".

أيها الولد، كم من ليال أحييتها بتكرار العلم ومطالعة الكتب وحرمت نفسك من النوم؟ لا أعلم ما كان الباعث فيه؟ إن كان نيل عرض الدنيا وجذب حطامها وتحصيل مناصبها والمباهاة على الأقران والأمثال، فويل لك

ثم ويل لك. وإن كان قصدك فيه إحياء شريعة النبي صلى الله عليه وسلم وتهذيب أخلاقك وكسر النفس الأمارة بالسوء، فطوبى لك ثم طوبى لك. وقد صدق من قال شعرا:

سهر العيون لغير وجهك ضائع *** وبكاؤهن لغير فقدك باطل

أيها الولد، عش ما شئت فإنك ميت، واحبب ما شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به.

أيها الولد، أي شيء حاصل لك من تحصيل علم الكلام والخلاف والطب والدواوين والأشعار والنجوم والعروض والنحو والتصريف غير تضييع العمر بخلاف ذي الجلال، إني رأيت في إنجيل عيسى عليه السلام: "من ساعة أن يوضع الميت على الجنازة إلى أن يوضع على شفير القبر يسأل الله بعظمته منه أربعين سؤالا، أولها يقول: عبدي طهرت منظر الخلق سنين وما طهرت منظري ساعة. وكل يوم ينظر في قلبك يقول: ما تصنع لغيري وأنت محفوف بخيري، أما أنت فأصم لا تسمع".

أيها الولد، العلم بلا عمل جنون، والعمل بغير علم لا يكون. واعلم أن العلم الذي لا يبعدك اليوم عن المعاصي ولا يحملك على الطاعة لن يبعدك غدا عن نار جهنم، وإذا لم تعمل بعلمك اليوم ولم تدارك الأيام الماضية تقول غدا يوم القيامة:{فارجعنا نعمل صالحا}، فيقال: يا أحمق، أنت من هناك تجيئ!

أيها الولد، اجعل الهمة في الروح، والهزيمة في النفس، والموت في البدن، لأن منزلك القبر وأهل المقابر ينتظرونك في كل لحظة: متى تصل إليهم؟ إياك إياك أن تصل إليهم بلا زاد. قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: "هذه الأجساد قفص الطور أو اصطبل الدواب، فتفكر في نفسك، من أيهم أنت؟ إن كنت من الطيور العلوية فحين تسمع طنين طبل "ارجع إلى ربك" تطير صاعدا إلى أن تقعد في أعالي بروج الجنان، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اهتز عرش الرحمن من موت سعد بن معاذ". والعياذ بالله إن كنت من الدواب، كما قال الله تعالى: {أولئك كالأنعام بل هم أضل}[الأعراف: ١٧٩]، فلا تأمن انتقالك من زاوية الدار إلى هاوية النار". وروي أن الحسن البصري رحمه الله أُعطِي شربة ماء بارد، فأخذ القدح وغُشي عليه وسقط من يده، فلما أفاق قيل: ما لك يا أبا سعيد؟ قال: ذكرت أمنية أهل النار حين يقولون لأهل الجنة:{أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله}[الأعراف: ٥٠].

أيها الولد، لو كان العلم المجرد كافيا لك ولا تحتاج إلى عمل سواه لكان نداء: "هل من سائل؟ هل من مستغفر؟ هل من تائب؟" ضائعا بلا فائدة. وروي أن جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ذكروا عبد الله بن عمر رضي الله عنه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "نِعم الرجل هو لو كان يصلي بالليل". وقال عليه الصلاة والسلام لرجل من أصحابه: "يا فلان، لا تُكثر النوم بالليل فإن كثرة النوم بالليل يدع صاحبه فقيرا يوم القيامة".

أيها الولد:{ومن الليل فتهجد به نافلة لك}[الإسراء: ٧٩] **أمر**،{وبالأسحار هم يستغفرون}[الذاريات:١٨] **شكر**، {والمستغفرين بالأسحار}[آل عمران: ١٧] **ذِكر**. قال عليه الصلاة والسلام:

"ثلاثة أصوات يحبها الله تعالى، صوت الديك، وصوت الذي يقرأ القرآن، وصوت المستغفرين بالأسحار". وقال سفيان الثوري رحمه الله تعالى: "إن الله تبارك وتعالى خلق ريحا تهب بالأسحار تحمل الأذكار والاستغفار إلى الملك الجبار". وقال أيضا: "إذا كان أول الليل ينادي مناد من تحت العرش: **ألا ليقم العابدون**، فيقومون ويصلون ما شاء الله. ثم ينادي مناد في شطر الليل: **ألا ليقم القانتون**، فيقومون ويصلون إلى السحر. فإذا كان السحر نادى مناد: **ألا ليقم المستغفرون**، فيقومون ويستغفرون. فإذا طلع الفجر نادى مناد: **ألا ليقم الغافلون**، فيقومون من فرشهم كالموتى نُشروا من قبورهم".

أيها الولد، روي في وصايا لقمان الحكيم لابنه أنه قال: يا بني، لا يكونن الديك أكيس منك! ينادي بالأسحار وأنت نائم. ولقد أحسن من قال شعرا:

لقد هتفت في جنح الليل حمامة *** على فنن وهنا، وإني لنائم
كذبت، وبيت الله، لو كنت عاشقا *** لما سبقتني بالبكاء الحمائم
وأزعم أني هائم ذو صبابة *** لربي فلا أبكي وتبكي البهائم

أيها الولد، خلاصة العلم أن تعلم الطاعة والعبادة ما هي: إعلم أن الطاعة والعبادة متابعة الشارع في الأوامر والنواهي بالقول والفعل، يعني كل ما تقول وتفعل وتترك يكون باقتداء الشرع، كما لو صمت يوم العيد وأيام التشريق تكون عاصيا، أو صليت في ثوب مغصوب، وإن كانت صورة عبادة، تأثم.

أيها الولد، ينبغي لك أن يكون قولك وفعلك موافقا للشرع. إذ العلم بلا اقتداء الشرع ضلالة. وينبغي لك ألا تغتر بالشطح وطامَّات الصوفية، لأن سلوك هذا الطريق يكون بالمجاهدة وقطع شهوة النفس وقتل هواها بسيف الرياضة لا بالطامات والتُّهات. واعلم أن اللسان المطلق، والقلب المملوء بالغفلة والشهوة، علامة الشقاء. فإذا لم تقتل النفس بصدق المجاهدة فلن يحيا قلبك بأنوار المعرفة.

واعلم أن بعض مسائلك التي سألتني عنها لا يستقيم جوابها بالكتابة أو القول، إن تبلغ تلك الحالة تعرف ما هي، وإلا فعلمها من المستحيلات لأنها ذوقية، وكل ما يكون ذوقيا لا يستقيم وصفه بالقول، كحلاوة الحلو ومرارة المر، لا تعرف إلا بالذوق. كما حُكي أن عنينا كتب إلى صاحب له أن عرفني لذة المجامعة كيف تكون. فكتب له في جوابه: يا فلان إني كنت حسبتك عنينا فقط، والآن عرفت أنك عنين وأحمق، لأن هذه اللذة ذوقية إن تصل إليها تعرفها، وإلا لا يستقيم لك وصفها بالقول والكتابة.

أيها الولد، بعض مسائلك من هذا القبيل، وأما البعض الذي يستقيم له الجواب فقد ذكرناه في "إحياء العلوم" وغيره، ونذكر هنا نبذا منه، ونشير إليه فنقول:

قد وجب على السالك أربعة أمور:

الأمر الأول: اعتقاد صحيح لا يكون فيه بدعة.

والثاني: توبة نصوح لا يرجع بعدها إلى الزلة.

والثالث: استرضاء الخصوم حتى لا يبقى لأحد عليك حق.

والرابع: تحصيل علم الشريعة قدر ما تؤدَى به أوامر الله تعالى، ثم من العلوم الأخرى ما تكون به النجاة.

حُكي أن الشبلي رحمه الله خدم أربعمائة أستاذ وقال: قرأت أربعة آلاف حديث، ثم اخترت منها حديثا واحدا وعملت به خليت ما سواه، لأني تأملته فوجدت خلاصي ونجاتي فيه، وكان علم الأولين والآخرين مندرجا فيه فاكتفيت به، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبعض أصحابه: "**إعمل لدنياك بقدر مقامك فيها، واعمل لآخرتك بقدر بقائك فيها، واعمل لله بقدر حاجتك إليه، واعمل للنار بقدر صبرك عليها**".

أيها الولد، إذا علمت هذا الحديث، لا حاجة إلى العلم الكثير. وتأمل حكاية أخرى، وذلك أن حاتما الأصم كان من أصحاب الشقيق البلخي رحمة الله تعالى عليهما، فسأله يوما، قال: صاحبتني منذ ثلاثين سنة، ما حصلته فيها؟ قال: حصلت ثماني فوائد من العلم وهي تكفيني منه، لأني أرجو خلاصه ونجاتي فيها. فقال شقيق: ما هي؟ قال حاتم الأصم: الفائدة الأولى أني نظرت إلى الخلق فرأيت لكل منهم محبوبا ومعشوقا يحبه ويعشقه، وبعض ذلك المحبوب يصاحبه إلى مرض الموت، وبعضه إلى شفير القبر، ثم يرجع كله ويتركه فريدا وحيدا ولا يدخل معه في قبره منهم أحد، فتفكرت وقلت: أفضل محبوب المرء ما يدخل في قبره ويؤانسه فيه، فما وجدته غير الأعمال الصالحة فأخذتها محبوبا لي لتكون سراجا لي في قبري وتؤانسي فيه ولا تتركني فريدا.

الفائدة الثانية: أني رأيت الخلق يقتدون بأهوائهم ويبادرون إلى مرادات أنفسهم، فتأملت قوله تعالى:{وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى* فإن الجنة هي المأوى}[النازعات:٤٠- ٤١] وتيقنت أن القرآن حق صادق، فبادرت إلى خلاف نفسي وتشمرت لمجاهدتها ومنعها عن هواها حتى ارتاضت لطاعة الله سبحانه وتعالى وانقادت.

الفائدة الثالثة: أني رأيت كل واحد من الناس يسعى في جمع حطام الدنيا ثم يمسكه قابضا يده عليه، فتأملت في قوله تعالى:{ما عندكم ينفد وما عند الله باق}[النحل: ٩٦]، فبذلت محصولي من الدنيا لوجه الله تعالى ففرقته بين المساكين ليكون ذخرا لي عند الله تعالى.

الفائدة الرابعة: أني رأيت بعض الخلق ظن شرفه وعِزه في كثرة الأقوام والعشائر فاغتر بهم، وزعم آخرون أنه في ثروة الأموال وكثرة الأولاد فافتخروا بها، وحسب بعضهم الشرف والعز في غصب أموال الناس وظلمهم وسفك دمائهم، واعتقدت طائفة أنه في إتلاف المال وإسرافه وتبذيره، وتأملت في قوله تعالى:{إن أكرمكم عند الله أتقاكم}[الحجرات: ١٣]، فاخترت التقوى واعتقدت أن القرآن حق صادق وظنهم وحسبانهم كلها باطل زائل.

الفائدة الخامسة: أني رأيت الناس يذم بعضهم بعضا ويغتاب بعضهم بعضا، فوجدت ذلك من الحسد في المال والجاه والعلم، فتأملت في قوله تعالى:{نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا}[الزخرف: ٣٢] فعلمت أن القسمة كانت من الله تعالى في الأزل، فما حسدت أحدا ورضيت بقسمة الله تعالى.

الفائدة السادسة: أني رأيت الناس يعادي بعضهم بعضا لغرض وسبب، فتأملت قوله تعالى:{إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا}[فاطر: ٦]، فعلمت أنه لا تجوز عداوة أحد غير الشيطان.

الفائدة السابعة: أني رأيت كل أحد يسعى بجد واجتهاد بمبالغة لطلب القوت والمعاش بحيث يقع به في شبهة وحرام، ويُذِل نفسه ويُنقِص قدره، فتأملت في قوله تعالى:{وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها}[هود:٦]، فعلمت أن رزقي على الله تعالى وقد ضمنته، فاشتغلت بعبادته وقطعت طمعي عمن سواه.

الفائدة الثامنة: أني رأيت كل واحد معتمدا على شيء مخلوق، بعضهم إلى الدينار والدرهم، وبعضهم إلى المال والملك، وبعضهم إلى الحرفة والصناعة، وبعضهم إلى مخلوق مثله، فتأملت في قوله تعالى:{ومن يتوكل على الله فهو حسبه، إن الله بالغ أمره، قد جعل الله لكل شيء قدرا}[الطلاق:٣]، فتوكلت على الله فهو حسبي ونعم الوكيل.

فقال له شقيق: وفقك الله تعالى، إني قد نظرت في التوراة والإنجيل والزبور والفرقان فوجدت الكتب الأربعة تدور على هذه الفوائد الثمانية، فمن عمل بها كان عاملا بهذه الكتب الأربعة.

أيها الولد، قد علمت من هاتين الحكايتين أنك لا تحتاج إلى تكثير العلم. والآن أبين لك ما يجب على سالك سبيل الحق.

إعلم أنه ينبغي للسالك شيخ مرشد مرب ليخرج الأخلاق السيئة منه بتربيته ويجعل مكانها خلقا حسنا. ومعنى التربية يشبه فعل الفلاح الذي يقلع الشوك ويخرج النباتات الأجنبية من بين الزرع ليحسِّن نباته ويُكْمِله ربيعه. ولا بد للسالك من شيخ يؤدبه ويرشده إلى سبيل الله تعالى، لأن الله أرسل للعباد رسولا للإرشاد إلى سبيله، فإذا ارتحل صلى الله عليه وسلم فقد خلف الخلفاء في مكانه حتى يرشدوا إلى الله تعالى. وشرط الشيخ الذي يصلح أن يكون نائبا لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه أن يكون عالما، ولكن لا كل عالم يصلح للخلافة. وإني أبين لك بعض علاماته على سبيل الإجمال حتى لا يدعي كل أحد أنه مرشد. فنقول: من يعرض عن حب الدنيا وحب الجاه وكان قد تابع لشخص بصير تتسلسل متابعته إلى سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، وكان محسنا رياضة نفسه بقلة الأكل والقول والنوم وكثرة الصلوات والصدقة والصوم، وكان بمتابعته ذلك الشيخ البصير جاعلا محاسن الأخلاق له سيرة كالصبر والصلاة والشكر والتوكل واليقين والقناعة وطمأنينة النفس والحلم والتواضع والعلم والصدق والحياء والوفاء والوقار والسكون والتأني، وأمثالها، فهو إذن نور من أنوار النبي صلى الله عليه وسلم يصلح للاقتداء به. ولكن وجود مثله نادر أعز من الكبريت الأحمر، ومن ساعدته السعادة فوجد شيخا كما ذكرنا، وقبله الشيخ، ينبغي أن يحترمه ظاهرا وباطنا. أما احترام الظاهر فهو ألا يجادله ولا يشتغل بالاحتجاج معه في كل مسألة وإن علم خطأه، ولا يلقي بين يديه سجادته إلا وقت أداء الصلاة فإذا فرغ يرفعها، ولا يُكثر نوافل الصلاة بحضرته، ويعمل ما يأمره الشيخ من العمل بقدر وسعه وطاقته. وأما احترام الباطن، فهو أن كل ما يُسمع ويُقبل منه في الظاهر لا ينكره في الباطن، لا فعلا ولا قولا، لئلا يتسم بالنفاق، وإن لم يستطع يترك صحبته إلى أن يوافق باطنه ظاهره، ويحترز عن

مجالسة صاحب السوء ليقصر ولاية شياطين الجن والإنس عن صحن قلبه، فيصفَّى من لوث الشيطنة، وعلى كل حال يختار الفقر على الغنى.

ثم اعلم أن التصوف له خصلتان: الاستقامة مع الله تعالى والسكون عن الخلق. فمن استقام مع الله عز وجل وأحسن خلقه بالناس وعاملهم بالحلم فهو صوفي. والاستقامة أن يفدي حظ نفسه على أمر الله تعالى. وحسن الخلق مع الناس ألا تحمل الناس على مراد نفسك، بل تحمل نفسك على مرادهم ما لم يخالفوا الشرع.

ثم إنك سألتني عن معنى العبودية، وهي ثلاثة أشياء: أحدها محافظة أمر الشرع، وثانيها الرضا بالقضاء والقدر وقسمة الله تعالى، وثالثهما ترك رضاء نفسك في طلب رضاء الله تعالى.

وسألتني عن التوكل، وهو أن تستحكم اعتقادك بالله تعالى فيما وعد، يعني تعتقد أن ما قُدَّر لك سيصل إليك لا محالة، وإن اجتهد كل من في العالم على صرفه عنك، وما لم يكتب لن يصل إليك وإن ساعدك جميع العالم.

وسألتني عن الإخلاص، وهو أن تكون أعمالك كلها لله تعالى، ولا يرتاح قلبك بمحامد الناس ولا تبالي بمذمتهم. واعلم أن الرياء يتولد من تعظيم الخَلْق، وعلاجه أن تراهم مسخرين تحت القدرة وتحسبهم كالجمادات في عدم قدرة إيصال الراحة والمشقة لتخلص من مراءاتهم، ومتى تحسبهم ذوي قدرة وإرادة لن يبعد عنك الرياء.

أيها الولد، والباقي من مسائلك بعضها مسطور في مصنفاتي. إعمل أنت بما تعلم لينكشف لك ما لم تعلم.

أيها الولد، بعد اليوم لا تسألني ما أشكل عليك إلا بلسان الجنان لقوله تعالى:{ول أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم}[الحجرات: ٥]. واقبل نصيحة الخضر عليه السلام حين قال:{فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا}[الكهف: ٧٠]، ولا تستعجل حتى تبلغ أوانه، يكشف لك وتراه:{سأوريكم آياتي فلا تستعجلون}[الأنبياء: ٣٧]. فلا تسألني قبل الوقت، وتيقن أنك لا تصل إلا بالسير، لقوله تعالى:{أو لم يسيروا في الأرض فينظرون}[فاطر: ٤٤].

أيها الولد، بالله إن تسر تر العجائب في كل منزل، وابذل روحك فإن رأس هذا الأمر بذل الروح، كما قال ذو النون المصري رحمه الله لأحد تلامذته: "إن قدرت على بذل الروح فتعال، وإلا فلا تشتغل بترُّهات الصوفية".

أيها الولد، إني أنصحك بثمانية أشياء، اقبلها مني لئلا يكون علمك خصما عليك يوم القيامة، تعمل منها أربعة، وتدع منها أربعة.

أما اللواتي تدع:

فأحدها: ألا تناظر أحدا في مسألة ما استطعت، لأن فيها آفات كثيرة، فإثمها أكبر من نفعها. إذ هي منبع كل خلق ذميم كالرياء والحسد والكبر والحقد والعداوة والمباهاة، وغيرها. نعم لو وقع مسألة بينك وبين شخص أو قوم، وكانت إرادتك فيها أن يظهر الحق ولا يضيع، جاز البحث، ولكن لتلك الإرادة علامتان: إحداهما ألا تفرق

بين أن ينكشف الحق على لسانك أو على لسان غيرك، والثانية أن يكون البحث في الخلاء أحب إليك من أن يكون في الملأ. واسمع أني أذكر لك ههنا فائدة واعلم أن السؤال عن المشكلات عرض مرض القلب إلى الطبيب، والجواب له سعي لإصلاح مرضه. واعلم أن الجاهلين المرضى قلوبهم، والعلماء الأطباء، والعالم الناقص لا يحسن المعالجة، والعالم الكامل لا يعالج كل مريض، بل يعالج من يرجو قبول المعالجة والصلاح. وإذا كانت العلة مزمنة أو عقيما لا تقبل العلاج، فحذاقة الطبيب فيه أن يقول هذا لا يقبل العلاج فلا تشتغل فيه بمداواته لأن فيه تضييع العمر. ثم اعلم أن مرض الجهل على أربعة أنواع:

أحدها يقبل العلاج والباقي لا يقبل. أما الذي لا يقبل العلاج فأحدها من كان سؤاله واعتراضه عن حسده وبغضه، فكلما تجيبه بأحسن الجواب وأفصحه وأوضحه، فلا يزيد له ذلك إلا بغضا وعداوة وحسدا. فالطريق ألا تشتغل بجوابه فقد قيل:

كل العداوة قد تُرجى إزالتها *** إلا عداوة من عاداك عن حسد

فينبغي أن تعرض عنه وتتركه مع مرضه، قال الله تعالى:{فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا}[النجم: ٢٩]. والحسود بكل ما يقول ويفعل يوقد النار في زرع عمله، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب".

والثاني أن تكون علته من الحماقة وهو أيضا لا يقبل العلاج، كما قال عيسى عليه السلام: "إني ما عجزت عن إحياء الموتى وقد عجزت عن معالجة الأحمق". وذلك رجل يشتغل بطلب العلم زمنا قليلا ويتعلم شيئا من العلم العقلي والشرعي فيسأل ويعترض من حماقته على العالم الكبير الذي مضى عمره في العلوم العقلية والشرعية. وهذا الأحمق لا يعلم ويظن أن ما أشكل عليه هو أيضا مُشكل على العالم الكبير. فإذا لم يعلم هذا القدر يكون سؤاله من الحماقة فينبغي ألا تشتغل بجوابه.

والثالث أن يكون مسترشدا، وكل ما لا يفهم من كلام الأكابر يُحمل على قصور فهمه، وكان سؤاله للاستفادة، لكن يكون بليدا لا يدرك الحقائق، فلا ينبغي الاشتغال بجوابه أيضا، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : "نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم".

وأما المرض الذي يقبل العلاج فهو أن يكون مسترشدا عاقلا فهِما، لا يكون مغلوب الحسد والغضب وحب الشهوة والجاه والمال، ويكون طالب الطريق المستقيم، ولم يكن سؤاله واعتراضه عن حسد وتعنت وامتحان، وهذا يقبل العلاج فيجوز أن تشتغل بجواب سؤاله، بل يجب عليك إجابته.

والثاني مما تدع هو أن تحذر من أن تكون واعظا ومُذكِرا لأن فيه آفة كثيرة، إلا أن تعمل بما تقول أولا ثم تعظ به الناس. فتفكر فيما قيل لعيسى عليه السلام: "يا ابن مريم عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس، وإلا فاستح من ربك". وإن ابتليت بهذا العمل فاحترز عن خصلتين، الأولى: عن التكلف في الكلام بالعبارات والإشارات والطامات والأبيات والأشعار، لأن الله تعال يبغض المتكلفين، والمتكلف المتجاوز عن الحد يدل على خراب الباطن

وغفلة القلب. ومعنى التذكير أن يَذْكُر العبد نار الآخرة وتقصير نفسه في خدمة الخالق، ويتفكر في عمره الماضي الذي أفناه فيما لا يعنيه، ويتفكر فيما بين يديه من العقبات من عدم سلامة الإيمان في الخاتمة، وكيفية حاله في قبض ملك الموت، وهل يقدر على جواب منكر ونكير، ويهتم بحاله في القيامة ومواقفها، وهل يعبر عن الصراط سالما أم يقع في الهاوية؟ ويستمر ذكر هذه الأشياء في قلبه فيزعجه عن قراره. فغليان هذه النيران ونوحة هذه المصائب يسمى تذكيرا. وإعلام الخلق وإطلاعهم على هذه الأشياء، وتنبيههم إلى تقصيرهم وتفريطهم، وتبصيرهم بعيوب أنفسهم لتمس حرارة هذه النيران أهل المجلس وتُجزعهم تلك المصائب ليتداركوا العمر الماضي بقدر الطاقة، ويتحسروا على الأيام الخالية في غير طاعة الله تعالى، وهذه الجملة على هذا الطريق يسمى وعظا، كما لو رأيت أن السيل قد هجم على دار أحد وكان هو وأهله فيها، فتقول: الحذر الحذر، فروا من السيل. وهل يشتهي قلبك في هذه الحالة أن تخبر صاحب الدار خبرك بتكلف العبارات والنكت[3] والإشارات فلا تشتهي البتة، فكذلك حال الواعظ، فينبغي أن يجتنبها.

والخصلة الثانية ألا تكون همتك في وعظك أن ينعر الخلق في مجلسك أو يظهروا الوجد ويشقوا الثياب، ليقال: نِعم المجلس هذا! لأن كله ميل للدنيا، وهو يتولد من الغفلة. بل ينبغي أن يكون عزمك وهمتك أن تدعو الناس من الدنيا إلى الآخرة، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الحرص إلى الزهد، ومن البخل إلى السخاء، ومن الشك إلى اليقين، ومن الغفلة إلى اليقظة، ومن الغرور إلى التقوى، وتُحبب إليهم الآخرة وتُبغض إليهم الدنيا، وتُعلمهم علم العبادة والزهد، ولا تغرهم بكرم الله تعالى عز وجل ورحمته، لأن الغالب في طباعهم الزيغ عن منهج الشرع، والسعي فيما لا يرضي الله تعالى به، والاستعثار بالأخلاق الرديئة. فألق في قلوبهم الرعب وروِّعهم وحذرهم عما يستقبلون من المخاوف، ولعل صفات باطنهم تتغير ومعاملة ظاهرهم تتبدل، ويتظهروا الحرص والرغبة في الطاعة والرجوع عن المعصية، وهذا طريق الوعظ والنصيحة. وكل وعظ لا يكون هكذا فهو وبال على من قال وسمع، بل قيل إنه غول وشيطان يذهب بالخلق عن الطريق ويهلكهم، فيجب عليهم أن يفروا منه لأن ما يُفسِد هذا القائل من دينهم لا يستطيع بمثله الشيطان. ومن كانت له يد وقدرة يجب عليه أن يُنزِله عن منازل المواعظ، ويمنعه عما باشر فإنه من جملة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والثالث مما تدع ألا تخالط الأمراء والسلاطين ولا تراهم، لأن رؤيتهم ومجالستهم ومخالطتهم آفة عظيمة، ولو ابتليت بها، دع عنك مدحهم وثناءهم، لأن الله تعالى يغضب إذا مُدح الفاسق والظالم، ومن دعا لطول بقائهم فقد أحب أن يعصي الله في أرضه.

والرابع مما تدع ألا تقبل شيئا من عطاء الأمراء وهداياهم، وإن علمت أنها من الحلال. لأن الطمع منهم يفسد الدين، لأنه يتولد منه المداهنة ومراعاة جانبهم والموافقة على ظلمهم، وهذا كله من فساد في الدين، وأقل مضرته أنك إذا قبلت عطاياهم وانتفعت من دنياهم أحببتهم، ومن أحب أحدا يحب طول عمره وبقائه بالضرورة،

[3] مسألة علمية دقيقة أخرجت بدقة النظر (المعجم العربي الأساسي)

وفي محبة بقاء الظالم إرادة في الظلم على عباد الله تعالى، وإرادة خراب العالم. فأي شيء يكون أضر من هذا للدين والعاقبة؟ وإياك إياك أن يخدعك استهواء الشياطين، أو قول بعض الناس لك بأن الأفضل والأولى أن تأخذ الدينار والدرهم منهم وتفرقها بين الفقراء والمساكين فإنهم ينفقونها في الفسق والمعصية، وإنفاقك على ضعفاء الناس خير من إنفاقهم، فإن اللعين قد قطع أعناق كثير من الناس بهذه الوسوسة.

وأما الأربعة التي ينبغي لك أن تفعلها:

فالأول أن تجعل معاملتك مع الله تعالى بحيث لو عامل معك بها عبدك ترضى بها منه، ولا يضيق خاطرك عليه ولا تغضب، والذي لا ترضى لنفسك من عبدك المجازي فلا ترضى أيضا لله تعالى وهو سيدك الحقيقي.

والثاني كلما عملت بالناس اجعله كما ترضى لنفسك منهم، لأنه لا يكمل إيمان عبد حتى يحب لسائر الناس ما يحبه لنفسه.

والثالث إذا قرأت العلم أو طالعته ينبغي أن يكون علمك يصلح قلبك ويزكي نفسك، كما لو علمت أن عمرك ما يبقي غير أسبوع، فبالضرورة لا تشتغل فيها بعلم الفقه والأخلاق والأصول والكلام وأمثالها، لأنك تعلم أن هذه العلوم لا تغنيك، بل تشتغل بمراقبة القلب ومعرفة صفات النفس، والإعراض عن علائق الدنيا، وتزكي نفسك عن الأخلاق الذميمة، وتشتغل بمحبة الله تعالى وعبادته، والاتصاف بالأوصاف الحسنة، ولا يمر على عبد يوم وليلة إلا ويمكن أن يكون موته فيه.

أيها الولد، اسمع مني كلاما آخر وتفكر فيه حتى تجد خلاصا: لو أنك أُخبِرت أن السلطان بعد أسبوع يجيئك زائرا، فأنا أعلم أنك في تلك المدة لا تشتغل إلا بإصلاح ما علمت أن السلطان سيقع عليه من الثياب والبدن والدار والفراش وغيرها، والآن تفكر إلى ما أشرت به فإنك فَهِم، والكلام الفرد يكفي الكَيِّس، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أعمالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم ونياتكم". وإن أردت علم أحوال القلوب فانظر إلى "الإحياء" وغيره من مصنفاتي. وهذا العلم فرض عين، وغيره فرض كفاية، إلا مقدار ما يؤدي به فرائض الله تعالى، وهو يوفقك حتى تحصله.

والرابع، ألا تجمع من الدنيا أكثر من كفاية سنة، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعد ذلك لبعض حجراته، وقال: "اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا"، ولم يكن يعد ذلك لكل حجراته بل كان يعده لمن علم أن في قلبها ضعفا، وأما من كانت صاحبة يقين فما كان يعد لها أكثر من قوت يوم أو نصف.

أيها الولد، إني كتبت في هذا الفصل ملتمساتك فينبغي لك أن تعمل بها ولا تنساني فيه من أن تذكرني في صالح دعائك. وأما الدعاء الذي سألت مني فاطلبه من دعوات الصحاح، واقرأ هذا الدعاء في جميع أوقاتك خصوصا في أعقاب صلواتك: "اللهم إني أسألك من النعمة تمامها، ومن العصمة دوامها، ومن الرحمة شمولها، ومن العافية حصولها، ومن العيش رغده، ومن العمر أسعده، ومن الإحسان أتمه، ومن الإنعام أعمه، ومن الفضل أعذبه، ومن اللطف أنفعه. اللهم كن لنا ولا تكن علينا. اللهم اختم بالسعادة آجالنا، وحقق بالزيادة آمالنا، إقرن بالعافية

غدونا وآصالنا، واجعل إلى رحمتك مصيرنا ومآلنا، واصبب سجال عفوك على ذنوبنا، وعليك توكلنا واعتمادنا. اللهم ثبتنا على نهج الاستقامة، وأعذنا في الدنيا من موجبات الندامة يوم القيامة، وخفف عنا ثقل الأوزار، وارزقنا عيشة الأبرار، واكفنا ما أهمنا في هذه الدار وفي تلك الدار، واصرف عنا شر الأشرار وكيد الفجار واعتق رقابنا ورقاب آبائنا وأمهاتنا واخواننا وأخواتنا من النار برحمتك يا عزيز يا غفار، يا كريم يا ستار، يا خالق الليل والنهار، خلصنا من هم الدنيا وعذاب القبر والنار يا عليم يا جبار، يا ألله، يا ألله، يا ألله، برحمتك يا أرحم الراحمين ويا أول الأولين ويا آخر الآخرين، ويا ذا القوة المتين، ويا راحم المساكين، ويا أرحم الراحمين، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. وصلي اللهم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين".

الغزالي

مشكاة الأنوار[4]

أما بعد فقد سألتني أيها الأخ الكريم قيضك الله لطلب السعادة الكبرى، ورشحك للعروج إلى الذروة العليا، وكحل بنور الحقيقة بصيرتك، ونقى عما سوى الحق سريرتك، أن أبث إليك أسرار الأنوار الإلهية مقرونة بتأويل ما يشير إليه ظاهر الآيات المتلوة والأخبار المروية، مثل قوله تعالى: {اللهُ نورُ السَمَواتِ وَالأَرضِ}، ومعنى تمثيله ذلك بالمشكاة والزجاجة والمصباح والزيت والشجرة، مع قوله عليه السلام: "إن لله سبعين حجابا من نور وظلمة وإنه لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من أدركه بصره". ولقد ارتقيت بسؤالك مرتقىً صعباً تنخفض دون أعاليه أعين الناظرين، وقرعت باباً مغلقا لا يُفتح إلا للعلماء الراسخين. ثم ليس كل سر يُكشف ويُفشى، ولا كل حقيقة تُعرض وتُجلَّى، بل صدور الأحرار قبور الأسرار. ولقد قال بعض العارفين: (إفشاء سر الربوبية كفر)، بل قال سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم: "إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه الا العلماء بالله. فإذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل الغرة بالله، ومهما كثر أهل الاغترار وجب حفظ الأسرار على وجه الإسرار". لكني أراك مشروح الصدر بالله بالنور، منزه السر عن ظلمات الغرور، فلا أشح عليك في هذا الفن بالإشارة إلى لوامع ولوائح والرمز إلى حقائق ودقائق. فليس الخوف في كف العلم عن أهله بأقل منه في بثه إلى غير أهله. فاقنع بإشارات مختصرة وتلويحات موجزة، فإن تحقيق القول فيه يستدعي تمهيد أصول وشرح فصول ليس يتسع الآن لها وقتي، وإنما الذي ينفتح في الوقت فصول ثلاثة.

الفصل الأول

في بيان أن النور الحق هو الله تعالى

وأن إسم النور لغيره مَجَاز محض لا حقيقة له

وبيانه بأن يُعرف معنى النور بالوضع الأول عند العوام، ثم بالوضع الثاني عند الخواص، ثم بالوضع الثالث عند خواص الخواص. ثم تُعرف درجات الأنوار المذكورة المنسوبة إلى خواص الخواص وحقائقها لينكشف لك عند ظهور درجاتها أن الله تعالى هو النور الأعلى الأقصى، وعند انكشاف حقائقها أنه النور الحق الحقيقي وحده لا شريك له فيه.

أما الوضع الأول عند العامي فالنور يشير إلى ظهوره، والظهور أمر إضافي، إذ يُظهر الشيء لا محالة الإنسان ويُبطن عن غيره، فيكون ظاهرا بالإضافة وباطنا بالإضافة. وإضافة ظهوره إلى الإدراكات لا محالة. وأقوى الإدراكات وأجلاها عند العوام الحواس، ومنها حاسة البصر.

والأشياء بالإضافة إلى الحس البصري ثلاثة أقسام: منها ما لا يُبصَر بنفسه كالأجسام المظلمة، ومنها ما يُبصَر بنفسه ولا يُبصَر به غيره كالأجسام المضيئة كالكواكب وجمرة النار إذا لم تكن مشتعلة، ومنها ما يبصر بنفسه ويبصر به أيضا غيره كالشمس والقمر والسراج والنيران المشتعلة.

[4] هذه رسالة مغرقة في الشاعرية الصوفية، فاقرأها بعقلك وقلبك معا إذا أردت استيعابها وفهمها والاستفادة منها. (المصنف)

والنور اسم لهذا القسم الثالث. ثم تارة يُطلق على ما يفيض من الأجسام على ظاهر الأجسام الكثيفة، فيقال استنارت الأرض ووقع نور الشمس على الأرض ونور السراج على الحائط والثوب. وتارة يطلق على نفس هذه الأجسام المشرقة لأنها أيضا في نفسها مستنيرة. وعلى الجملة فالنور عبارة عما يُبصَر بنفسه ويبصر به غيره كالشمس. هذا حده[5] وحقيقته بالوضع الأول.

دقيقة

لما كان سر النور وروحه هو الظهور للإدراك، وكان الإدراك موقوفا على وجود النور وعلى وجود العين الباصرة أيضا، إذ النور هو الظاهر المُظهِر، وليس شيء من الأنوار ظاهراً في حق العميان ولا مظهرا، فقد تساوى الروح الباصرة والنور الظاهر في كونه ركنا لا بد منه للإدراك، ثم ترجح عليه في أن الروح الباصرة هي المُدرِكة وبها الإدراك. وأما النور فليس بمدرك ولا به الإدراك، بل عنده الإدراك. فكان اسم النور بالنور الباصر أحق منه بالنور المبصَر.

وأطلقوا إسم النور على نور العين المبصِرة، فقالوا في الخفاش إن نور عينه ضعيف، وفي الأعمش أنه ضعيف نور بصره، وفي الأعمى أنه فقد نور البصر، وفي السواد أنه يجمع نور البصر ويقويه، وأن الأجفان إنما خصتها الحكمة بلون السواد وجعل العين محفوفة بها لتجمع ضوء العين. وأما البياض فيُفرِق ضوء العين ويُضعف نوره، حتى إن إدامة النظر إلى البياض المشرق، بل إلى نور الشمس، يبهر نور العين ويمحقه كما ينمحق الضعيف في جنب القوى. فقد عرفت بهذا أن الروح الباصر سُمي نورا، وأنه لِم سمّي نورا، وأنه لِم كان بهذا الإسم أولى. وهذا هو الوضع الثاني وهو وضع الخواص.

دقيقة

إعلم أن نور بصر العين موسوم بأنواع النقصان، فإنه يبصر غيره ولا يبصر نفسه، ولا يبصر ما بَعُد منه، ولا يبصر ما هو وراء حجاب. ويبصر من الأشياء ظاهرها دون باطنها، ويبصر من الموجودات بعضها دون كلها. ويبصر أشياء متناهية ولا يبصر ما لا نهاية له. ويغلط كثيرا في إبصاره، فيرى الكبير صغيرا، والبعيد قريبا، والساكن متحركا، والمتحرك ساكنا. فهذه سبع نقائص لا تفارق العين الظاهرة. فإن كان في الأعين عين منزهة عن هذه النقائص كلها فليت شعري هل هو أولى باسم النور أم لا.

واعلم أن في قلب الإنسان عينا هذه صفة كمالها وهي التي يُعبر عنها تارة بالعقل، وتارة بالروح، وتارة بالنفس الإنساني. ودع عنك العبارات فإنها إذا كثرت أوهمت عند ضعيف البصيرة كثرة المعاني. فنعني به المعنى الذي يتميز به العاقل عن الطفل الرضيع وعن البهيمة وعن المجنون. ولنسمه (عقلا) متابعة للجمهور في الاصطلاح فنقول: العقل أولى بأن يسمى نورا من العين الظاهرة لرفعة قدره عن النقائص السبع وهو أن العين لا تبصر نفسها، والعقل يدرك غيره ويدرك صفات نفسه، إذ يدرك نفسه عالما وقادرا، ويدرك علم نفسه، ويدرك علمه بعلم نفسه، وعلمه بعلمه بعلم نفسه، إلى غير نهاية. وهذه خاصية لا تُتصور لما يدرك بآلة الأجسام. والثاني أن العين لا تبصر ما بعد منها ولا ما قرب منها قربا مفرطا، والعقل يستوي عنده القريب والبعيد، يعرج في تطريفه إلى أعلى السموات رقيا، وينزل في لحظة إلى تخوم الأرضين هربا. بل إذا حقت الحقائق يُكشف أنه منزه

[5] يقال حدد معنى اللفظ أو العبارة: وضحه وبينه. والحد في المنطق: القول الدال على ماهية الشيء (المعجم الوجيز)

عن أن تحوم بجنبات قدسه معاني القرب والبعد الذي يُفرض بين الأجسام، فإنه أنموذج من نور الله تعالى، ولا يخلو الأنموذج عن محاكاة، وإن كان لا يرقي إلى ذروة المساواة. وهذا ربما هزك للتفطن لسر قوله عليه السلام: "إن الله خلق آدم على صورته" فلست أرى الخوض فيه الآن. الثالث أن العين لا تدرك ما وراء الحجب، والعقل يتصرف في العرش والكرسي وما وراء حجب السموات، وفي الملأ الأعلى والملكوت الأسمى كتصرفه في عالمه الخاص ومملكته القريبة أعني بدنه الخاص. بل الحقائق كلها لا تحتجب عن العقل. وأما حجاب العقل حيث يُحجب فمن نفسه لنفسه بسبب صفات هي مقارنة له تضاهي حجاب العين من نفسه عند تغميض الأجفان. وستعرف هذا في الفصل الثالث من الكتاب. الرابع أن العين تدرك من الأشياء ظاهرها وسطحها الأعلى دون باطنها، بل قوالبها وصورها دون حقائقها. والعقل يتغلغل إلى بواطن الأشياء وأسرارها ويدرك حقائقها وأرواحها، ويستنبط سببها وعلتها وغايتها وحكمتها، وأنها من خلق، وكيف خلق، ولم خلق، ومن كم معنى جُمع وزُكب، وعلى أي مرتبة في الوجود نزل، وما نسبته إلى خالقها وما نسبتها إلى سائر مخلوقاته، إلى مباحث أُخر يطول شرحها نرى الإيجاز فيها أولى. الخامس أن العين تبصر بعض الموجودات إذ تقصر عن جميع المعقولات وعن كثير من المحسوسات، إذ لا تدرك الأصوات والروائح والطعوم والحرارة والبرودة والقوى المدركة، أعني قوة السمع والبصر والشم والذوق، بل الصفات الباطنة النفسانية كالفرح والسرور والغم والحزن والألم واللذة والعشق والشهوة والقدرة والإرادة والعلم إلى غير ذلك من موجودات لا تحصى ولا تعد، فهو ضيق المجال مختصر المجرى لا تسعه مجاوزة الألوان والأشكال وهما أخس الموجودات. فإن الأجسام في أصلها أخس أقسام الموجودات، والألوان والأشكال من أخس أعراضها.

فالموجودات كلها مجال العقل، إذ يدرك هذه الموجودات التي عددناها وما لم نعدها، وهو الأكثر، فيتصرف في جميعها ويحكم عليها حكما يقينا صادقا. فالأسرار الباطنة عنده ظاهرة، والمعاني الخفية عنده جلية. فمن أين للعين الظاهرة مساماته ومجاراته في استحقاق اسم النور،كلا إنها نور بالإضافة إلى غيرها، لكنها ظلمة بالإضافة إليه. بل هي جاسوس من جواسيسه وكله بأخس خزائنه، وهي خزانة الألوان والأشكال لترفع إلى حضرته أخبارها فيقضي فيها بما يقتضيه رأيه الثاقب وحكمه النافذ. والحواس الخمس جواسيسه. وله في الباطن جواسيس سواها من خيال ووهم وفكر وذكر وحفظ، ووراءهم خدم وجنود مسخرة له في عالمه الخاص يستسخرهم ويتصرف فيهم استسخار الملك عبيده بل أشد. وشرح ذلك يطول.وقد ذكرناه في كتاب (عجائب القلب) من كتاب الإحياء.

السادس أن العين لاتبصر ما لانهاية له، فإنها تبصر صفات الأجسام، والأجسام لاتُتصور إلا متناهية. والعقل يدرك المعلومات، والمعلومات لايُتصور أن تكون متناهيه. نعم، إذا لاحظ العلوم المفصله فلا يكون الحاظر الحاصل عنده إلا متناهيا.لكن في قوته إدراك ما لانهاية له، وشرح ذلك يطول. فإن أردت له مثالا فخذه من الجليات، فإنه يدرك الأعداد ولا نهاية لها، بل يدرك تضعيفات الإثنين والثلاثة وسائر الأعداد ولا يُتصور لها نهاية. ويدرك أنواعا من النسب بين الأعداد لا يُتصور التناهي عليها، بل يدرك علمه بالشيء وعلمه بعلمه بالشيء، وعلمه بعلمه بعلمه. فقوته في هذا الواحد لا تقف عند نهاية.

السابع أن العين تبصر الكبير صغيرا، فترى الشمس في مقدار مجن، والكواكب في صور دنانير منثورة على بساط أزرق. والعقل يدرك أن الكواكب والشمس أكبر من الأرض أضعافا مضاعفة، والعين ترى الكواكب ساكنة، بل ترى الظل بين يديه ساكنا، وترى الصبي ساكنا في مقداره، والعقل يدرك أن الصبي متحرك في النشوء والتزايد على الدوام، والظل متحرك دائما، والكواكب تتحرك في كل لحظ أميالا كثيرة كما قال صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام: "أزالت الشمس؟" فقال لا، نعم. قال كيف؟ قال: "منذ قلت لا إلى أن قلت نعم قد تحرك مسيرة خمسمائة سنة". وأنواع غلط البصر كثيرة، والعقل منزه عنها. فإن قلت: نرى العقلاء يغلطون في نظرهم، فاعلم أن فيهم خيالات وأوهاما واعتقادات يظنون

أحكامها أحكام العقل، فالغلط منسوب إليها. وقد شرحنا مجامعها في كتاب (معيار العلم) وكتاب (محك النظر). فأما العقل إذا تجرد عن غشاوة الوهم والخيال لم يُتصور أن يغلط، بل رأى الأشياء على ما هي عليه، وفي تجريده عُسر عظيم. وإنما يكمل تجرده عن هذه النوازع بعد الموت، وعند ذلك ينكشف الغطاء وتنجلي الأسرار ويصادف كل أحد ما قدم من خير أو شر محضرا، ويشاهد كتابا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وعنده يقال:{فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد}. وإنما الغطاء غطاء الخيال والوهم وغيرهما، وعنده يقول المغرور بأوهامه واعتقاداته الفاسدة وخيالاته الباطلة:{رَبَّنا أَبصَرنا وَسَمِعنا فَارجِعنا نَعمَل صالِحاً}، الآية.

فقد عرفت بهذا أن العين أولى باسم النور من النور المعروف، ثم عرفت أن العقل أولى باسم النور من العين. بل بينهما من التفاوت ما يصح معه أن يقال إنه أولى بل الحق أنه المستحق للاسم دونه.

دقيقة

إعلم أن العقول وإن كانت مبصرة، فليست المبصرات كلها عندها على وتيرة واحدة، بل بعضها يكون عندها كأنه حاضر كالعلوم الضرورية مثل علمه بأن الشيء الواحد لا يكون قديما حادثا ولا يكون موجودا معدوما، والقول الواحد لا يكون صدقا وكذبا، وأن الحكم إذا ثبت للشيء جوازه ثبت لمثله، وأن الأخص إذا كان موجودا كان الأعم واجب الوجود، فإذا وُجد السواد فقد وجد اللون، وإذا وُجد الإنسان فقد وجد الحيوان. وأما عكسه فلا يلزم في العقل، إذ لا يلزم من وجود اللون وجود السواد ولا من وجود الحيوان وجود الإنسان، إلى غير ذلك من القضايا الضرورية في الواجبات والجائزات والمستحيلات. ومنها ما لا يقارن العقل في كل حال إذا عُرض عليه، بل يحتاج إلى أن يُهز أعطافه ويُستوري زناده ويُنبه عليه بالتنبيه كالنظريات. وإنما ينبهه كلام الحكمة، فعند إشراق نور الحكمة يصير العقل مبصرا بالفعل بعد أن كان مبصرا بالقوة. وأعظم الحكمة كلام الله تعالى. ومن جملة كلامه القرآن خاصة، فتكون منزلة آيات القرآن عند عين العقل منزلة نور الشمس عند العين الظاهرة إذ به يتم الإبصار. **فبالحرىّ أن يُسمى القرآن نورا كما يسمى نور الشمس نورا**، فمثال القرآن نور الشمس ومثال العقل نور العين. وبهذا نفهم معنى قوله:{فَآمِنوا بِاللهِ وَرَسولِهِ وَالنورِ الَّذي أَنزَلنا}، وقوله:{قَد جاءَكُم بُرهانٌ مِن رَبِكُم وَأَنزَلنا إِليكُم نوراً مُبينا}.

تكملة هذه الدقيقة

فقد فهمت من هذا أن العين عينان: ظاهرة وباطنة. فالظاهرة من عالم الحس والشهادة، والباطنة من عالم آخر وهو عالم الملكوت. ولكل عين من العينين شمس ونور عنده تصير كاملة الإبصار، إحداهما ظاهرة والأخرى باطنة. والظاهرة من عالم الشهادة وهي الشمس المحسوسة، والباطنة من عالم الملكوت وهو القرآن وكتب الله تعالى المنزلة. ومهما انكشف لك هذا انكشافا تاما فقد انفتح لك أول باب من أبواب الملكوت. وفي هذا العالم عجائب يُستحقر بالإضافة إليها عالم الشهادة. وإن من لم يسافر إلى هذا العالم، وقعد به القصور في حضيض عالم الشهادة فهو بهيمة بعد، محروم عن خاصية الإنسانية، بل أضل من البهيمة إذ لم تسعد البهيمة بأجنحة الطيران إلى هذا العالم. ولذلك قال الله تعالى:{أُولَئِكَ كالأَنعامِ بَل هُم أَضَلُّ}. واعلم أن الشهادة بالإضافة إلى عالم الملكوت كالقشر بالإضافة إلى اللب، وكالصورة والقالب بالإضافة إلى الروح، وكالظلمة بالإضافة إلى النور، كالسفل بالإضافة إلى العلو. ولذلك يسمى عالم الملكوت العالم العلوي والعالم الروحاني والعالم النوراني. وفي مقابلته السفلي والجسماني والظلماني. ولا تظن أنّا نعني بالعالم العلوي السموات فإنها علو وفوق في حق عالم الشهادة والحس، ويشارك في إدراكه البهائم. وأما العبد فلا يفتح

له باب الملكوت ولا يصير ملكوتيا إلا ويُبَدَّل في حقه الأرض غير الأرض والسموات، فيصير كل داخل تحت الحس والخيال أرضه ومن جملة السموات، وكل ما ارتفع عن الحس فسماؤه، وهذا هو المعراج الأول لكل سالك ابتدأ سفره إلى قرب الحضرة الربوبية. فالإنسان مردود إلى أسفل السافلين، ومنه يترقى إلى العالم الأعلى. وأما الملائكة فإنهم جملة عالم الملكوت عاكفون في حضرة القدوس، ومنها يشرفون إلى العالم الأسفل. ولذلك قال عليه السلام: "إن الله خلق الخلق في ظلمة ثم أفاض عليهم من نوره"، وقال: "إن لله ملائكة هو أعلم بأعمال الناس منهم". والأنبياء إذا بلغ معراجهم المبلغ الأقصى وأشرقوا منه إلى السفل ونظروا من فوق إلى تحت اطلعوا أيضا على قلوب العباد وأشرفوا على جملة من علوم الغيب. إذ من كان في عالم الملكوت كان عند الله تعالى:{وَعِندَهُ مَفاتِحُ الغَيبِ}، أي من عنده تنزل أسباب الموجودات في عالم الشهادة، وعالم الشهادة أثر من آثار ذلك العالم، يجري منه مجرى الظل بالإضافة إلى السبب. ومفاتيح معرفة المسببات لا توجد إلا من الأسباب، ولذلك كان عالم الشهادة مثالا لعالم الملكوت كما سيأتي في بيان المشكاة والمصباح والشجرة، لأن المسبب لا يخلو عن موازاة السبب، ومحاكاته نوعا من المحاكاة على قرب أو على بعد. وهذا لأن له غورا عميقا ومن اطلع على كنه حقيقته انكشف له حقائق أمثلة القرآن على يسر.

دقيقة ترجع إلى حقيقة النور

فنقول إن كان ما يبصر نفسه وغيره أولى باسم النور، فإن كان من جملة ما يبصَر به غيره أيضا مع أنه يبصِر نفسه وغيره، فهو أولى باسم النور من الذي لا يؤثر في غيره أصلا، بل بالحري أن يسمى سراجا منيرا لفيضان أنواره على غيره. وهذه الخاصية توجد للروح القدسي النبوي إذ تفيض بواسطته أنواع المعارف على الخلائق. وبهذا نفهم معنى تسمية الله محمدا عليه السلام سراجا منيرا. والأنبياء كلهم سرج، وكذلك العلماء. ولكن التفاوت بينهم لا يحصى.

دقيقة

إذا كان اللائق بالذي يستفاد منه نور الإبصار أن يسمى سراجا منيرا، فالذي يُقتبس منه السراج في نفسه جدير بأن يُكنى عنه بالنار. وهذه السرج الأرضية إنما تُقتَبس في أصلها من أنوار علوية. فالروح القدسي النبوي يكاد زيته يضيء ولو لم تمسسه نار، ولكن إنما يصير نورا على نور إذا مسته النار. وبالحريّ أن يكون مُقتَبس الأرواح الأرضية هي الروح الإلهية العلوية، وهو الذي قوبل بالملائكة كلهم فقيل يوم القيامة:{يَومَ يَقومُ الرّوحُ والمَلائِكَةُ صَفّاً}، فهي إذا اعتبرت من حيث يُقتَبس منها السّرج الأرضية لم يكن لها مثال إلا النار، وذلك لا يؤانَس إلا من جانب الطور.

دقيقة

الأنوار السماوية التي تُقتَبس منها الأنوار الأرضية إن كان لها ترتيب بحيث يَقتبِس بعضها من بعض، فالأقرب من المنبع الأول أولى باسم النور لأنه أعلى رتبة. ومثال ترتيبه في عالم الشهادة لا تدركه إلا بأن يفرض ضوء القمر داخلا في كوة بيت واقعا على مرآة منصوبة على حائط، ومنعكسا منها إلى حائط آخر في مقابلتها، ثم منعطفا منه إلى الأرض بحيث تستنير الأرض. فأنت تعلم أن ما على الأرض من النور تابع لما على الحائط، وما على الحائط تابع لما على المرآة، وما على المرآة تابع لما في القمر، وما في القمر تابع لما في الشمس إذ منها يُشرِق النور على القمر. وهذه الأنوار الأربعة

مرتبة بعضها أعلى وأكمل من بعض، ولكل واحد مقام معلوم ودرجة خاصة لا يتعداها. فاعلم أنه قد انكشف لأرباب البصائر أن الأنوار الملكوتية إنما وُجدت على ترتيب كذلك، وأن المقرب هو الأقرب إلى النور الأقصى. فلا يبعد أن تكون رتبة إسرافيل فوق رتبة جبريل، وأن فيهم الأقرب لقرب درجته من **حضرة الربوبية التي هي منبع الأنوار كلها**، وأن فيهم الأدنى، وبينهما درجات تستعصي على الإحصاء. وإنما المعلوم كثرتهم وترتيبهم في مقاماتهم وصفوفهم، وأنهم كما وصفوا به أنفسهم إذ قالوا: {وَإِنّا لَنَحنُ الصافّون. وَإِنّا لَنَحنُ المسَبِحونَ}.

دقيقة

إذا عرفت أن الأنوار لها ترتيب فاعلم أنه لا يتسلسل إلى غير نهاية، بل يرتقي إلى منبع أول هو النور لذاته وبذاته، ليس يأتيه نور من غيره، ومنه تشرق الأنوار كلها على ترتيبها. فانظر الآن اسم النور أحق وأولى بالمستنير المستعير نوره من غيره، أو بالنيِّر في ذاته المنير لكل ما سواه، فما عندي أنه يخفى عليك الحق فيه، وبه يتحقق أن إسم النور أحق بالنور الأقصى الأعلى الذي لا نور فوقه، ومنه ينزل النور إلى غيره.

حقيقة

بل أقول ولا أبالي أن إسم النور على غير النور الأول مجاز محض، إذ كل ما سواه إذا اعتُبِر ذاته فهو في ذاته من حيث ذاته لا نور له، بل نورانيته مستعارة من غيره ولا قوام لنورانيته المستعارة بنفسها، بل بغيرها. ونسبة المستعار إلى المستعير مجاز محض. أفترى أن من استعار ثيابا وفرسا ومركبا وسرجا، وركبه في الوقت الذي أركبه المُعير، وعلى الحد الذي رسمه، غنى بالحقيقة أو بالمجاز؟ وأن المُعير هو الغنى أو المستعير؟ كلا، بل المستعير فقير في نفسه كما كان. وإنما الغنى هو المعير الذي منه الإعارة والإعطاء، وإليه الاسترداد والانتزاع. فإذن النور الحق هو الذي بيده الخلق والأمر، ومنه الإنارة أولا والإدامة ثانيا. فلا شركة لأحد معه في حقيقة هذا الاسم ولا في استحقاقه إلا من حيث يسميه به، ويتفضل عليه بتسميته تفضل المالك على عبده إذا أعطاه مالا ثم سماه مالكا. وإذا انكشف للعبد الحقيقة علم أنه وماله لمالكه على التفرد لا شريك له فيه أصلا وألبتة.

مهما عرفت أن النور يرجع إلى الظهور وإلإظهار ومراتبه، فاعلم أنه لا ظلمة أشد من كتم العدم. لأن المظلم سمى مظلما لأنه ليس للإبصار إليه وصول، إذ ليس يصير موجودا للبصير مع أنه موجود في نفسه. فالذي ليس موجودا لا لغيره ولا لنفسه كيف لا يستحق أن يكون هو الغاية في الظلمة، وفي مقابلته الوجود فهو النور. فإن الشيء ما لم يظهر في ذاته لا يظهر لغيره. والوجود ينقسم إلى ما للشيء من ذاته وإلى ماله من غيره. وما له الوجود من غيره فوجوده مستعار لا قوام له بنفسه. بل إذا اعتُبر ذاته من حيث ذاته فهو عدم محض. وإنما هو موجود من حيث نسبته إلى غيره، وذلك ليس بوجود حقيقي كما عرفت في مثال استعارة الثوب والغنى. فالموجود الحق هو الله تعالى، كما أن النور الحق هو الله تعالى.

حقيقة الحقائق

من هنا ترقى العارفون من حضيض المجاز إلى يفاع[6] الحقيقة، واستكملوا معراجهم فرأوا بالمشاهدة العيانية أن ليس في الوجود إلا الله تعالى، وأن {كُلُّ شَيءٍ هالِكٌ إِلّا وَجهَهُ}، لا أنه يصير هالكا في وقت من الأوقات، بل هو هالك أزلا وأبدا لا يُتصور إلا كذلك. فإن كل شيء سواه إذا اعتُبِر ذاته

[6] المرتفع من كل شيء (المعجم العربي الأساسي)

من حيث ذاته فهو عدم محض، وإذا اعتُبر من الوجه الذي يسري إليه الوجود من الأول الحق، رؤى موجودا لا في ذاته لكن من الوجه الذي يلي موجِدُه فيكون الموجود وجه الله تعالى فقط. فلكل شيء وجهان: وجه إلى نفسه ووجه إلى ربه؛ فإذن لا موجود إلا الله تعالى ووجهه. فإذن كل شيء هالك إلا وجهه أزلا وأبدا. ولم يفتقر هؤلاء إلى يوم القيامة ليسمعوا نداء البارئ تعالى:{لِّمَنِ الملكُ اليَومَ لِلهِ الواحِدِ القَهّارِ}. بل هذا النداء لا يفارق سمعهم أبدا. ولم يفهموا من معنى قوله (الله أكبر) أنه أكبر من غيره، حاش لله، إذ ليس في الوجود معه غيره حتى يكون أكبر منه؛ بل ليس لغيره رتبة المعية، بل رتبة التبعية، بل ليس لغيره وجود إلا من الوجه الذي يليه. فالموجود وجهه فقط. ومحال أن يقال إنه أكبر من وجهه. بل معناها **أنه أكبر من أن يقال له أكبر بمعنى الإضافة والمقايسة، وأكبر من أن يدرك غيره كنه كبريائه، نبيا كان أو ملَكا**. بل لا يعرف الله كنه معرفته إلا الله. بل كل معروف داخل في سلطة العارف واستيلائه دخولا ما، وذلك ينافي الجلال والكبرياء. وهذا له تحقيق ذكرناه في كتاب (المقصد الأسنى في معاني أسماء الله الحسنى).

إشارة

العارفون- بعد العروج إلى سماء الحقيقة- اتفقوا على أنهم لم يروا في الوجود إلا الواحد الحق. لكن منهم من كان له هذه الحال عرفانا علميا، ومنهم من صار له ذلك حالا ذوقيا. وانتفت عنهم الكثرة بالكلية واستغرقوا بالفردانية المحضة واستُوفيت فيها عقولهم فصاروا كالمبهوتين فيه، ولم يبق فيهم متسع لا لذكر غير الله ولا لذكر أنفسهم أيضا، فلم يكن عندهم إلا الله، فسكروا سكرا دفع دونه سلطان عقولهم، فقال أحدهم (أنا الحق) وقال الآخر (سبحاني ما أعظم شأني) وقال آخر (ما في الجبة إلا الله)، وكلام العشاق في حال السكر يُطوى ولا يحكى. فلما خف عنهم سكرهم وردوا إلى سلطان العقل الذي هو ميزان الله في أرضه، عرفوا أن ذلك لم يكن حقيقة الاتحاد بل شبه الاتحاد، مثل قول العاشق في حال فرط عشقه (أنا من أهوى ومن أهوى أنا)، ولا يبعد أن يفاجيء الإنسان مرآة فينظر فيها ولم ير المرآة قط، فيظن أن الصورة التي رآها هي صورة المرآة متحدة بها، ويرى الخمر في الزجاج فيظن أن الخمر لون الزجاج. وإذا صار ذلك عنده مألوفا ورسخ فيه قدمه استغفر. وهذه الحالة إذا غلبت سُميت بالإضافة إلى صاحب الحالة (فناء) بل (فناء الفناء)، لأنه فنى عن نفسه وفنى عن فنائه، فإنه ليس يشعر بنفسه في تلك الحال ولا يعدم شعوره بنفسه. ولو شعر بعدم شعوره بنفسه لكان قد شعر بنفسه. وتسمى هذه الحالة بالإضافة إلى المستغرِق به بلسان المجاز اتحادا أو بلسان الحقيقة توحيدا. ووراء هذه الحقائق أيضا أسرار يطول الخوض فيها.

خاتمة

لعلك تشتهي أن تعرف وجه إضافة نوره إلى السموات والأرض، بل وجه كونه في ذاته نور السموات والأرض، فلا ينبغي أن يخفى ذلك عليك بعد أن عرفت أنه النور ولا نور سواه وأنه كل الأنوار، وأنه النور الكلي، لأن النور عبارة عما ينكشف به الأشياء، وأعلى منه ما ينكشف به وله، وأعلى منه ما ينكشف به وله ومنه، وأن الحقيقي منه ما ينكشف به وله، وأعلى منه ما ينكشف به وله ومنه، وأن الحقيقي منه ما ينكشف به وله ومنه وليس فوقه نور منه اقتباسه واستمداده، بل ذلك له في ذاته من ذاته لذاته لا من غيره. ثم عرفت أن هذا لن يتصف به إلا النور الأول. ثم عرفت أن السموات والأرض مشحونة نورا من طبقتي النور، أعني المنسوب إلى البصر والبصيرة، أي إلى الحس والعقل. أما البصرى فما نشاهده في السموات من الكواكب والشمس والقمر، وما نشاهده في الأرض من الأشعة المنبسطة على كل ما على الأرض حتى ظهرت به الألوان المختلفة خصوصا في الربيع،

وعلى كل حال في الحيوانات والمعادن وأصناف الموجودات. ولولاها لم يكن للألوان ظهور، بل وجود. ثم سائر ما يظهر للحس من الأشكال والمقادير يدرك تبعا للألوان ولا يتصور إدراكها إلا بواسطتها.

وأما الأنوار العقلية المعنوية فالعالم الأعلى مشحون بها، وهي جواهر الملائكة، والعالم الأسفل مشحون بها وهي الحياة الحيوانية ثم الإنسانية.

وبالنور الإنساني السفلي ظهر نظام عالم السفل كما بالنور الملكي ظهر نظام عالم العلو. وهو المعنى بقوله:{أَنشَأَكُم مِنَ الأَرضِ وَاستَعمَرَكُم فيها}، وقال تعالى:{لَيَستَخلِفَنَّهُم في الأَرض}، وقال:{وَيَجعَلَكُم خُلَفاءَ الأَرضِ}، وقال:{إِنّي جاعِلٌ في الأَرضِ خَليفَة}. فإذا عرفت هذا عرفت أن العالم بأسره مشحون بالأنوار الظاهرة البصرية والباطنة العقلية، ثم عرفت أن السفلية فائضة بعضها من بعض فيضان النور من السراج، وأن السراج هو الروح النبوي القدسي، وأن الأرواح النبوية القدسية مقتبسة من الأرواح العلوية اقتباس السراج من النور، وأن العلويات بعضها مقتبسة من البعض، وأن ترتيبها ترتيب مقامات. ثم ترقى جملتها إلى نور الأنوار ومعدنها ومنبعها الأول، وأن ذلك هو الله تعالى وحده لا شريك له، وأن سائر الأنوار مستعارة، وإنما الحقيقي نوره فقط، وأن الكل نوره، بل هو الكل، بل لا هوية لغيره إلا بالمجاز. فإذن لا نور إلا نوره، وسائر الأنوار أنوار من الذي يليه لا من ذاته. فوجه كل ذي وجه إليه ومُوَلِّ شطره:{فَأَينَما تُوَلّوا فَثَمَّ وَجهُ اللهِ}. فإذن لا إله الا هو: **فإن الإله عبارة عما الوجه مُوليه نحوه بالعبادة والتأله: أعني وجوه القلوب فإنها الأنوار**. بل كما لا إله إلا هو، فلا هو إلا هو: لأن (هو) عبارة عما إليه إشارة كيفما كان، ولا إشارة إلا إليه. بل كل ما أشرت إليه فهو بالحقيقة إشارة عليه، وإن كنت لا تعرفه أنت لغفلتك عن حقيقة الحقائق التي ذكرناها. ولا إشارة إلى نور الشمس بل إلى الشمس. فكل ما في الوجود فنسبته إليه في ظاهر المثال كنسبة النور إلى الشمس. فإذن (لا إله إلا الله) توحيد العوام، و(لا إله إلا هو) توحيد الخواص، لأن هذا أتم وأخص وأشمل وأحق وأدق وأدخل بصاحبه في الفردانية المحضة والوحدانية الصرفة. ومنتهى معراج الخلائق مملكة الفردانية. وليس وراء ذلك مرقي، إذ الترقي لا يُتصور إلا بكثرة، فإنه نوع إضافة يستدعى ما منه الارتقاء وما إليه الارتقاء. وإذا ارتفعت الكثرة حقت الوحدة وبطلت الإضافات وطاحت الإشارات، ولم يبق علو وسفل ونازل ومرتفع، واستحال الترقي فاستحال العروج. فليس وراء الأعلى علو، ولا مع الوحدة كثرة، ولا مع انتفاء الكثرة عروج، فإن كان من تغير حال، فالنزول إلى سماء الدنيا، أعني بالإشراف من علو إلى سفل، لأن الأعلى له أسفل وليس له أعلى. فهذه هي غاية الغايات ومنتهى الطلبات، يعلمه من يعلمه وينكره من يجهله. وهو من العلم الذي هو كهيئة المكنون الذي لا يعلمه إلا العلماء بالله. فإذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل الغرة بالله. ولا يبعد أن قال العلماء إن النزول إلى السماء الدنيا هو نزول مَلك، فقد توهم العلماء ما هو أبعد منه. إذ قال هذا المستغرق بالفردانية أيضا له نزول إلى السماء الدنيا، فإن ذلك هو نزوله إلى استعمال الحواس أو تحريك الأعضاء. وإليه الإشارة بقوله: "صرت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به". فإذا كان هو سمعه وبصره ولسانه، فهو السامع والباصر والناطق إذن لا غيره؛ وإليه الإشارة بقوله: "مرضت فلم تعدني"، الحديث. فحركات هذا الموحد من السماء الدنيا وإحساساته كالسمع والبصر من سماء فوقه، وعقله فوق ذلك. وهو يترقي من سماء العقل إلى منتهى معراج الخلائق. ومملكة الفردانية تمام سبع طبقات ثم بعده يستوي على عرش الوحدانية، ومنه يدبر الأمر لطبقات سمواته. فربما نظر الناظر إليه فأطلق القول بأن الله خلق آدم على صورة الرحمن، إلى أن يمعن النظر فيعلم أن ذلك تأويل كقول القائل (أنا الحق) و (سبحاني) بل كقوله لموسى عليه السلام: (مرضت فلم تعدني) و (كنت سمعه وبصره ولسانه). وأرى الآن قبض البيان فما أراك تطيق من هذا القدر أكثر من هذا القدر.

مساعدة: لعلك لا تسمو إلى هذا الكلام بهمتك، بل تقصر دون ذروته همتك، فخذ إليك كلاما أقرب إلى فهمك وأوفق لضعفك. واعلم أن معنى كونه نور السموات والأرض تعرفه بالنسبة إلى النور الظاهر البصري. فإذا رأيت أنوار الربيع وخضرته مثلا في ضياء النهار فلست تشك في أنك ترى الألوان. وربما ظننت أنك لست ترى مع الألوان غيرها، فإنك تقول لست أرى مع الخضرة غير الخضرة. ولقد أصر على هذا قوم فزعموا أن النور لا معنى له، وأنه ليس مع الألوان غير الألوان، فأنكروا وجود النور مع أنه أظهر الأشياء، وكيف لا وبه تظهر الأشياء، وهو الذي يُبصر في نفسه ويُبصر به غيره كما سبق. لكن عند غروب الشمس وغيبة السراج ووقوع الظل أدركوا تفرقة ضرورية بين محل الظل وبين موقع الضياء، فاعترفوا بأن النور معنى وراء الألوان يُدرك مع الألوان حتى كأنه لشدة انجلائه لا يُدرك، ولشدة ظهوره يخفى. وقد يكون الظهور سبب الخفاء. والشيء إذا جاوز حده انعكس على ضده. فإذا عرفت هذا فاعلم أن أرباب البصائر ما رأوا شيئا إلا رأوا الله معه. وربما زاد على هذا بعضهم فقال (ما رأيت شيئا إلا رأيت الله قبله) لأن منهم من يرى الأشياء به ومنهم من يرى الأشياء فيراه بالأشياء. وإلى الأول الإشارة بقوله تعالى:{أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شيءٍ شَهيدٌ}، وعلى الثاني الإشارة بقوله تعالى:{سَنُريهِم آياتِنا في الآفاقِ}. فالأول صاحب مشاهدة، والثاني صاحب الاستدلال عليه، والأول درجة الصديقين، والثاني درجة العلماء الراسخين، وليس بعدهما إلا درجة الغافلين المحجوبين.

وإذ قد عرفت هذا فاعلم أنه كما ظهر كل شيء للبصر بالنور الظاهر، فقد ظهر كل شيء للبصيرة الباطنة بالله. فهو مع كل شيء لا يفارقه ثم يُظهر كل شيء، كما أن النور مع كل شيء وبه يظهر. ولكن بقي ها هنا تفاوت، وهو أن النور الظاهر يُتصور أن يغيب بغروب الشمس ويُحجب حتى يظهر الظل، وأما النور الإلهي الذي به يُظهر كل شيء، لا يُتصور غيبته بل يستحيل تغيره، فيبقى مع الأشياء دائما، فانقطع طريق الاستدلال بالتفرقة. ولو تُصور غيبته لانهدت السموات والأرض، ولأُدرك به من التفرقة ما يُضطر معه إلى المعرفة بما به ظهرت الأشياء. ولكن لما تساوت الأشياء كلها على نمط واحد في الشهادة على وحدانية خالقها ارتفع التفريق وخفي الطريق. إذ الطريق الظاهر معرفة الأشياء بالأضداد فما لا ضد له ولا تغير له تتشابه الأحوال في الشهادة له، فلا يبعد أن يخفى ويكون خفاؤه لشدة جلائه والغفلة عنه لإشراق ضيائه. فسبحان من اختفى عن الخلق لشدة ظهوره، واحتجب عنهم لإشراق نوره. وربما لم يفهم أيضا كنه هذا الكلام بعض القاصرين، فيفهم من قولنا (إن الله مع كل شيء كالنور مع الأشياء) أنه في كل مكان، **تعالى وتقدس عن النسبة إلى المكان**. بل لعل الأبعد عن إثارة هذا الخيال أن نقول إنه قبل كل شيء، وإنه فوق كل شيء، وإنه مُظهر كل شيء. والمُظهر لا يفارق المَظهر في معرفة صاحب البصيرة، فهو الذي نعني بقولنا عنه مع كل شيء. ثم لا يخفى عليك أيضا أن المُظهر وفوقه مع أنه معه بوجه، لكنه معه بوجه وقبله بوجه. فلا تظنن أنه متناقض، واعتبر بالمحسوسات التي هي درجتك في العرفان، وانظر كيف تكون حركة اليد مع حركة ظل اليد وقبلها أيضا. ومن لم يتسع صدره لمعرفة هذا فليهجر هذا النمط من العلم، فلكل علم رجال، وكل ميسر لما خلق له.

الفصل الثاني

في بيان مثال المشكاة والمصباح والزجاجة والشجرة والزيت والنار

ومعرفة هذا يستدعي تقديم قطبين يتسع المجال فيهما إلى غير حد محدود. لكني أشير إليهما بالرمز والاختصار: أحدهما في بيان سر التمثيل ومنهاجه، ووجه ضبط أرواح المعاني بقوالب الأمثلة، ووجه كيفية المناسبة بينها، وكيفية الموازنة بين عالم الشهادة التي منها تُتخذ طينة الأمثال، وعالم

الملكوت الذي منه تُستنزل أرواح المعاني. والثاني في طبقات أرواح الطينة البشرية ومراتب أنوارها، فإن هذا المثال مسوق لبيان ذلك، إذ قرأ ابن مسعود (مثل نوره في قلب المؤمن كمشكاة) وقرأ أبي بن كعب: (مثل نور قلب من آمن).

الأول في سر التمثيل ومنهاجه

إعلم أن العالم عالمان: روحاني وجسماني، وإن شئت قلت حسي وعقلي، وإن شئت علوي وسفلي. والكل متقارب، وإنما تختلف باختلاف الاعتبارات. فإذا اعتبرتهما في أنفسهما قلت جسماني وروحاني، وإن اعتبرتهما بالإضافة إلى العين المدرِكة لهما قلت حسي وعقلي، وإن اعتبرتهما بإضافة أحدهما إلى الآخر قلت علوي وسفلي. وربما سميت أحدهما عالم المُلك والشهادة والآخر عالم الغيب والملكوت. ومن نظر إلى الحقائق من الألفاظ ربما تحير عند كثرة الألفاظ وتخيل كثرة المعاني. والذي تنكشف له الحقائق يجعل المعاني أصلا والألفاظ تابعا. وأمر الضعيف بالعكس، إذ يطلب الحقائق من الألفاظ. وإلى الفريقين الإشارة بقوله تعالى:{أَفَمَن يَمشي مُكِبّاً عَلى وَجهِهِ أَهدى أَم مَن يَمشي سَوياً عَلى صِراطٍ مُّستَقيم}.

وإذ قد عرفت معنى العالمين فاعلم أن العالم الملكوتي عالم غيب، إذ هو غائب عن الأكثرين. والعالم الحسي عالم شهادة إذ يشهده الكافة. والعالم الحسي مرقاة إلى العقل. فلو لم يكن بينهما اتصال ومناسبة لانسد طريق الترقي إليه. ولو تعذر ذلك لتعذر السفر إلى حضرة الربوبية والقرب من الله تعالى. فلم يقرب من الله تعالى أحد ما لم يطأ بحبوحة حظيرة القدس[٧]. والعالم المرتفع عن إدراك الحس والخيال هو الذي نعنيه بعالم القُدْس[٨]. فإذا اعتبرنا جملته بحيث لا يخرج منه شيء ولا يدخل فيه ما هو غريب منه سميناه حظيرة القدس. وربما سمينا الروح البشري الذي هو مجرى لوائح القدس "الوادي المقدس". ثم هذه الحظيرة فيها حظائر بعضها أشد إمعانا في معاني القدس. ولكن لفظ الحظيرة يحيط بجميع طبقاتها. فلا تظنن أن هذه الألفاظ طامات[٩] غير معقولة عند أرباب البصائر. واشتغالي الآن بشرح كل لفظ مع ذكره يصدني عن المقصد. فعليك التشمير لفهم هذه الألفاظ. فأرجع إلى الغرض وأقول: لما كان عالم الشهادة مرقاة إلى عالم الملكوت، وكان سلوك الصراط المستقيم عبارة عن هذا الترقي، وقد يعبر عنه بالدين وبمنازل الهدى، فلو لم يكن بينهما مناسبة واتصال لما تُصور الترقي من أحدهما إلى الآخر، جعلت الرحمة الإلهية عالم الشهادة على موازنة عالم الملكوت، فما من شيء من هذا العالم إلا وهو مثال لشيء من ذلك العالم. وربما كان الشيء الواحد مثالا لأشياء من عالم الملكوت. وربما كان للشيء الواحد من الملكوت أمثلة كثيرة من عالم الشهادة. وإنما يكون مثالا إذا ماثله نوعا من المماثلة، وطابقه نوعا من المطابقة. وإحصاء تلك الأمثلة يستدعي استقصاء جميع موجودات العالمين بأسرها، ولن تفي به القوة البشرية، وما اتسع لفهمه القوة البشرية، فلا تفي بشرحه الأعمار القصيرة. فغايتي أن أعرفك منها أنموذجا لتستدل باليسير منها على الكثير، وينفتح لك باب الاستعبار بهذا النمط من الأسرار، فأقول: إن كان في عالم الملكوت جواهر نورانية شريفة عالية يُعبر عنها بالملائكة، منها تفيض الأنوار على الأرواح البشرية، ولأجلها قد تسمى أربابا، ويكون الله تعالى رب الأرباب لذلك، ويكون لها مراتب في نورانيتها متفاوتة، فبالحريّ أن يكون مثالها من عالم الشهادة الشمس والقمر والكواكب.

---

[7] حظيرة القدس: الجنة (المعجم الوجيز)

[8] الطُهر والبركة (المعجم العربي الأساسي)

[9] الطامة: الداهية تفوق ما سواها (المعجم الوجيز)

والسالك للطريق أولا ينتهي إلى ما درجته درجة الكواكب، فيتضح له إشراق نوره وينكشف له أن العالم الأسفل بأسره تحت سلطانه وتحت إشراق نوره، ويتضح له من جماله وعلو درجته ما يبادر فيقول: (هذا ربي)، ثم إذا اتضح له ما فوقه مما رتبته رتبة القمر، رأى دخول الأول في مغرب الهوى بالإضافة إلى ما فوقه فقال: (لا أحب الآفلين)، وكذلك يترقى حتى ينتهي إلى ما مثاله الشمس فيراه أكبر وأعلى، فيراه قابلا للمثال بنوع مناسبة له معه. والمناسبة مع ذي النقص نقص وأفول أيضا. فمنه يقول:{وَجَهتُ وَجهِيَ لِلَّذي فَطَرَ السَمَواتِ وَالأَرضَ حَنيفاً}، ومعنى (الذي) إشارة مبهمة لا مناسبة لها: إذ لو قال قائل ما مثال مفهوم (الذي) لم يُتصور أن يُجاب عنه. فالمتنزه عن كل مناسبة هو الأول الحق. ولذلك لما قال بعض الأعراب لرسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما نسب الإله?) نزل في جوابه:{قُل هُوَ اللهُ أَحَدٌ. اللهُ الصَمَدُ. لَم يَلِد وَلَم يولَد}، إلى آخرها، معناه أن التقدس والتنزه عن النسبة نسبته. ولذلك لما قال فرعون لموسى:{وَما رَبُّ العالَمينَ}، كالطالب لماهيته لم يُجَب إلا بتعريفه بأفعاله، إذ كانت الأفعال أظهر عند السائل فقال:{رَبِّ السَمَواتِ وَالأَرضِ}، فقال فرعون لمن حوله:{أَلا تَسمَعونَ}، كالمنكِر عليه في عدوله في جوابه عن طلب الماهية، فقال موسى:{رَبُكُم وَرَبُّ آبائِكُمُ الأَولينَ}، فنسبه فرعون إلى الجنون إذ كان مطلبه المثال والماهية؛ وهو يجيب عن الأفعال، فقال:{إِنَّ رَسولَكُمُ الَّذي أُرسِلَ إِلَيكُم لَمَجنونٌ}. ولنرجع إلى الأنموذج فنقول علم (التعبير) يُعرِّفك منهاج ضرب المثال، لأن الرؤيا جزء من النبوة. أما ترى أن الشمس في الرؤيا تعبيرها السلطان، لما بينهما من المشاركة والمماثلة في معنى روحاني، وهو الإستعلاء على الكافة مع فيضان الآثار على الجميع. والقمر تعبيره الوزير لإفاضة الشمس نورها بواسطة القمر على العالم عند غيبتها، كما يفيض السلطان أنواره بواسطة الوزير على من يغيب عن حضرة السلطان. وأن من يرى أنه في يده خاتم يختم به أفواه الرجال وفروج النساء فتعبيره أنه مؤذن يؤذن قبل الصبح في رمضان. وأن من يرى أنه يصب الزيت في الزيتون فتعبيره أن تحته جارية هي أمه وهو لا يعرف. واستقصاء أبواب التعبير يزيدك أنسا بهذا الجنس، فلا يمكنني الاشتغال بعدها، بل أقول: كما أن في الموجودات العالية الروحانية ما مثاله الشمس والقمر والكواكب، فكذلك فيها ما له أمثلة أخرى إذا اعتبرت منه أوصاف أُخر سوى النورانية. فإن كان في تلك الموجودات ما هو ثابت لا يتغير وعظيم لا يُستصغر، ومنه ينفجر إلى أودية القلوب البشرية مياه المعارف ونفائس المكاشفات فمثاله (الطور)، وإن كان ثم موجودات تتلقى تلك النفائس بعضهم أولى من بعض فمثالها الوادي. وإن كانت تلك النفائس بعد اتصالها بالقلوب البشرية تجري من قلب إلى قلب، فهذه القلوب أيضا أودية. ومفتتح الوادي قلوب الأنبياء ثم العلماء ثم من بعدهم. فإن كانت هذه الأودية دون الأول وعنها تُغترف، فبالحريّ أن يكون الأول هو الوادي الأيمن لكثرة يمنه وعلو درجته. وإن كان الوادي الأدون يتلقى من آخر درجات الوادي الأيمن فمغترفه شاطىء الوادي الأيمن دون لجته ومبدئه. وإن كان روح النبي سراجا منيرا، وكان ذلك الروح مقتبسا بواسطة وحي كما قال:{أَوحينا إِليكَ روحاً مِن أَمرِنا} فما منه الإقتباس مثاله النار، وإن كان المتلقنون من الأنبياء بعضهم على محض التقليد لما سمعه، وبعضهم على حظ من البصيرة، فمثال حظ المقلد الخبر، ومثال حظ المستبصر الجذوة والقبس والشهاب. فإن صاحب الذوق مشارك للنبي في بعض الأحوال، ومثال تلك المشاركة الإصطلاء، وإنما يصطلي بالنار من معه النار لا من يسمع خبرها. وإن كان أول منزل الأنبياء الترقي إلى العالم المقدس عن كدورة[10] الحس والخيال، فمثال ذلك المنزل: الوادي المقدس. وإن كان لا يمكن وطء ذلك الوادي المقدس إلا بإطراح الكونين، أعني الدنيا والآخرة، والتوجه إلى الواحد الحق، ولأن الدنيا والآخرة متقابلتان متحاذيتان وهما عارضان للجوهر النوراني البشري يمكن إطراحهما مرة والتلبس بهما أخرى، فمثال إطراحهما عند الإحرام للتوجه إلى كعبة القدس خلع النعلين، بل نترقي إلى حضرة الربوبية مرة أخرى ونقول إن كان في تلك الحضرة شيء بواسطته تنتقش العلوم المفصلة في الجواهر القابلة لها فمثاله (القلم). وإن كان في تلك الجواهر القابلة ما بعضها سابق إلى التلقي، ومنها تنتقل إلى غيرها،

[10] كدورة: صار غير صاف، تعكر (المعجم الوجيز)

فمثالها (اللوح المحفوظ) و(الرق المنشور). وإن كان فوق الناقش للعلوم شيء هو مسخر فمثاله (اليد)، وإن كان لهذه الحضرة المشتملة على اليد واللوح والقلم والكتاب ترتيب منظوم فمثاله (الصورة)، وإن كان يوجد للصورة الإنسية نوع ترتيب على هذه الشاكلة، فهي على صورة الرحمن. وفرق بين أن يقال "على صورة الرحمن" وبين أن يقال "على صورة الله"، لأن الرحمة الإلهية هي التي صورت الحضرة الإلهية بهذه الصورة. ثم أنعم على آدم فأعطاه صورة مختصرة جامعة لجميع أصناف ما في العالم حتى كأنه كل ما في العالم، أو هو نسخة من العالم مختصرة. وصورة آدم، أعني هذه الصورة، مكتوبة بخط الله. فهو الخط الإلهي الذي ليس برقم حروف، إذ تنزه خطه عن أن يكون رقما وحروفا كما تنزه كلامه عن أن يكون صوتا وحرفا، وقلمه عن أن يكون خشبا وقصبا، ويده عن أن تكون لحما وعظما. **ولولا هذه الرحمة لعجز الآدمي عن معرفة ربه، إذ لا يعرف ربه إلا من عرف نفسه**. فلما كان هذا من آثار الرحمة صار على صورة الرحمن لا على صورة الله، فإن حضرة الإلهية غير حضرة الرحمة، وغير حضرة المَلك، وغير حضرة الربوبية. ولذلك أمر بالعياذ بجميع هذه الحضرات فقال:{قُل أَعوذُ بِرَبِّ الناسِ، مَلِكِ الناسِ، إِلَهِ الناسِ}. ولولا هذا المعنى لكان ينبغي أن يقول على صورته، واللفظ الوارد في الحديث الصحيح على صورة الرحمن. ولأن تمييز حضرة المَلك عن الإلهية والربوبية يستدعي شرحا طويلا فلنتجاوزه، ويكفيك من الأنموذج هذا القدر، فإن هذا بحر لا ساحل له. فإن وجدت في نفسك نفورا عن هذه الأمثال فآن قلبك بقوله تعالى:{أَنزَلَ مِنَ السَماءِ ماءً فَسالَت أَودِيَةٌ بِقَدَرِها}، الآية، وأنه كيف ورد في التفسير أن الماء هو المعرفة والقرآن، والأودية القلوب.

خاتمة واعتذار

لا تظنن من هذا الأنموذج وطريق ضرب المثال رخصة مني في رفع الظاهر واعتقادا في إبطالها حتى أقول مثلا لم يكن مع موسى نعلان، ولم يسمع الخطاب بقوله: {اخلع نعليك}، حاش لله. فإن إبطال الظواهر رأى الباطنية الذين نظروا بالعين العوراء إلى أحد العالمين ولم يعرفوا الموازنة بين العالمين، ولم يفهموا وجهه. كما أن إبطال الأسرار مذهب الحشوية. فالذي يجرد الظاهر حشوى، والذي يجرد الباطن باطني. والذي يجمع بينهما كامل. ولذلك قال عليه السلام: "للقرآن ظاهر وباطن وحدٌ ومطلع"، وربما نُقل هذا عن عليّ موقوفا عليه. بل أقول فهم موسى من الأمر بخلع النعلين إطراح الكونين، فامتثل الأمر ظاهرا بخلع نعليه، وباطنا بإطراح العالمين. وهذا هو (الاعتبار)، أي العبور من الشيء إلى غيره، ومن الظاهر إلى السر. وفرق بين من يسمع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يدخل الملائكة بيتا فيه كلب" فيقتنى الكلب في البيت ويقول ليس الظاهر مرادا، بل المراد تخلية بيت القلب عن كلب الغضب لأنه يمنع المعرفة التي هي من أنوار الملائكة، إذا الغضب غول العقل، وبين من يمتثل الأمر في الظاهر ثم يقول: الكلب ليس كلبا لصورته بل لمعناه، وهو السبعية والضراوة، وإذا كان حفظ البيت الذي هو مقر الشخص والبدن واجبا عن صورة الكلب، فبأن يجب حفظ بيت القلب، وهو مقر الجوهر الحقيقي الخاص، عن شر الكلبية أولى. فأنا أجمع بين الظاهر والسر جميعا، فهذا هو الكامل، وهو المعني بقولهم (الكامل من لا يطفيء نور معرفته نور ورعه). ولذلك ترى الكامل لا تسمح نفسه بترك حد من حدود الشرع مع كمال البصيرة. وهذه مغلطة منها وقع بعض السالكين إلى الإباحة وطى بساط الأحكام ظاهرا، حتى أنه ربما ترك أحدهم الصلاة وزعم أنه دائما في الصلاة بسره. وهذا سوى مغالطة الحمقى من الإباحية الذين مأخذهم ترهات[11]، كقول بعضهم: إن الله غني عن عملنا، وقول بعضهم: إن الباطن مشحون بالخبائث ليس يمكن تزكيته ولا يُطْمَع في استئصال الغضب والشهوة، لظنه أنه مأمور باستئصالها، وهذه حماقات.

[11] الترهة: الباطل، والقول الخالي من النفع (المعجم الوجيز)

فأما ما ذكرناه فهو كبوة جواد وهفوة سالك حسده الشيطان فدلاّه بحبل الغرور. وأرجع إلى حديث النعلين فأقول: ظاهر خلع النعلين منبه على ترك الكونين. فالمثال في الظاهر حق وأداؤه إلى السر الباطن حقيقة. وأهل هذا التنبيه هم الذين بلغوا درجة الزجاجة كما سيأتي معنى الزجاجة؛ لأن الخيال الذي من طينته يُتخذ المثال صلب كثيف يحجب الأسرار ويحول بينك وبين الأنوار، ولكن إذا صفا حتى صار كالزجاج الصافي غير حائل عن الأنوار، بل صار مع ذلك مؤديا للأنوار، بل صار مع ذلك حافظا للأنوار عن الإنطفاء بعواصف الرياح. وستأتيك قصة الزجاجة. فاعلم أن العالم الكثيف الخيالي السفلي صار في حق الأنبياء زجاجة ومشكاة للأنوار ومصفاة للأسرار، ومرقاة إلى العالم الأعلى. وبهذا يُعرف أن المثال الظاهر حق ووراءه سر. وقس على هذا (الطور) و (النار) وغيرهما.

دقيقة

إذا قال الرسول عليه السلام: "رأيت عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حبوا"، فلا تظنن أنه لم يشاهده بالبصر كذلك، بل رآه في يقظته كما يراه النائم في نومه، وإن كان عبد الرحمن مثلا نائما في بيته بشخصه، فإن النوم إنما أثر في أمثال هذه المشاهدات لقهره سلطان الحواس عن النور الباطن الإلهي، فإن الحواس شاغلة له وجاذبة إياه إلى عالم الحس، وصارفة وجهه عن عالم الغيب والملكوت. وبعض الأنوار النبوية قد يستعلي ويستولي بحيث لا تستجره الحواس إلى عالمها ولا تشغله، فيشاهد في اليقظة ما يشاهد غيره في المنام. ولكنه إذا كان في غاية الكمال لم يقتصر إدراكه على محض الصورة المبصرة، بل عبر منها إلى السر فانكشف له أن الإيمان جاذب إلى العالم الذي يُعبَّر عنه بالجنة، والغنى والثروة جاذب إلى الحياة الحاضرة وهي العالم الأسفل. فإن كان الجاذب إلى أشغال الدنيا أقوى أو مقاوما للجاذب الآخر صد عن المسير إلى الجنة. وإن كان جاذب الإيمان أقوى أورث عسرا وبطئا في سيره، فيكون مثاله من عالم الشهادة (الحبو) فكذلك تتجلى له أنوار الأسرار من وراء زجاجات الخيال. ولذلك لا يقتصر في حكمه على عبد الرحمن وإن كان إبصاره مقصورا عليه، بل يحكم به على كل من قويت بصيرته واستحكم إيمانه، وكثرت ثروته كثرة تزاحم الإيمان لكن لا تقاومه لرجحان قوة الإيمان. فهذا يُعرفك كيفية إبصار الأنبياء الصورة وكيفية مشاهدتهم المعاني من وراء الصور. والأغلب أن يكون المعنى سابقا إلى المشاهدة الباطنة ثم يُشرق منها على الروح الخيالي فينطبع الخيال بصورة موازنة للمعنى، محاكية له. وهذا النمط من الوحي في اليقظة يفتقر إلى التأويل، كما أنه في النوم يفتقر إلى التعبير. والواقع منه في النوم نسبته إلى الخواص النبوية نسبة الواحد إلى ستة وأربعين. والواقع في اليقظة نسبته أعظم من ذلك. وأظن أن نسبته إليه نسبة الواحد إلى الثلاثة. فإن الذي انكشف لنا من الخواص النبوية ينحصر شعبها في ثلاثة أجناس، وهذا واحد من تلك الأجناس الثلاثة.

القطب الثاني

في بيان مراتب الأرواح البشرية النورانية إذ بمعرفتها تُعرف أمثلة القرآن

فالأول منها الروح الحساس وهو الذي يتلقى ما تورده الحواس الخمس، وكأنه أصل الروح الحيواني وأوله، إذ به يصير الحيوان حيوانا. وهو موجود للصبي الرضيع. **الثاني**: الروح الخيالي، وهو الذي يستثبت ما أورده الحواس ويحفظه مخزونا عنده ليعرضه على الروح العقلي الذي فوقه عند الحاجة إليه. وهذا لا يوجد للصبي الرضيع في بداية نشوئه، ولذلك يولع بالشيء ليأخذه، فإذا غاب عنه ينساه ولا تُنازعه نفسه إليه إلى أن يكبر قليلا فيصير بحيث

إذا غُيب عنه بكى وطلب ذلك لبقاء صورته محفوظة في خياله. وهذا قد يُوجَد لبعض الحيوانات دون بعض، ولا يوجد للفراش المتهافت على النار لأنه يقصد النار لشغفه بضياء النهار، فيظن أن السراج كوة مفتوحة إلى موضع الضياء فيلقي نفسه عليه فيتأذى به، لكنه إذا جاوزه وحصل في الظلمة عاوده مرة بعد مرة. ولو كان له الروح الحافظ المستثبت لما أداه الحس إليه من الألم لما عاوده بعد أن تضرر مرة به، فالكلب إذا ضُرب مرة بخشبة، فإذا رأى الخشبة بعد ذلك من بعد هرب. **الثالث**: الروح العقلي الذي به تُدرك المعاني الخارجة عن الحس والخيال، وهو الجوهر الإنسي الخاص، ولا يوجد لا للبهائم ولا للصبيان. ومدركاته المعارف الضرورية الكلية كما ذكرناه عند ترجيح نور العقل على نور العين. **الرابع**: الروح الفكري، وهو الذي يأخذ العلوم العقلية المحضة فيوقع بينها تأليفات وازدواجات ويستنتج منها معارف شريفة، ثم إذا استفاد نتيجتين مثلا، ألف بينهما مرة أخرة واستفاد نتيجة أخرى، ولا يزال يتزايد كذلك إلى غير نهاية. **الخامس**: الروح القدسي النبوي الذي يختص به الأنبياء وبعض الأولياء، وفيه تتجلى لوائح الغيب وأحكام الآخرة وجملة من معارف ملكوت السموات والأرض، بل من المعارف الربانية التي يقصر دونها الروح العقلي والفكري. وإليه الإشارة بقوله تعالى:{وَكَذَلِكَ أَوحَينا إِلَيكَ روحاً مِّن أَمرِنا ما كُنتَ تَدري ما اَلكِتابُ ولا الإيمانُ، وَلَكِن جَعَلناهُ نوراً نَّهدي بِهِ}، الآية. فلا يَبْعُد أيها العاكف في عالم العقل أن يكون وراء العقل طور آخر يظهر فيه ما لا يظهر في العقل، كما لا يبعد كون العقل طورا وراء التمييز والإحساس تنكشف فيه غرائب وعجائب يقصر عنها الإحساس والتمييز. ولا تجعل أقصى الكمال وقفا على نفسك. وإن أردت مثالا مما نشاهده من جملة خواص بعض البشر، فانظر إلى ذوق الشِعر كيف يختص به قوم من الناس وهو نوع إحساس وإدراك، ويُحرم عنه بعضهم حتى لا تتميز عندهم الألحان الموزونة من المنزحفة. وانظر كيف عظُمت قوة الذوق في طائفة حتى استخرجوا بها الموسيقى والأغاني والأوتار وصنوف الدستانات التي منها المُحزن ومنها المُطرب، ومنها المنوم ومنها المضحك، ومنها المجنن ومنها القاتل، ومنها الموجب للغشي. وإنما تقوى هذه الآثار فيمن له أصل الذوق، وأما العاطل عن خاصية الذوق فيشارك في سماع الصوت وتَضعُف فيه هذه الآثار، وهو يتعجب من صاحب الوجد والغشى. ولو اجتمع العقلاء كلهم من أرباب الذوق على تفهيمه معنى الذوق لم يقدروا عليه. فهذا مثال في أمر خسيس لكنه قريب إلى فهمك. فقس به الذوق الخاص النبوي واجتهد أن تصير من أهل الذوق بشيء من ذلك الروح، فإن للأولياء منه حظا وافرا. فإن لم تقدر فاجتهد أن تصير بالأقيسة التي ذكرناها والتنبيهات التي رمزنا إليها من أهل العلم بها. فإن لم تقدر فلا أقل من أن تكون من أهل الإيمان بها، و:{يَرفَعُ اللهُ الَّذينَ آمَنوا مِنكُم وَالَّذَينَ أُوتوا العِلمَ دَرَجاتٍ}. والعلم فوق الإيمان، والذوق فوق العلم. فالذوق وجدان والعلم قياس والإيمان قبول مجرد بالتقليد. وحسِّن الظن بأهل الوجدان أو بأهل العرفان. فإذا عرفت هذه الأرواح الخمسة فاعلم أنها بجملتها أنوار لأنها تُظهر أصناف الموجودات، والحسى والخيالي منها، وإن كان يشارك البهائم في جنسها، لكن الذي للإنسان منه نمط آخر أشرف وأعلى، وخُلق الإنسان لأجل غرض أجَّل وأسمى. أما الحيوانات فلم يُخلق ذلك لها إلا ليكون آلتها في طلب غذائها في تسخيرها للآدمي. وإنما خُلق للآدمي ليكون شبكة له يقتنص بها من العالم الأسفل مبادىء المعارف الدينية الشريفة. إذ الإنسان إذا أدرك بالحس شخصا معينا اقتبس عقله منه معنى عاما مطلقا كما ذكرنا في مثال حبو عبد الرحمن بن عوف. وإذا عرفت هذه الأرواح الخمسة فلنرجع إلى عرض الأمثلة.

بيان أمثلة هذه الآية

اعلم أن القول في موازنة هذه الأرواح الخمسة للمشكاة والزجاجة والمصباح والشجرة والزيت يمكن تطويله، لكني أوجزه وأقتصر على التنبيه على طريقه، فأقول: أما الروح الحساس فإذا نظرت إلى خاصيته وجدت أنواره خارجة من ثقب عدة كالعينين والأذنين والمنخرين وغيرها. وأوفق مثال له من

عالم الشهادة **المشكاة**. وأما الروح الخيالي فنجد له خواص ثلاثا، إحداهما: أنه من طينة العالم السفلي الكثيف، لأن الشيء المتخَيل ذو مقدار وشكل وجهات محصورة مخصوصة، وهو على نسبة من المتخيل من قرب أو بعد. ومن شأن الكثيف الموصوف بأوصاف الأجسام أن يُحجب عن الأنوار العقلية المحضة التي تتنزه عن الوصف بالجهات والمقادير والقرب والبعد. الثانية: أن هذا الخيال الكثيف إذا صُفّي ودُقِق وهُذّب وضُبِط صار موازيا للمعاني العقلية ومؤديا لأنوارها، غير حائل عن إشراق نورها منها. الثالثة: أن الخيال في بداية الأمر مُحتَاج إليه جدا ليُضبط به المعارف العقلية فلا تضطرب ولا تتزلزل ولا تنتشر انتشارا يخرج عن الضبط. فنعم المعين المثالات الخيالية للمعارف العقلية. وهذه الخواص الثلاث لا نجدها في عالم الشهادة بالإضافة إلى الأنوار المبصرة الا **للزجاجة**، فإنها في الأصل من جوهر كثيف لكن صُفّي ورُقّق حتى لا يحجب نور المصباح بل يؤديه على وجهه، ثم يحفظه عن الانطفاء بالرياح العاصفة والحركات العنيفة. فهي أول مثال له. وأما الثالث وهو الروح العقلي الذي به إدراك المعارف الشريفة الإلهية فلا يخفى عليك وجه تمثيله **بالمصباح**. وقد عرفت هذا فيما سبق من بيان كون الأنبياء سرجا منيرة. وأما الرابع وهو الروح الفكري فمن خاصيته أنه يبتدىء من أصل واحد ثم تتشعب منه شعبتان، ثم من كل شعبة شعبتان وهكذا إلى أن تكثر الشعب بالتقسيمات العقلية، ثم يفضي بالآخرة إلى نتائج هي ثمراتها. ثم تلك الثمرات تعود فتصير بذورا لأمثالها. إذ يمكن أيضا تلقيح بعضها بالبعض حتى يتمادى إلى ثمرات وراءها كما ذكرناه في كتاب القسطاس المستقيم. فبالحريّ أن يكون مثاله من هذا العالم **الشجرة**. وإذ كانت ثمراته مادة لتضاعف أنوار المعارف وثباتها وبقائها فبالحريّ ألا تمثل بشجرة السفرجل والتفاح والرمان وغيرها، بل من جملة سائر الأشجار **بالزيتونة** خاصة، لأن لب ثمرها هو الزيت الذي هو مادة المصابيح، ويختص من سائر الأدهان بخاصية زيادة الإشراق مع قلة الدخان. وإذا كانت الماشية التي يكثر نسلها والشجرة التي تكثر ثمرتها تسمى مباركة، فالتي لا يتناهى ثمرتها إلى حد محدود أولى أن تسمى **شجرة مباركة**. وإذا كانت شعب الأفكار العقلية المحضة خارجة عن قبول الإضافة إلى الجهات والقرب والبعد، فبالحريّ أن تكون **لا شرقية ولا غربية**. وأما الخامس: وهو الروح القدسي النبوي المنسوب إلى الأولياء إذا كان في غاية الصفاء والشرف، وكانت الروح المفكرة منقسمة إلى ما يحتاج إلى تعليم وتنبيه ومدد من خارج حتى يستمر في أنواع المعارف، وبعضها يكون في شدة الصفاء كأنه يتنبه بنفسه من غير مدد من خارج، فبالحريّ أن يعبر عن الصافي البالغ الاستعداد بأنه **يكاد زيته يضيء ولو لم تمسسه نار**، إذ من الأولياء من يكاد يشرق نوره حتى يكاد يستغني عن مدد الأنبياء، وفي الأنبياء من يكاد يستغني عن مدد الملائكة. فهذا المثال موافق لهذا القسم.

وإذا كانت هذه الأنوار مترتبة بعضها على بعض، فالحسى هو الأول، وهو كالتوطئة والتمهيد للخيالي، إذ لا يُتصور الخيالي إلا موضوعا بعده، والفكري والعقلي يكونان بعدهما، فبالحرى أن تكون الزجاجة كالمحل للمصباح والمشكاة كالمحل للزجاجة، **فيكون المصباح في زجاجة، والزجاجة في مشكاة**. وإذ كانت هذه كلها أنواراً بعضها فوق بعض فبالحريّ أن تكون نورا. هذا المثال إنما يتضح لقلوب المؤمنين أو لقلوب الأنبياء والأولياء لا لقلوب الكفار، فإن النور يراد للهداية. فالمصروف عن طريق الهدى باطل وظلمة، بل أشد من الظلمة، لأن الظلمة لا تهدي إلى الباطل كما لا تهدي إلى الحق. وعقول الكفار انتكست، وكذلك سائر إدراكاتهم وتعاونت على الإضلال في حقهم. فمثالهم كرجل في {بَحرٍ لُّجِّيٍّ يَغشاهُ مَوجٌ مِّن فَوقِهِ مَوجٌ مِّن فَوقِهِ سَحابٌ ظُلُماتٌ بَعضَها فَوقَ بَعضٍ}، والبحر واللّجيّ هو الدنيا بما فيها من الأخطار المهلكة والأشغال المردية والكدورات المعمية. والموج الأول موج الشهوات الداعية إلى الصفات البهيمية والإشتغال باللذات الحسية وقضاء الأوطار الدنيوية حتى إنهم يأكلون ويتمتعون كما تأكل الأنعام. وبالحريّ أن يكون هذا الموج مظلما لأن حب الشيء يُعمي ويُصم. والموج الثاني موج الصفات السبعية الباعثة على الغضب والعداوة والبغضاء والحقد والحسد والمباهاة والتفاخر والتكاثر، وبالحري أن يكون مظلما لأن الغضب غول العقل. وبالحري أن يكون هو الموج الأعلى، لأن الغضب في الأكثر مستول على الشهوات، حتى إذا هاج أذهل عن الشهوات وأغفل عن اللذات المشتهاة. وأما الشهوة فلا تقاوم

الغضب الهائج أصلا. وأما السحاب فهو الاعتقادات الخبيثة، والظنون الكاذبة، والخيالات الفاسدة التي صارت حجبا بين الكافرين وبين الإيمان ومعرفة الحق والاستضاءة بنور شمس القرآن والعقل. فإن خاصية السحاب أن يحجب إشراق نور الشمس. وإذا كانت هذه كلها مظلمة فبالحري أن تكون ظلمات بعضها فوق بعض. وإذا كانت هذه الظلمات تحجب عن معرفة الأشياء القريبة فضلا عن البعيدة، ولذلك حُجِب الكفار عن معرفة عجائب أحوال النبي عليه السلام مع قرب متناوله وظهوره بأدنى تأمل، فبالحرى أن يعبر عنه بأنه لو أخرج يده لم يكد يراها. وإذا كان منبع الأنوار كلها من النور الأول الحق كما سبق بيانه، فبالحرى أن يعتقد كل موحد أن:{وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نوراً فَما لَهُ مِن نّورٍ}. فيكفيك هذا القدر من أسرار هذه الآية فاقنع به.

الفصل الثالث

في معنى قوله عليه الصلاة والسلام

إن لله سبعين حجابا من نور وظلمة لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من أدركه بصره

وفي بعض الروايات سبعمائة، وفي بعضها سبعين ألفا. فأقول: إن الله تعالى متجل في ذاته لذاته، ويكون الحجاب بالإضافة إلى محجوب لا محالة؛ وإن المحجوبين من الخلق ثلاثة أقسام: منهم من حُجب بمجرد الظلمة؛ ومنهم من حُجب بالنور المحض؛ ومنهم من حُجب بنور مقرون بظلمة. وأصناف هذه الأقسام كثيرة أتحقق كثرتها، ويمكنني أن أتكلف حصرها في سبعين، لكن لا أثق بما يلوح لي من تحديد وحصر، إذ لا أدري أنه المراد بالحديث أم لا. أما الحصر إلى سبعمائة وسبعين ألفا فذلك لا يستقل به إلا القوة النبوية، مع أن ظاهر ظني أن هذه الأعداد مذكورة للتكثير لا للتحديد؛ وقد تجري العادة بذكر عدد ولا يراد به الحصر بل التكثير، والله أعلم بتحقيق ذلك، فذلك خارج عن الوسع. وإنما الذي يمكنني الآن أن أعرفك هذه الأقسام وبعض أصناف كل قسم فأقول:

القسم الأول

وهم المحجوبون بمحض الظلمة، وهم الملحدة الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر. وهم الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة لأنهم لا يؤمنون بالآخرة أصلا. وهؤلاء صنفان: صنف تشوَّف إلى طلب سبب لهذا العالم فأحاله إلى الطبع، والطبع عبارة عن صفة مركوزة في الأجسام حالة فيها، وهي مظلمة إذ ليس لها معرفة وإدراك ولا خبر لها من نفسها ولا مما يصدر منها، وليس لها نور يُدرَك بالبصر الظاهر أيضا. والصنف الثاني: هم الذين شُغِلوا بأنفسهم ولم يفرغوا لطلب السبب أيضا، بل عاشوا عيش البهائم، فكان حجبهم نفوسهم الكدِرة وشهواتهم المظلمة، ولا ظلمة أشد من الهوى والنفس، ولذلك قال الله تعالى:{أَفَرَأَيتَ مَن اِتَّخَذَ إِلَهَهُ هَواهُ}، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الهوى أبغض إله عُبِد في الأرض". وهؤلاء انقسموا فرقا: فرقة زعمت أن غاية الطلب في الدنيا هي قضاء الأوطار ونيل الشهوات وإدراك اللذات البهيمية من منكح ومطعم وملبس، فهؤلاء عبيد اللذة، يعبدونها ويطلبونها ويعتقدون أن نيلها غاية السعادات، رضوا لأنفسهم أن يكونوا بمنزلة البهائم، بل أخس منها. وأي ظلمة أشد من ذلك فقد حُجب هؤلاء بمحض الظلمة. وفرقة رأت أن غاية السعادات هي الغلبة والاستيلاء والقتل والسبي والأسر، وهذا مذهب الأعراب والأكراد وكثير

من الحمقى، وهم محجوبون بظلمة الصفات السبعية لغلبتها عليهم وكون إدراكها مقصود أعظم اللذات. وهؤلاء قنعوا بأن يكونوا بمنزلة السباع بل أخس. وفرقة ثالثة رأت أن غاية السعادات كثرة المال واتساع اليسار لأن المال هو آلة قضاء الشهوات كلها، وبه يحصل للإنسان الاقتدار على قضاء الأوطار. فهؤلاء همتهم جمع المال واستكثار الضياع والعقار والخيل المسومة والأنعام والحرث وكنز الدنانير تحت الأرض. فترى الواحد يجتهد طول عمره يركب الأخطار في البوادي والأسفار والبحار ويجمع الأموال ويشح بها على نفسه فضلا عن غيره، وهم المرادون بقوله عليه الصلاة والسلام: "تعس عبد الدراهم، تعس عبد الدنانير". وأي ظلمة أعظم مما يلبس[١٢] على الإنسان؟ إن الذهب والفضة حجران لا يرادان لأعيانهما، وهي إذا لم يقض بها الأوطار ولم تنفق فهي والحصباء بمثابة، والحصباء بمثابتها. وفرقة رابعة ترقت عن جهالة هؤلاء وتعاقلت، وزعمت أن أعظم السعادات في اتساع الجاه والصيت وانتشار الذكر وكثرة الأتباع ونفوذ الأمر المطاع. فتراها لا همّ لها إلا المراءاة وعِمارة مطارح أبصار الناظرين، حتى إن الواحد قد يجوع في بيته ويحتمل الضر، ويصرف ماله إلى ثياب يتجمل بها عند خروجه كي لا يُنظر إليه بعين الحقارة. وأصناف هؤلاء لا يحصون، وكلهم محجوبون عن الله تعالى بمحض الظلمة، **وهي نفوسهم المظلمة**. ولا معنى لذكر آحاد الفرق بعد وقوع التنبيه على الأجناس. ويدخل في جملة هؤلاء جماعة يقولون بلسانهم (لا إله إلا الله)، لكن ربما حملهم على ذلك خوف أو استظهار بالمسلمين وتجمل بهم أو استمداد من مالهم، أو لأجل التعصب لنصرة مذهب الآباء. فهؤلاء إذا لم تحملهم هذه الكلمة على العمل الصالح فلا تخرجهم الكلمة من الظلمات إلى النور، بل: {أَولِياؤُهُمُ الطاغوتُ يُخرِجُونَهُم مِّنَ النورِ إِلى الظُّلُماتِ}. أما من أثرت فيه الكلمة بحيث ساءته سيئته وسرته حسنته فهو خارج عن محض الظلمة وإن كان كثيرا المعصية.

القسم الثاني

طائفة حُجِبوا بنور مقرون بظلمة، وهم ثلاثة أصناف: صنف منشأ ظلمتهم من الحس، وصنف منشأ ظلمتهم من الخيال، وصنف منشأ ظلمتهم من مقايسات عقلية فاسدة.

الصنف الأول المحجوبون بالظلمة الحسية، وهم طوائف لا يخلو واحد منهم عن مجاوزة الالتفات إلى نفسه وعن التأله والتشوف إلى معرفة ربه. وأول درجاتهم عبدة الأوثان وآخرهم الثنوية، وبينهما درجات. فالطائفة الأولى عبدة الأوثان علموا على الجملة أن لهم ربا يلزمهم إيثاره على نفوسهم المظلمة، واعتقدوا أن ربهم أعز من كل شيء ولكن حجبتهم ظلمة الحس عن أن يجاوزوا العالم المحسوس فاتخذوا من أنفس الجواهر كالذهب والفضة والياقوت أشخاصا مصورة بأحسن الصور واتخذوها آلهة. فهؤلاء محجوبون بنور العزة والجمال، والعزة والجمال من صفات الله وأنواره، ولكنهم ألصقوها بالأجسام المحسوسة وصدهم عن ذلك ظلمة الحس، فإن الحس ظلمة بالإضافة إلى العالم الروحاني العقلي كما سبق. الطائفة الثانية جماعة من أقاصي الترك ليس لهم ملة ولا شريعة يعتقدون أن لهم ربا وأنه أجمل الأشياء، فإذا رأوا إنسانا في غاية الجمال أو شجرا أو فرسا أو غير ذلك سجدوا له وقالوا إنه ربنا. فهؤلاء محجوبون بنور الجمال مع ظلمة الحس، وهم أدخل في ملاحظة النور من عبدة الأوثان لأنهم يعبدون الجمال المطلق دون الشخص الخاص فلا يخصصونه بشيء، ثم يعبدون الجمال المطبوع لا المصنوع من جهتهم وبأيديهم. وطائفة ثالثة قالوا ينبغي أن يكون ربنا نورانيا في ذاته بهيا في صورته، ذا سلطان في نفسه، مهيبا في حضرته، لا يُطاق القرب منه، ولكن ينبغي أن يكون محسوسا، إذ لا معنى لغير المحسوس عندهم. ثم وجدوا النار بهذه الصفة فعبدوها واتخذوها ربا. فهؤلاء محجوبون بنور السلطنة والبهاء، وكل ذلك من أنوار الله تعالى. وطائفة رابعة زعموا أن النار نستولي عليها نحن بالإشعال والإطفاء، فهي تحت تصرفنا فلا تصلح للإلهية، بل ما يكون بهذه الصفات ولم يكن تحت

[12] لبس عليه الأمر لبسا: خلطه عليه حتى لا يعرف حقيقته (المعجم الوجيز)

تصرفنا ثم نكون نحن تحت تصرفه ويكون مع ذلك موصوفا بالعلو والارتفاع. ثم كان المشهور فيما بينهم علم النجوم وإضافة التأثيرات إليها. فمنهم من عبد الشّعرى، ومنهم من عبد المشتري إلى غير ذلك من الكواكب بحسب ما اعتقدوه في النجوم من كثرة التأثيرات. فهؤلاء محجوبون بنور العلو والإشراف والإستيلاء، وهي من أنوار الله تعالى. وطائفة خامسة ساعدت هؤلاء في المأخذ ولكن قالت لا ينبغي أن يكون ربنا موسوما بالصغر والكبر بالإضافة إلى الجواهر النورانية، بل ينبغي أن يكون أكبرها، فعبدوا الشمس وقالوا هي أكبر. فهؤلاء محجوبون بنور الكبرياء مع بقية الأنوار مقرونا بظلمة الحس. وطائفة سادسة ترقوا عن هؤلاء فقالوا النور كله لا ينفرد به الشمس بل لغيرها أنوار، ولا ينبغي للرب شريك في نورانيته فعبدوا النور المطلق الجامع لجميع أنوار العالم وزعموا أنه رب العالم والخيرات كلها منسوبة إليه. ثم رأوا في العالم شرورا فلم يستحسنوا إضافتها إلى ربهم تنزيها له عن الشر، فجعلوا بينه وبين الظلمة منازعة، وأحالوا العالم إلى النور والظلمة، وربما سموهما (يزدان) و(أهرمن)، وهم الثنوية. فيكفيك هذا القدر تنبيها على هذا الصنف، فهم أكثر من ذلك.

الصنف الثاني المحجوبون ببعض الأنوار مقرونا بظلمة الخيال، وهم الذين جاوزوا الحس، وأثبتوا وراء المحسوسات أمرا، لكن لم يمكنهم مجاوزة الخيال، فعبدوا موجودا قاعدا على العرش. وأخسهم رتبة المُجسِّمة ثم أصناف الكرامية بأجمعهم. ولا يمكنني شرح مقالاتهم ومذاهبهم فلا فائدة في التكثير. لكن أرفعهم درجة من نفى الجسمية وجميع عوارضها الا الجهة المخصوصة بجهة فوق، لأن الذي لا يُنسب إلى الجهات ولا يُوصف بأنه خارج العالم ولا داخله لم يكن عندهم موجودا إذ لم يكن متخيلا. ولم يدركوا أن أول درجات المعقولات تجاوز النسبة إلى الجهات.

الصنف الثالث المحجوبون بالأنوار الإلهية مقرونة بمقايسات عقلية فاسدة مظلمة، فعبدوا إلها سميعا بصيرا متكلما عالما قادرا مريدا حيا، منزها عن الجهات، لكن فهموا هذه الصفات على حسب مناسبة صفاتهم. وربما صرّح بعضهم فقال: (كلامه صوت وحرف ككلامنا)، وربما ترقي بعضهم فقال: (لا بل هو كحديث نفسنا ولا هو صوت ولا حرف). وكذلك إذا طولبوا بحقيقة السمع والبصر والحياة رجعوا إلى التشبيه من حيث المعنى وإن أنكروها باللفظ، إذ لم يدركوا أصلا معاني هذه الإطلاقات في حق الله تعالى. ولذلك قالوا في إرادته إنها حادثة مثل إرادتنا، وإنها طلب وقصد مثل قصدنا. وهذه مذاهب مشهورة فلا حاجة إلى تفصيلها. فهؤلاء محجوبون بجملة من الأنوار مع ظلمة المقايسات العقلية. فهؤلاء أصناف القسم الثاني الذين حُجبوا بنور مقرون بظلمة. وبالله التوفيق.

القسم الثالث

ثم المحجوبون بمحض الأنوار وهم أصناف ولا يمكن إحصاؤهم: فأشير إلى ثلاثة أصناف منهم.

الأول: طائفة عرفوا معاني الصفات تحقيقا وأدركوا أن إطلاق اسم الكلام والإرادة والقدرة والعلم وغيرها على صفاته ليس مثل إطلاقه على البشر، فتحاشوا عن تعريفه بهذه الصفات، وعرفوه بالإضافة إلى المخلوقات، كما عرّف موسى عليه السلام في جواب قول فرعون: {وَما رَبُّ العالَمينَ}، فقالوا إن الرب المقدس المنزه عن معاني هذه الصفات هو محرك السموات ومدبرها.

والصنف الثاني: ترقوا عن هؤلاء من حيث ظهر لهم أن في السموات كثرة، وأن محرك كل سماء خاصة موجود آخر يسمى مَلَكا، وفيهم كثرة، وإنما نسبتهم إلى الأنوار الإلهية نسبة الكواكب. ثم لاح لهم أن هذه السموات في ضمن فلك آخر يتحرك الجميع بحركته في اليوم والليلة مرة. فالرب هو المحرك للجرم الأقصى المنطوي على الأفلاك كلها إذ الكثرة منفية عنه.

والصنف الثالث: ترقوا عن هؤلاء وقالوا إن تحريك الأجسام بطريق المباشرة ينبغي أن يكون خدمة لرب العالمين وعبادة له وطاعة من عبد من عباده يسمى ملكا، نسبته إلى الأنوار الإلهية المحضة نسبة القمر في الأنوار المحسوسة. فزعموا أن الرب هو المطاع من جهة هذا المحرك. ويكون الرب تعالى محركا للكل بطريق الأمر لا بطريق المباشرة. ثم في تقسيم ذلك الأمر وماهيته غموض يقصر عنه أكثر الأفهام ولا يحتمله هذا الكتاب.

فهؤلاء الأصناف كلهم محجوبون بالأنوار المحضة. وإنما **الواصلون** صنف رابع تجلى لهم أيضا أن هذا "المُطاع" موصوف بصفة تُنافي الوحدانية المحضة والكمال البالغ لسر لا يحتمل هذا الكتاب كشفه، وأن نسبة هذا "المطاع" نسبة الشمس في الأنوار. فتوجهوا من الذي يحرك السموات، ومن الذي يحرك الجرم الأقصى، ومن الذي أمر بتحريكها، إلى الذي فطر السموات وفطر الجرم الأقصى وفطر الآمر بتحريكها، فوصلوا إلى موجود مُنزه عن كل ما أدركه بصر من قبلهم، فأحرقت سبحات وجهه الأول الأعلى جميع ما أدركه بصر الناظرين وبصيرتهم، فإذًا وجدوه مقدسا منزها عن جميع ما وصفناه من قبل. ثم هؤلاء انقسموا، فمنهم من احترق منه جميع ما أدركه بصره وانمحق وتلاشى، لكن بقي هو ملاحظا للجمال والقدس وملاحظا ذاته في جماله الذي ناله بالوصول إلى الحضرة الإلهية، فانمحقت فيه المُبصَرات دون المُبصَر. وجاوز هؤلاء طائفة هم خواص الخواص فأحرقتهم سبحات وجهه وغشيهم سلطان الجلال فانمحقوا وتلاشوا في ذاتهم ولم يبق لهم لحْظٌ إلى أنفسهم لفنائهم عن أنفسهم ولم يبق إلا الواحد الحق، وصار معنى قوله:{كل شيء هالك الا وجهه} لهم ذوقا وحالا. وقد أشرنا إلى ذلك في الفصل الأول، وذكرنا أنهم كيف أطلقوا الاتحاد وكيف ظنوه، فهذه نهاية الواصلين. ومنهم من لم يتدرج في الترقي والعروج على التفصيل الذي ذكرناه، ولم يَطُل عليهم الطريق فسبقوا في أول وهلة إلى معرفة القدس وتنزيه الربوبية عن كل ما يجب تنزيهه عنه، فغلب عليهم أولا ما غلب على الآخرين آخراً، وهجم عليهم التجلي دفعة، فأحرقت سبحات وجهه جميع ما يمكن أن يدركه بصر حسي وبصيرة عقلية. ويشبه أن يكون الأول طريق (الخليل) والثاني طريق الحبيب صلى الله عليه وسلم، والله أعلم بأسرار أقدامهما وأنوار مقامهما.

فهذه إشارة إلى أصناف المحجوبين، ولا يبعد أن يبلغ عددهم إذا فصلت المقالات وتتبع حجب السالكين سبعين ألفا. ولكن إذا فتشت لا تجد واحدا منها خارجا عن الأقسام التي حصرناها. فإنهم إنما يحجبون بصفاتهم البشرية، أو بالحس أو بالخيال أو بمقايسة العقل، أو بالنور المحض كما سبق. فهذا ما حضرني في جواب هذه الأسئلة، مع أن السؤال صادفني والفكر متقسم، والخاطر متشعب، والهم إلى غيرها هذا الفن منصرف، ومقترحي عليه أن يسأل الله تعالى العفو عما طغى به القلم، أو زلّت به القدم؛ فإن خوض غمرة الأسرار الإلهية خطير، واستشفاف الأنوار الإلهية من وراء الحجب البشرية عسير غير يسير.

المنقذ من الضلال
والموصل إلى ذي العزة والجلال

الفهرست

توطئة
مَدَاخِلُ السَفْسَطة وجَحْد العُلوم
القَولُ في أصْنَافِ الطَّالبْين
١ - عِلْمُ الكَلاَم: مَقْصُوده وحَاصِله
٢ — الفَلسْفَة
أَصْنَاف الفَلاَسِفةَ وشُمول وَصْمَة الكُفرِ كافَّتهمُ
أَقْسَامِ عُلومِهم
٣ - القَولُ في مَذْهَبِ التَّعلِيم وغَائِلَته
٤ - طُرُق الصُّوفِيَّة
حَقيقَة النُبُوَّة: واضطِرار كَافةِ الخَلق إليهَا
سَبَب نشر العِلْم بعَدْ الإعرَاضِ عَنه
ملاحظه عن النص والتحقيق

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي يُفتتح بحمده كل رسالة ومقالة، والصلاة على محمد المصطفى صاحب النبوة والرسالة، وعلى آله وأصحابه الهادين من الضلالة.

أما بعد:

فقد سألتني أيها الأخ في الدين، أن أبثّ إليك غاية العلوم وأسرارها، وغائلة المذاهب وأغوارها، وأحكي لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق، مع تباين المسالك والطرق، وما استجرأت عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد، إلى يفَاعِ الاستفسار، وما استفدته أولاً من علم الكلام، وما اجَتَوْيتُه[١٣] ثانياً من طرق أهل التعليم[١٤] القاصرين لَدرك الحق على تقليد الإمام، وما ازدريته ثالثاً من طرق التفلسف، وما ارتضيته آخراً من طريقة التصوف، وما انجلى لي في تضاعيف تفتيشي عن أقاويل الخلق، من لباب الحق، وما صرفني عن نشر العلم ببغداد، مع كثرة الطلبة، وما دعاني إلى معاودته بنيْسابورَ بعد طول المدة. فابتدرت لإجابتك إلى مطلبك، بعد الوقوف على صدق رغبتك، وقلت مستعيناً بالله ومتوكلاً عليه، ومستوثقاً منه، وملتجئاً إليه:

اعلموا أحسن الله تعالى إرشادكم، وألاَنَ للحق قيادكم، أن اختلاف الخلق في الأديان والملل، ثم اختلاف الأئمة في المذاهب، على كثرة الفرق وتباين الطرق، بحر عميق غرق فيه الأكثرون، وما نجا منه إلا الأقلون، وكل فريق يزعم أنه الناجي، و{كلُ حزبٍ بما لدَيهْم فرحون}[الروم: ٣٢]، هو الذي وعدنا به سيد المرسلين صلوات الله عليه، وهو الصادق الصدوق حيث قال: "ستفترق أمتي ثلاثاً وسبعين فرقة الناجية منها واحدة"[١٥]، فقد كان ما وعد أن يكون.

ولم أزل في عنفوان شبابي، وريعان عمري، منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن، وقد أناف السن على الخمسين، أقتحم لجّة هذا البحر العميق، وأخوض غَمرَتهُ خَوْضَ الجَسُور، لا خَوْضَ الجبان الحذور، وأتوغل في كل مظلمة، وأتهجّم على كل مشكلة، وأتقحم كل ورطة، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة، لأميز بين مُحق ومبطل، ومتسنن ومبتدع[١٦]، لا أغادر باطنيًّا إلا وأحب أن أطلع على باطنيته[١٧]، ولا ظاهريّاً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظاهريته، ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته، ولا متكلماً إلا وأجتهد في الإطلاع على غاية كلامه ومجادلته، ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صوفيته، ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته، ولا زنديقاً[١٨] معطلاً[١٩] إلا وأتجسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته.

وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمري وريعان عمري، غريزة وفطرة من الله وضُعتا في جِبلَّتي، لا باختياري وحيلتي، حتى انحلت عني رابطة التقليد وانكسرت علي العقائد الموروثة على قرب

---

13 يقال: اجتوى الطعام: كرهه.

14 أهل التعليم هم من يتعبون الإمام المعصوم، وقد راجت هذه الفكرة عند غلاة الشيعة الإمامية وغيرهم من فرق الباطنية

15 رواه أحمد وأبو دواد وابن ماجة والترمذي بلفظ أخر.

16 مبتدع : لغوياً مخترع واصبح اصطلاحاً على المُحدَث المكروه في الدين.

17 في ش: بطانته: أي السريرة، وهنا العقيدة الباطنة.

18 في لسان العرب: الزنديق القائل ببقاء الدهر.

19 المعطل هو الذي ينكر صفات الخالق.

عهد سن الصبا. إذ رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوءٌ إلا على التنصُر، وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا على التهود، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام. وسمعت الحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: "كل مولودٍ يولدُ على الفطرةِ فأبواهُ يُهودانه وينُصرانه ويُمجِّسَانه".[٢٠]

فتحرك باطني إلى طلب حقيقة الفطرة الأصلية، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والأستاذين[٢١]، والتمييز بين هذه التقليدات، وأوائلها تلقينات، وفي تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات. فقلت في نفسي: أولاً، إنما مطلوبي العلم بحقائق الأمور، فلا بُد من طلب حقيقة العلم ما هي؟ فظهر لي أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك. بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارِناً لليقين مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه مثلاً من يَقلِب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً، لم يورث ذلك شكاً وإنكاراً. فإني إذا علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة، فلو قال لي قائل: لا، بل الثلاثة أكثر من العشرة بدليل أني أقلب هذه العصا ثعباناً، وقلبها وشاهدت ذلك منه، لم أشك بسببه في معرفتي، ولم يحصل لي منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه! فأما الشك فيما علمته، فلا. ثم علمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه، وكل علم لا أمان معه، فليس بعلم يقيني.

١ – مَدَاخِلُ السَفْسَطة وجَحْد العُلوم

ثم فتشت عن علومي فوجدت نفسي عاطلاً من علم موصوف بهذه الصفة إلا في الحسيات والضروريات. فقلت: الآن بعد حصول اليأس، لا مطمع في اقتباس المشكلات إلا من الجليَّات، وهي الحسيات والضروريات، فلا بد من إحكامها أولاً لأتيقن أن ثقتي بالمحسوسات وأماني من الغلط في الضروريات، من جنس أماني الذي كان من قَبلُ في التقليديات، ومن جنس أمان أكثر الخلق في النظريات، أم هو أمان محققٌ لا غدر فيه ولا غائلة له؟ فأقبلت بجد بليغ أتأمل المحسوسات والضروريات، وأنظر هل يمكنني أن أشكك نفسي فيها، فانتهي بي طول التشكك إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات أيضاً، وأخذت تتسع للشك فيها وتقول: من أين الثقة بالمحسوسات، وأقواها حاسة البصر؟ وهي تنظر إلى الظل فتراه واقفاً غير متحرك، وتحكم بنفي الحركة، ثم، بالتجربة والمشاهدة، بعد ساعة تعرف أنه متحرك وأنه لم يتحرك دفعة (واحدة) بغتة، بل على التدريج ذرة ذرة ، حتى لم يكن له حالة وقوف. وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيراً في مقدار دينار، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار. وهذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه، ويكذبه حاكم العقل ويُخوِّنه تكذيباً لا سبيل إلى مدافعته.

[20] رواه أحمد والبخاري ومسلم بلفظ آخر.

[21] جمع أستاذ فارسي معرب ، ويجمع أيضاً على أساتذة وأساتيذ.

فقلت: قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضاً، فلعله لا ثقة إلا بالعقليات التي هي من الأوليات، كقولنا: العشرة أكثر من الثلاثة، والنفي والإثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد، والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً، موجوداً معدوماً، واجباً محالاً. فقالت المحسوسات: بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات وقد كنت واثقاً بي، فجاء حاكم العقل فكذبني، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي، فلعل وراء إدراك العقل حاكماً آخر، إذا تجلى كذَّب العقل في حكمه، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه، وعدم تجلي ذلك الإدراك لا يدل على استحالته. فتوقفت النفس في جواب ذلك قليلاً، وأيدت إشكالها بالمنام، وقالت: أما تراك تعتقد في النوم أموراً، وتتخيل أحوالاً، وتعتقد لها ثباتاً واستقراراً، ولا تشك في تلك الحالة فيها، ثم تستيقظ فتعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل. فبم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده في يقظتك بحس أو عقل هو حق بالإضافة إلى حالتك التي أنت فيها. لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها إلى يقظتك، كنسبة يقظتك إلى منامك، وتكون يقظتك نوماً بالإضافة إليها! فإذا وردت تلك الحالة تيقنت أن جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها، ولعل تلك الحالة ما تدعيه الصوفية أنها حالتهم. إذ يزعمون أنهم يشاهدون في أحوالهم التي لهم، إذا غاصوا في أنفسهم، وغابوا عن حواسهم، أحوالاً لا توافق هذه المعقولات. ولعل تلك الحالة هي الموت، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: "الناسُ نيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا"[٢٢]. فلعل الحياة الدنيا نوم بالإضافة إلى الآخرة، فإذا مات ظهرت له الأشياء على خلاف ما يشاهده الآن، ويقال له عند ذلك:{فكشفنا عنكَ غطاءكَ فبصرُكَ اليومَ حديدٌ}[ق: ٢٢].

فلما خطرت لي هذه الخواطر وانقدحت في النفس، حاولت لذلك علاجاً فلم يتيسر، إذ لم يكن دفعه إلا بالدليل، ولم يمكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الأولية، فإذا لم تكن مسلمة لم يمكن تركيب الدليل. فأعضل هذا الداء[٢٣]، ودام قريباً من شهرين أنا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال، لا بحكم النطق والمقال، حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف. فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله تعالى الواسعة. ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلّم عن (الشرح) ومعناه في قوله تعالى:{فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام}[الأنعام: ١٢٥]، قال: "هو نور يقذفه الله تعالى في القلب". فقيل: وما علامته؟ قال: "التجافي عن دار الغُرُورِ

---

[22] يقول في ش : أنه ليس بحديث ولكن من كلام على بن أبي طالب رضي الله عنه.

[23] هذه الحالة هي التي تسمى فترة الشك وهي غير الأزمة الروحانية التي أدت بالغزالي إلى ترك بغداد ؛ وهي الأزمة الأولى وهي بطابعها **غير** روحانية وإنما هي **معرفية**. ويرى البعض أن هذا الشك مشابه لما حصل للعالم الفرنسي رينيه ديكارت، راجع في ذلك ما كتبه أحمد شمس الدين في حاشية (المنقذ) من تحقيقه ص ٢٩، وما كتبه عبد الرحمن بدوي في مقالة بعنوان:(أوهام حول الغزالي) في كتاب **أبو حامد الغزالي: دراسات في فكره وعصره وتأثيره** ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط لعام ١٩٨٨م.

والإنابة إلى دارِ الخُلُود"[٢٤]. وهو الذي قال صلى الله عليه وسلم فيه: "إن الله تعالى خلق الخلقَ في ظُلْمةٍ ثم رشَّ عليهمْ من نُورِه"[٢٥]. فمن ذلك النور ينبغي أن يُطلب الكشف، وذلك النور ينبجس من الجود الإلهي في بعض الأحايين، ويجب الترصد له كما قال صلى الله عليه وسلّم: "إن لربكم في أيامِ دهركم نفحاتٌ ألا فتعرضُوا لها"[٢٦].

والمقصود من هذه الحكايات أن يُعمل كمال الجد في الطلب، حتى ينتهي إلى طلب ما لا يُطلب. فإن الأوليات ليست مطلوبة، فإنها حاضرة. والحاضر إذا طُلب فُقد واختفى. ومن طلب ما لا يُطلب، فلا يُتهم بالتقصير في طلب ما يطلب.

القَولُ في أصْنَافِ الطَّالبْين

ولما شفاني الله من هذا المرض بفضله وسعة جوده، أنحصرت أصناف الطالبين عندي في أربع فرق:

١. **المتكلمون**: وهم يدَّعون أنهم أهل الرأي والنظر.
٢. **الباطنية**: وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم والمخصوصون بالاقتباس من الإمام المعصوم.
٣. **الفلاسفة**: وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان.
٤. **الصوفية**: وهم يدعون أنهم خواص الحضرة وأهل المشاهدة والمكاشفة.

فقلت في نفسي: الحق لا يعدو هذه الأصناف الأربعة، فهؤلاء هم السالكون سبل طلب الحق، فإن شذَّ الحق عنهم، فلا يبقى في درك الحق مطمع، إذ لا مطمع في الرجوع إلى التقليد بعد مفارقته. ومن شرط المُقلِّد أن لا يعلم أنه مقلد، فإذا علم ذلك انكسرت زجاجة تقليده، وهو شِعب[٢٧] لا يرأب[٢٨]، وشعث[٢٩] لا يُلم بالتلفيق والتأليف، إلا أن يذاب بالنار ويستأنف له صنعة أخرى مستجدة.

فابتدرت لسلوك هذه الطرق، واستقصاء ما عند هذه الفرق. مبتدئاً بعلم الكلام. ومثنياً بطريق الفلسفة، ومثلثاً بتعلم الباطنية، ومربعاً بطريق الصوفية.

١– عِلْمُ الكَلاَم: مَقْصُوده وحَاصِله

---

24 ذكره ابن كثير في تفسيره بطرق مرسلة ومتصلة يشد بعضها بعضاً.

25 رواه أحمد والترمذي والحاكم بلفظ آخر.

26 رواه الطبراني والسيوطي في الفتح الكبير بلفظ أخر قريب، والبيهقي وأبو هريرة بلفظ آخر، وأبو نعيم عن أنس.

27 الشعب بكسر الشين المعجمة وسكون العين المهملة انفراج بين الجبلين ، والمراد هنا شق.

28 لايرأب : لايصلح.

29 شعث : ما تفرق من الأمور.

ثم إني ابتدأت بعلم الكلام، فحصَّلته وعقلته، وطالعت كتب المحققين منهم، وصنفت فيه ما أردت أن أصنف، فصادفته علماً وافياً بمقصوده، غير وافٍ بمقصودي؛ وإنما المقصود منه حفظ عقيدة أهل السنة [على أهل السنة] وحراستها عن تشويش أهل البدعة. فقد ألقى الله تعالى إلى عباده على لسان رسوله عقيدة هي الحق، على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم، كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار، ثم ألقى الشيطان في وساوس المبتدعة أموراً مخالفة للسنة، فلهجوا[30] بها وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها، فأنشأ الله تعالى طائفة المتكلمين، وحرك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب، يكشف عن تلبيسات أهل البدع المحدثة على خلاف السنة المأثورة، فمنه نشأ علم الكلام وأهله. ولقد قام طائفة منهم بما ندبهم الله تعالى إليه، فأحسنوا الذب عن السنة، والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة، والتغيير في وجه ما أُحدث من البدعة. ولكنهم اعتمدوا في ذلك على مقدمات تسلموها من خصومهم، واضطرهم إلى تسليمها إما التقليد، أو إجماع الأمة، أو مجرد القبول من القرآن والأخبار. وكان أكثر خوضهم في استخراج مناقضات الخصوم، ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم. وهذا قليل النفع في حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً (أصلاً)، فلم يكن الكلام في حقي كافياً، ولا لدائي الذي كنت أشكوه شافياً. نعم، لما نشأت صنعة الكلام وكثر الخوض فيه وطالت المدة، تشوق المتكلمون إلى محاولة الذبّ عن السنة بالبحث عن حقائق الأمور، وخاضوا في البحث عن الجواهر والأعراض[31] وأحكامها. ولكن لما لم يكن ذلك مقصود علمهم، لم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى، فلم يحصل منه ما يمحق بالكلية ظلمات الحيرة في اختلافات الخلق، ولا أبعدُ أن يكون قد حصل ذلك لغيري! بل لست أشك في حصول ذلك لطائفة ولكن حصولاً مشوباً بالتقليد في بعض الأمور التي ليست من الأوليات!

والغرض الآن حكاية حالي، لا الإنكار على من استشفى به، فإن أدوية الشفاء تختلف باختلاف الداء. وكم من دواء ينتفع به مريض ويستضر به آخر!

٢ – الفَلسْفَة

- محصولها.
- المذموم منها وما لا يُذم.
- وما يُكفَّر به قائلة وما لا يكفر به.
- وما يُبتدع فيه وما لا يبتدع.

[30] لهج بالأمر: أولع به فثابر عليه واعتاده.

[31] الجوهر: الأصل وفي المصطلح الماهية. العرض هو الذي يحتاج إلى موضع يقوم به كاللون المحتاج الى جسم يحله.

- وبيان ما سرقه الفلاسفة من كلام أهل الحق.
- وبيان ما مزجوه بكلام أهل الحق لترويج باطلهم في درج ذلك.
- وكيفية عدم قبول البشر وحصول نفرة النفوس من ذلك الحق الممزوج بالباطل.
- وكيفية استخلاص الحق الخالص من الزيف والبهرج من جملة كلامهم.

ثم إني ابتدأت ، بعد الفراغ من علم الكلام، بعلم **الفلسفة** وعلمت يقيناً، أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم، من لا يقف على منتهى ذلك العلم، حتى يساوي أعلمهم في أصل ذلك العلم، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته، فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائله، وإذا ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساده حقّاً. ولم أر أحداً من علماء الإسلام صرف عنايته وهمته إلى ذلك.

ولم يكن في كتب "المتكلمين" من كلامهم، حيث اشتغلوا بالرد عليهم، إلا كلمات معقدة مبددة، ظاهرة التناقض والفساد، لا يظن الاغترار بها بعاقل عامي، فضلاً عمن يدعي دقائق العلوم. فعلمت أن رد المذهب قبل فهمه والإطلاع على كنهه[٣٢] رمى في عماية، فشمرت عن ساق الجد، في تحصيل ذلك العلم من الكتب، بمجرد المطالعة من غير استعانة بأستاذ، وأقبلت على ذلك في أوقات فراغي من التصنيف والتدريس في العلوم الشرعية، وأنا ممنو[٣٣] بالتدريس والإفادة لثلاثمائة نفر من الطلبة ببغداد.

فأطلعني الله سبحأنه وتعالى بمجرد المطالعة في هذه الأوقات المختلسة على منتهى علومهم في أقل من سنتين. ثم لم أزل أواظب على التفكر فيه بعد فهمه قريباً من سنة، أعاوده وأردده وأتفقد غوائله وأغواره، حتى اطَّلعت على ما فيه من خداع وتلبيس، وتحقيق وتخييل، اطلاعاً لم أشك فيه.

فاسمع الآن حكايتهم وحكاية حاصل علومهم، فإني رأيتهم أصنافاً، ورأيت علومهم أقساماً، وهم على كثرة أصنافهم يلزمهم وصمة الكفر والإلحاد، وإن كان بين القدماء منهم والأقدمين، وبين الأواخر منهم والأوائل، تفاوت عظيم في البعد عن الحق والقرب منه.

أَصْنَاف الفَلاَسِفَةَ وشُمول وَصْمَة الكُفِرَ كافَّتهمُ

إعلم أنهم ، على كثرة فرقهم واختلاف مذاهبهم، ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: الدهريون، والطبيعيون، والإلهيون.

[32] كنهه : قدر الشيء ونهايته؛ يقال: بلغت كنه هذا الأمر أي غايته. (لسان اللسان).

[33] ممنو : مبتلّى به.

الصنف الأول، الدهريون: وهم طائفة من الأقدمين جحدوا الصانع المدبر، العالم القادر، وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه بلا صانع، ولم يزل الحيوان من النطفة، والنطفة من الحيوان، كذلك كان، وكذلك يكون أبداً. **وهؤلاء هم الزنادقة.**

والصنف الثاني، الطبيعيون: وهم قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة، وعن عجائب الحيوان والنبات، وأكثروا الخوض في علم تشريح أعضاء الحيوانات، فرأوا فيها من عجائب صنع الله تعالى وبدائع حكمته، مما اضطروا معه إلى الاعتراف بفاطر حكيم، مطلع على غايات الأمور ومقاصدها. ولا يطالع التشريح وعجائب منافع الأعضاء مطالع إلا ويحصل له هذا العلم الضروري بكمال تدبير الباني لبنية الحيوان، لا سيما بنية الإنسان. إلا أن هؤلاء، لكثرة بحثهم عن الطبيعة، ظهر عندهم لاعتدال المزاج تأثير عظيم في قوام قوى الحيوان به. فظنوا أن القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه أيضاً، وأنها تبطل ببطلان مزاجه فتنعدم، ثم إذا انعدمت، فلا يعقل إعادة المعدوم كما زعموا. فذهبوا إلى أن النفس تموت ولا تعود، فجحدوا الآخرة، وأنكروا الجنة والنار، والحشر والنشر، والقيامة والحساب، فلم يبق عندهم للطاعة ثواب، ولا للمعصية عقاب، فانحل عنهم اللجام وأنهمكوا في الشهوات إنهماك الأنعام. **وهؤلاء أيضاً زنادقة** لأن أصل الإيمان هو الإيمان بالله واليوم الآخر. وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر، وإن آمنوا بالله وصفاته.

والصنف الثالث، الإلهيون: وهم المتأخرون منهم، مثل سقراط[٣٤]، وهو أستاذ أفلاطون، وأفلاطون[٣٥] أستاذ أرسطاطاليس. وأرسطاطاليس[٣٦] هو الذي رتب لهم المنطق، وهذَّب لهم العلوم، وحرّر لهم ما لم يكن محرراً من قبلُ ، وأنضَجَ لهم ما كان فِجّاً من علومهم، وهم بجملتهم ردوا على الصنفين الأولين من الدهرية والطبيعية، وأوردوا في الكشف عن فضائحهم ما أغنوا به غيرهم. وكفى الله المؤمنين القتال بتقاتلهم. ثم رد أرسطاطاليس على أفلاطون وسقراط ومن كان قبلهم من الإلهيين ردّاً لم يقصر فيه حتى تبرأ عن جميعهم، إلا أنه استبقى أيضاً من رذائل كفرهم وبدعتهم بقايا لم يوفق للنزوع عنها، فوجب تكفيرهم، وتكفير شيعتهم من المتفلسفة الإسلاميين، كابن سينا[٣٧]

---

[34] فليسوف يوناني (٤٦٩-٣٩٩ ق. م.) ادعى أنه لا يعلم شيء، وليس له آثار مكتوبة وكل ما عندنا ما سجله تلميذه أفلاطون من محدثاته. رفعت المحكمة اليونانية دعوة ضده بتهمة افساد الشباب وأعدمته بالسم.

[35] فليسوف يوناني (٤٢٧-٣٤٧ ق.م.) تلميذ سقراط سجل محدثات أستاذه، وأسس مدرسة للفلسفة سماها الأكادمية، جرب الدور السياسي في سركيوز (ايطاليا) ثم رجع إلى عاصمة اليونان أثنيا عندما تغير الوضع السياسي حوله ، قال مبرراً لذلك أنه لا يريد أن تتكرر الجريمة ضد الفلسفة مشيراً إلى حادثة إعدام سقراط. من أهم أعماله كتاب الجمهورية.

[36] فليسوف مقدوني (٤٢٧-٣٤٧ ق.م.) تلميذ أفلاطون، دَرس في مدرسته عشرون عاماً، ثم رجع إلى بلده ليكون مدرساً للإسكندر المقدوني، ثم عاد إلى أثنيا وأسس مدرسة سماها الليسيم، بعد وفاة أفلاطون، وبحث فيها مع تلاميذه شتى أنواع المعرفة واستمرت بعد مماته بسنوات عديدة. ثم اضطر مغادرة أثنيا عندما توفى الاسكندر وضعف أمر المقدونيين. تلاميذه اشتهروا (بالمشائين) لأنه كانت عادة المعلم أن يمشي وهو يلقي المحاضرة. من أشهر المعلقين على أعماله الفليسوف ابن رشد القرطبي الحفيد المعروف بـ"المعلق" الذي ازدهر بعد الغزالي بمائة عام. هذب علم النطق وكتب في الاخلاق والنفس وما وراء الطبيعة، واعماله السياسية لم تصل العرب واكتفوا بما كتب افلاطون.

[37] هو أبو الحسين علي ابن سينا (٣٧٠-٤٢٨ هـ) (فارسي الأصل) الطبيب والفليسوف، صاحب كتاب (القانون في الطب) وكتاب (الشفا) وكتاب (النجاة) في الفلسفة.

والفارابي[٣٨] و غيرهم. على أنه لم يقم بنقل علم أرسطاطاليس أحد من متفلسفة الإسلاميين كقيام هذين الرجلين. وما نقله غيرهما ليس يخلو من تخبيط وتخليط يتشوش فيه قلب المطالع حتى لا يفهم. وما لا يُفهم كيف يُرد أو يقبل؟ ومجموع ما صح عندنا من فلسفة أرسطاطاليس، بحسب نقل هذين الرجلين، ينحصر في ثلاثة أقسام:

١. قسم يجب التفكير به.
٢. وقسم يجب التبديع به.
٣. وقسم لا يجب إنكاره أصلاً فلنفصله.

أَقْسَامِ عُلومِهم

إعلم أن علومهم، بالنسبة إلى الغرض الذي نطلبه، ستة أقسام: رياضية، ومنطقية، وطبيعية، وإلهية، وسياسية، وخلقية.

١ – أما الرياضية: فتتعلق بعلم الحساب والهندسة وعلم هيئة العالم[٣٩]، وليس يتعلق شيء منها بالأمور الدينية نفياً وإثباتاً، بل هي أمور برهانية لا سبيل إلى مجاحدته بعد فهمها ومعرفتها. وقد تولدت منها آفتان: احداهما الأولى: أن من ينظر فيها يتعجب من دقائقها ومن ظهور براهينها، فيَحْسُن بسبب ذلك اعتقاده في الفلاسفة، ويحسب أن جميع علومهم في الوضوح وفي وثاقة البرهان كهذا العلم. ثم يكون قد سمع من كفرهم وتعطيلهم وتهاونهم بالشرع ما تناولته الألسن فيكفر بالتقليد المحض، ويقول: لو كان الدين حقاً لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم في هذا العلم! فإذا عرف بالتسامع كفرهم وجحدهم، استدل على أن الحق هو الجحد والإنكار للدين. وكم رأيت ممن يضل عن الحق بهذا العذر ولا مستند له سواه! وإذا قيل له: الحاذق في صناعة واحدة ليس يلزم أن يكون حاذقاً في كل صناعة، فلا يلزم أن يكون الحاذق في الفقه والكلام حاذقاً في الطب، ولا أن يكون الجاهل بالعقليات جاهلاً بالنحو، بل لكل صناعة أهل بلغوا فيها رتبة البراعة والسبق، وإن كان الحمق والجهل قد يلزمهم في غيرها. فكلام الأوائل في الرياضيات برهاني، وفي الإلهيات تخميني، لا يعرف ذلك إلا من جرّبه وخاض فيه. فهذا إذا قرر على هذا الذي ألحَدَ بالتقليد، لم يقع منه موقع القبول، بل تحمله غلبة الهوى، والشهوة الباطلة، وحب التكايس، على أن يصر على تحسين الظن بهم في العلوم كلها. فهذه آفة عظيمة لأجلها يجب زجر كل من يخوض في تلك العلوم، فإنها وإن لم تتعلق بأمر الدين، ولكن لما كانت من مبادئ علومهم، سرى إليه شرهم وشؤمهم، فقَل من يخوض فيها إلا وينخلع من الدين وينحل عن رأسه لجام التقوى.

[38] أبو نصر الفارابي (٢٦٠-٣٣٩هـ) الفليسوف (تركي الأصل) المشهور صاحب كتاب الموسيقى الكبير وكتب في الفلسفة. زعم ابن سينا أنه لم يفهم ارسطو حتى قرأ شرحه الذى ألفه الفارابي. لم يشتهر في عصره، ولكنه اشتهر بعد ابن سينا.

[39] المقصود: الفلك.

الآفة الثانية: نشأت من صديق للإسلام جاهل، ظن أن الدين ينبغي أن يُنصر بإنكار كل علم منسوب إليهم، فأنكر جميع علومهم وادعى جهلهم فيها، حتى أنكر قولهم في الكسوف والخسوف، وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع. فلما قرع ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان القاطع، لم يشك في برهانه، ولكن اعتقد أن الإسلام مبني على الجهل وإنكار البرهان القاطع، فيزداد للفلسفة حبّاً وللإسلام بغضاً. ولقد عظُم على الدين جناية من ظن أن الإسلام يُنصر بإنكار هذه العلوم، وليس في الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفي والإثبات، ولا في هذه العلوم تعرض للأمور الدينية. وقوله صلى الله عليه وسلّم: "إن الشمس والقمر آيتان من آياتِ الله تعالى لا ينخسفانِ لموتِ أحدٍ ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله تعالى وإلى الصلاة"[40]. وليس في هذا ما يوجب إنكار علم الحساب المعرف بمسير الشمس والقمر واجتماعهما أو مقابلهما على وجه مخصوص. أما قوله عليه الصلاة والسلام: "لكن الله إذا تجلى لشيءْ خضع لهُ"، فليس توجد هذه الزيادة في الصحاح أصلاً. فهذا حكم الرياضيات وآفتها.

٢ – وأما المنطقيات: فلا يتعلق شيء منها بالدين نفياً وإثباتاً، بل هي النظر في طرق الأدلة والمقاييس وشروط مقدمات البرهان وكيفية تركيبها، وشروط الحد الصحيح وكيفية ترتيبه، وأن العلم إما تصور وسبيل معرفته الحد، وإما تصديق وسبيل معرفته البرهان. وليس في هذا ما ينبغي أن يُنكَر، بل هو من جنس ما ذكره المتكلمون وأهل النظر في الأدلة، وإنما يفارقونهم بالعبارات والاصطلاحات، بزيادة الاستقصاء في التعريفات والتشعيبات، ومثال كلامهم فيها قولهم: إذا ثبت أن كل (أ) (ب)، لزم أن بعض (ب) (أ)، أي إذا ثبت أن كل إنسان حيوان، لزم أن بعض الحيوان إنسان. ويعبرون عن هذا بأنه الموجبة الكلية تنعكس موجبة جزئية. وأي تعلق لهذا بمهمات الدين حتى يُجحد ويُنكر؟ فإذا أُنكر لم يحصل من إنكاره عند أهل المنطق إلا سوء الاعتقاد في عقل المُنكِر، بل في دينه الذي يزعم أنه موقوف على مثل هذا الإنكار. نعم، لهم نوع من الظلم في هذا العلم، وهو أنهم يجمعون للبرهان شروطاً يُعلم أنها تورث اليقين لا محالة، لكنهم عند الانتهاء إلى المقاصد الدينية ما أمكنهم الوفاء بتلك الشروط، بل تساهلوا غاية التساهل. وربما ينظر في المنطق أيضاً من يستحسنه ويراه واضحاً، فيظن أن ما يُنقل عنهم من الكفريات مؤيد بمثل تلك البراهين، فاستعجل بالكفر قبل الانتهاء إلى العلوم الإلهية. فهذه الآفة أيضاً متطرقة إليه.

٣ – وأما علم **الطبيعيات**: فهو بحث عن عالم السماوات وكواكبها وما تحتها من الأجسام المفردة، كالماء والهواء والتراب والنار، وعن الأجسام المركبة، كالحيوان والنبات والمعادن، وعن أسباب تغيرها واستحالتها وامتزاجها. وذلك يضاهي بحث الطب عن جسم الإنسان وأعضائه الرئيسة والخادمة، وأسباب استحالة مزاجه. وكما ليس من شرط الدين إنكار علم الطب، فليس من شرطه أيضاً إنكار ذلك العلم إلا في مسائل معينة، ذكرناها في كتاب "تهافت الفلاسفة"، وما عداها مما يجب المخالفة فيها. فعند التأمل يتبين أنها مندرجة تحتها، وأصل جملتها أن تعلم

[40] روي هذا الحديث بأسانيد وطرق مختلفة. يوجد في البخاري وأحمد والنسائي وابن ماجة ومالك.

أن الطبيعة مسخرة لله تعالى لا تعمل بنفسها، بل هي مستعملة من جهة فاطرها. والشمس والقمر والنجوم والطبائع مسخرات بأمره لا فعل لشيءٍ منها بذاته عن ذاته.

٤ – **وأما الإلهيات**: ففيها أكثر أغاليطهم، فما قدروا على الوفاء بالبرهان على ما شرطوه في المنطق، ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيها. ولقد قرب مذهب أرسطاطاليس فيها من مذاهب الإسلاميين، على ما نقله الفارابي وابن سينا. ولكن مجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلاً ، يجب تكفيرهم في ثلاثة منها، وتبديعهم في سبعة عشر. ولإبطال مذهبهم في هذه المسائل العشرين صنفنا كتاب "التهافت".

أما المسائل الثلاث، فقد خالفوا فيها كافة الإسلاميين وذلك في قولهم:

١ – أن الأجساد لا تحشر، وإنما المُثاب والمعاقَب هي الأرواح المجردة، والمثوبات والعقوبات روحانية لا جسمانية. ولقد صدقوا في إثبات الروحانية، فإنها ثابتة أيضاً، ولكن كذبوا في إنكار الجسمانية، وكفروا بالشريعة فيما نطقوا به.

٢ – ومن ذلك قولهم: "إن الله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات". وهذا أيضاً كفر صريح، بل الحق أنه:{لا يعزب عنه مثقال ذرةٍ في السمواتِ ولا في الأرضِ}[سبأ: ٣].

٣ – ومن ذلك قولهم بقدم العالم وأزليته فلم يذهب أحد من المسلمين إلى شيء من هذه المسائل.

وأما ما وراء ذلك من نفيهم الصفات، وقولهم إنه عالِم بالذات، لا بعلم زائد على الذات، وما يجري مجراه، فمذهبهم فيها قريب من مذهب المعتزلة ولا يجب تكفير المعتزلة بمثل ذلك. وقد ذكرنا في كتاب "فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة" ما يتبين به فساد رأي من يتسارع إلى التكفير في كل ما يخالف مذهبه.

٤ – وأما **السياسيات**: فجميع كلامهم فيها يرجع إلى الحكم المصلحية المتعلقة بالأمور الدنيوية والإيالة السلطانية ، وإنما أخذوها من كتب الله المنزلة على الأنبياء ، ومن الحكم المأثورة عن سلف الأنبياء عليهم السلام.

٥ – وأما **الخلقية**: فجميع كلامهم فيها يرجع إلى حصر صفات النفس وأخلاقها، وذكر أجناسها وأنواعها وكيفية معالجتها ومجاهدتها، وإنما أخذوها من كلام الصوفية، وهم المتألهون المواظبون على ذكر الله تعالى وعلى مخالفة الهوى وسلوك الطريق إلى الله تعالى بالإعراض عن ملاذِّ الدنيا. وقد انكشف لهم في مجاهدتهم من أخلاق النفس وعيوبها وآفات أعمالها ما صرحوا بها، فأخذها الفلاسفة ومزجوها بكلامهم، توسلاً بالتجمل بها إلى ترويج باطلهم. ولقد كان في عصرهم، بل في كل عصر، جماعة من المتألهين، لا يُخلي الله سبحانه العالم عنهم، فأنهم أوتاد الأرض، ببركاتهم تنزل الرحمة على أهل الأرض كما ورد في الخبر، حيث قال صلى الله عليه وسلّم: "بهم تمطرون وبهم ترزقون ومنهم كان أصحاب الكهف"[٤١]، وكانوا في سالف الأزمنة، على ما نطق به القرآن. فتولد من مزجهم كلام النبوة وكلام الصوفية بكتبهم آفتان: آفة في حق القابل وآفة في حق الراد:

١ – أما الآفة التي في حق الراد فعظيمة: إذ ظنت طائفة من الضعفاء أن ذلك الكلام إذا كان مُدوَّناً في كتبهم، وممزوجاً بباطلهم، ينبغي أن يُهجر ولا يُذكر بل يُنكر على كل من يذكره، إذ لم يسمعوه أولاً إلا منهم، فسبق إلى

[41] الحديث ليس له تخريج .

عقولهم الضعيفة أنه باطل، لأن قائله مُبطل؛ كالذي يسمع من النصراني قوله: "لا إله إلا الله عيسى رسول الله"، فينكره ويقول: "هذا كلام النصارى"، ولا يتوقف ريثما يتأمل أن النصراني كافر باعتبار هذا القول، أو باعتبار إنكاره نبوة محمد عليه الصلاة والسلام!؟ فإن لم يكن كافراً إلا باعتبار إنكاره، فلا ينبغي أن يُخالَف في غير ما هو به كافر مما هو حق في نفسه، وإن كان أيضاً حقاً عنده. وهذه عادة ضعفاء العقول، يُعرِّفون الحق بالرجال، لا الرجال بالحق. والعاقل يقتدي بسيد العقلاء علي رضي الله عنه[42] حيث قال: "لا تعرف الحق بالرجال بل اعرف الحق تعرف أهله". والعارف العاقل يعرف الحق، ثم ينظر في نفس القول: فإن كان حقاً، قبله سواء كان قائله مبطلاً أو محقاً. بل ربما يحرص على انتزاع الحق من أقاويل أهل الضلال، عالماً بأن معدن الذهب الرغام. ولا بأس على الصراف إن أدخل يده في كيس القلاب[43]، وانتزع الإبريز الخالص من الزيف والبهرج، مهما كان واثقاً ببصيرته. وإنما يُزجر عن معاملة القلاب القرويُّ دون الصيرفي البصير، ويُمنع من ساحل البحر الأخرقُ دون السباح الحاذق، ويُصد عن مس الحية الصبي دون المعزِّم البارع.

ولعمري! لما غلب على أكثر الخلق ظنهم بأنفسهم الحذاقة والبراعة، وكمال العقل وتمام الآلة في تمييز الحق عن الباطل، والهدى عن الضلالة، وجب حسم الباب في زجر الكافة عن مطالعة كتب أهل الضلال ما أمكن، إذ لا يسلمون عن الآفة الثانية التي سنذكرها أصلاً وإن سلموا عن هذه الآفة التي ذكرناها.

ولقد اعترض على بعض الكلمات المبثوثة في تصانيفنا في أسرار علوم الدين طائفة من الذين لم تستحكم في العلوم سرائرهم، ولم تنفتح إلى أقصى غايات المذاهب بصائرهم، وزعمت أن تلك الكلمات من كلام الأوائل، مع أن بعضها من مولدات الخواطر –ولا يبعد أن يقع الحافر على الحافر– وبعضها يوجد في الكتب الشرعية، وأكثرها موجود معناه في كتب الصوفية. وهب أنها لم توجد إلا في كتبهم، فإذا كان ذلك الكلام معقولاً في نفسه، مؤيداً بالبرهان، ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة، فلمَ ينبغي أن يُهجر ويُترك؟ فلو فتحنا هذا الباب، وتطرقنا إلى أن يُهجر كل حق سبق إليه خاطر مُبطِل، للزمنا أن نهجر كثيراً من الحق، ولزمنا أن نهجر جملة آيات من آيات القرآن وأخبار الرسول صلى الله عليه وسلّم وحكايات السلف وكلمات الحكماء والصوفية، لأن صاحب كتاب "إخوان الصفا" أوردها في كتابه مستشهداً بها ومستدرجاً قلوب الحمقى بواسطتها إلى باطله. ويتداعى ذلك إلى أن يستخرج المبطِلون الحق من أيدينا بإيداعهم إياه كتبهم. وأقل درجات العالِم أن يتميز عن العامي الغُمْر[44]، فلا يعاف العسل، وإن وجده في محجمة الحجَّام ويتحقق أن المحجمة لا تغير ذات العسل، فإن نفرة الطبع عنه مبنية على جهل عامي منشؤه أن المحجمة إنما صنعت للدم المستقذَر، فيظن أن الدم مستقذر لكونه في المحجمة، ولا

[42] الإمام علي كرم الله وجهه ، هو ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم تزوج ابنته فاطمة الزهراء ووالد الحسن والحسين و رابع الخلفاء الراشدون وهو إمامٌ في الفقه والحكمة والعدل؛ اتفقت جميع الملل على فضله وله مكارم ومحاسن كثيرة ليس هذا مقام ذكرها رضي الله عنه.

[43] المحتال بتغيير الأمور (المعجم الوجيز)

[44] غير المجرب (المعجم الوجيز)

يدري أنه مستقذر لصفة في ذاته، فإذا عدِمت هذه الصفة في العسل فكونه في ظرفه لا يكسبه تلك الصفة، فلا ينبغي أن يوجب له الاستقذار، وهذا وهم باطل، وهو غالب على أكثر الخلق. فإذا نسبت الكلام وأسندته إلى قائل حَسُن فيه اعتقادهم قبلوه وإن كان باطلاً، وإن أسندته إلى من ساء فيه اعتقادهم ردوه وإن كان حقاً. فأبداً يعرفون الحق بالرجال ولا يعرفون الرجال بالحق، وهو غاية الضلال! هذه آفة الرد.

٢ – **والآفة الثانية آفة القبول**: فإن من نظر في كتبهم "كإخوان الصفا" وغيره، فرأى ما مزجوه بكلامهم من الحكم النبوية، والكلمات الصوفية، ربما استحسنها وقبِلها، وحَسُن اعتقاده فيها، فيسارع إلى قبول باطلهم الممزوج به، لحسن ظن حصل فيما رآه واستحسنه، وذلك نوع استدراج إلى الباطل. ولأجل هذه الآفة يجب الزجر عن مطالعة كتبهم لما فيها من الغدر والخطر. وكما يجب صون من لا يحسن السباحة على مزالق الشطوط، يجب صون الخلق عن مطالعة تلك الكتب. وكما يجب صون الصبيان عن مس الحيَّات، يجب صون الأسماع عن مختلط الكلمات، فكذلك يجب على العالم الراسخ مثله. وكما أن المعرِّم الحاذق إذا أخذ الحية وميز بين الترياق والسم ، واستخرج منها الترياق وأبطل السم فليس له أن يشح بالترياق على المحتاج إليه، وكذا الصراف الناقد البصير إذا أدخل يده في كيس القَلاّب وأخرج منه الإبريز الخالص وأّرح الزيف والبهرج، فليس له أن يشح بالجيد المرضي على من يحتاج إليه، فكذلك العالم. وكما أن المحتاج إلى الترياق إذا اشمأزت نفسه منه، حيث علم أنه مستخرج من الحية التي هي مركز السم وجب تعريفه، والفقير المضطر إلى المال، إذا نفر عن قبول الذهب المستخرج من كيس القلاّب، وجب تنبيهه على أن نفرته جهل محض هو سبب حرمانه الفائدة التي هي مطلبه، وتحتم تعريفه أن قرب الجوار بين الزيف والجيد لا يجعل الجيد زيفاً، كما لا يجعل الزيف جيداً، فكذلك قرب الجوار بين الحق الباطل لا يجعل الحق باطلاً ، كما لا يجعل الباطل حقاً.

فهذا (مقدار) ما أردنا ذكره من آفة الفلسفة وغائلتها.

٣ – القَولُ في مَذْهَبِ التَّعلِيم وغَائِلَته

ثم إني لما فرغت من علم الفلسفة وتحصيله وتفهمه وتزييف ما يزيف منه، علمت أن ذلك أيضاً غير وافٍ بكمال الغرض، وأن العقل ليس مستقلاً بالإحاطة بجميع المطالب، ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات. وكان قد نبغت نابغة التعليمية، وشاع بين الخلق تحدثهم بمعرفة معنى الأمور من جهة الإمام المعصوم القائم بالحق، فعنّ لي أن أبحث في مقالاتهم، لأطّلع على ما في كنانتهم. ثم اتفق أن ورد عليّ أمر جازم من حضرة الخلافة، بتصنيف كتاب يكشف عن حقيقة مذهبهم. فلم يسعني مدافعته وصار ذلك مستحثاً من خارج، ضميمة للباعث من الباطن، فابتدأت بطلب كتبهم وجمع مقالاتهم. وكذلك قد بلغني بعض كلماتهم المستحدثة التي ولدتها خواطر أهل العصر، لا على المنهاج المعهود من سلفهم. فجمعت تلك الكلمات، ورتبتها ترتيباً محكماً مقارناً للتحقيق، واستوفيت

الجواب عنها، حتى أنكر بعض أهل الحق مني مبالغتي في تقرير حجتهم، فقال: هذا سعي لهم، فإنهم كانوا يعجزون عن نصرة مذهبهم بمثل هذه الشبهات لولا تحقيقك لها، وترتيبك إياها. وهذا الإنكار من وجه حق، فقد أنكر أحمد بن حنبل على الحارث المحاسبي رحمهما الله تصنيفه في الرد على المعتزلة، فقال الحارث: الرد على البدعة فرض. فقال أحمد: نعم ، ولكن حكيت شبهتهم أولاً ثم أجبت عنها، فبمَ تأمن أن يطالع الشبهة من يعلق ذلك بفهمه، ولا يلتفت إلى الجواب، أو ينظر في الجواب ولا يفهم كنهه؟.

وما ذكره أحمد بن حنبل حق، ولكن في شبهة لم تنتشر ولم تشتهر. فأما إذا انتشرت، فالجواب عنها واجب ولا يمكن الجواب عنها إلا بعد الحكاية. نعم، ينبغي أن لا يُتكلف لهم شبهة لم يتكلفوها، ولم أتكلف أنا ذلك، بل كنت قد سمعت تلك الشبهة من واحد من أصحابي المختلفين إلي بعد أن كان قد التحق بهم، وانتحل مذهبهم، وحكى أنهم يضحكون على تصانيف المصنفين في الرد عليهم بأنهم لم يفهموا بعد حجتهم. ثم ذكر تلك الحجة وحكاها عنهم، فلم أرض لنفسي أن يُظن في الغفلة عن أصل حجتهم، فلذلك أوردتها، ولا أن يُظن بي أني –وإن سمعتها– لم أفهمها فلذلك قررتها. والمقصود أني قررت شبهتهم إلى أقصى الإمكان، ثم أظهرت فسادها بغاية البرهان.

والحاصل: أنه لا حاصل عند هؤلاء، ولا طائل لكلامهم. ولولا سوء نصرة الصديق الجاهل، لما انتهت تلك البدعة، مع ضعفها، إلى هذه الدرجة. ولكن شدة التعصب، دعت الذابين عن الحق إلى تطويل النزاع معهم في مقدمات كلامهم، وإلى مجاحدتهم في كل ما نطقوا به، فجاحدوهم في دعواهم: الحاجة إلى التعليم والمعلم. وفي دعواهم أنه: لا يصلح كل معلم، بل لا بد من معلم معصوم. وظهرت حجتهم في إظهار الحاجة إلى التعليم والمعلم، وضعف قول المنكرين في مقابلته، فاغتر بذلك جماعة وظنوا أن ذلك من قوة مذهبهم وضعف مذهب المخالفين لهم، ولم يفهموا أن ذلك لضعف ناصر الحق وجهله بطريقه، بل الصواب الاعتراف بالحاجة إلى المعلم، وأنه لا بد وأن يكون المعلم معصوماً، ولكن معلمنا المعصوم هو **محمد** صلى الله عليه وسلّم، فإذا قالوا: هو ميت، فنقول: ومعلمكم غائب، فإذا قالوا: معلمنا قد علم الدعاة وبثهم في البلاد، وهو ينتظر مراجعتهم إن اختلفوا أو أشكل عليهم مشكل. فنقول: ومعلمنا قد علم الدعاة وبثهم في البلاد وأكمل التعليم إذ قال الله تعالى:{اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكمْ نعمتي}[المائدة: ٣]. وبعد كمال التعليم لا يضر موت المعلم كما لا يضر غيبته. فبقي قولهم: كيف تحكمون فيما لم تسمعوه؟ أبالنص ولم تسمعوه، أم بالإجتهاد والرأي وهو مظنة الخلاف؟ فنقول: نفعل ما فعله معاذ إذ بعثه رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى اليمن: أن نحكم بالنص، عند وجود النص وبالإجتهاد عند عدمه[٤٥]. بل كما يفعله دعاتهم إذا بعدوا عن الإمام إلى أقاصي البلاد، إذ لا يمكنه أن يحكم بالنص فإن النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع غير المتناهية، ولا يمكنه الرجوع في كل واقعة إلى بلدة الإمام، وأن يقطع المسافة ويرجع فيكون المستفتي قد مات، وفات الانتفاع بالرجوع. فمن أشكلت عليه القبلة ليس له طريق إلا أن يصلي بالاجتهاد،

[45] رواه أبو دواد والترمذي وأحمد.

إذ لو سافر إلى بلدة الإمام لمعرفة القبلة، فيفوت وقت الصلاة. فإذن جازت الصلاة إلى غير القبلة بناء على الظن. ويقال: إن المخطيء في الاجتهاد له أجرٌ واحدٌ وللمُصيبِ أجران[٤٦]. فكذلك في جميع المجتهدات، وكذلك أمر صرف الزكاة إلى الفقير، فربما يظنه فقيراً باجتهاده وهو غني باطناً بإخفائه ماله، فلا يكون مؤاخذاً به وإن أخطأ، لأنه لم يؤاخَذ إلا بموجب ظنه. فإن قال: ظن مُخالِفِه كظنه، فأقول: هو مأمور باتباع ظن نفسه، كالمجتهد في القبلة يتبع ظنه وإن خالفه غيره. فإن قال: فالمقلد يتبع أبا حنيفة والشافعي رحمهما الله أم غيرهما. فأقول: فالمقلد في القبلة عند الاشتباه في معرفة الأفضل الأعلم بدلائل القبلة، فيتبع ذلك الاجتهاد، فكذلك في المذاهب. فردّ الخلق إلى الاجتهاد –ضرورة– الأنبياءُ والأئمة مع العلم بأنهم قد يخطئون، بل قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: "أنا أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر". أي أنا أحكم بغالب الظن الحاصل من قول الشهود، وربما أخطأوا فيه. ولا سبيل إلى الأمن من الخطأ للأنبياء في مثل هذه المجتهدات، فيكف يُطمع في ذلك؟

ولهم ها هنا سؤالان: أحدهما قولهم: هذا وإن صح في المجتهدات فلا يصح في قواعد العقائد، إذ المخطئ فيه غير معذور، فكيف السبيل إليه؟ فأقول: قواعد العقائد يشتمل عليها الكتاب والسنة، وما وراء ذلك من التفصيل، والمتنازع فيه، يُعرف الحق فيه بالوزن بالقسطاس المستقيم. وهي الموازين التي ذكرها الله تعالى في كتابه، وهي خمسة ذكرتها في كتاب "القسطاس المستقيم". فإن قال: خصومك يخالفونك في ذلك الميزان. فأقول: لا يُتصور أن يُفهم ذلك الميزان ثم يُخالف فيه، إذ لا يخالف فيه أهل التعليم، لأني استخرجته من القرآن وتعلمته منه، ولا يخالف فيه أهل المنطق، لأنه موافق لما شرطوه في المنطق وغير مخالف له، ولا يخالف فيه المتكلم لأنه موافق لما يذكره في أدلة النظريات وبه يُعرف الحق في الكلاميات. فإن قال: فإن كان في يدك مثل هذا الميزان فلمَ لا ترفع الخلاف بين الخلق؟ فأقول: لو أصغوا إلي لرفعت الخلاف بينهم، وذكرت طريق رفع الخلاف في كتاب "القسطاس المستقيم"، فتأمله لتعلم أنه حق وأنه يرفع الخلاف قطعاً لو أصغوا، ولا يصغون إليه بأجمعهم! بل قد أصغى إلي طائفة فرفعت الخلاف بينهم. وإمامك يريد رفع الخلاف بينهم مع عدم إصغائهم، فلمَ لم يُرفع إلى الآن؟... فإن قال: ادعيت أنك ترفع الخلاف بين الخلق ولكن المتحير بين المذاهب المتعارضة، والاختلافات المتقابلة، لم يلزمه الإصغاء إليك دون خصمك، وأكثر الخصوم يخالفونك، ولا فرق بينك وبينهم.

وليس المقصود الآن بيان فساد مذهبهم، بل المقصود أن هؤلاء ليس معهم شيء من الشفاء المنجي من ظلمات الآراء، بل هم مع عجزهم عن إقامة البرهان على تعيين الإمام، طال ما جاريناهم فصدقناهم في الحاجة إلى التعليم وإلى المعلم المعصوم وأنه الذي عينوه، ثم سألناهم عن العلم الذي تعلموه من هذا المعصوم وعرضنا عليهم إشكالات فلم يفهموها فضلاً عن القيام بحلّها! فلما عجزوا أحالوا على الإمام الغائب، وقالوا: أنه لا بد من السفر إليه. والعجب أنهم ضيعوا عمرهم في طلب المعلم وفي التبجح بالظفر به، ولم يتعلموا منه شيئاً أصلاً ، كالمتضمّخ[٤٧]

---

[46] رواه مسلم والبخاري وأبو دواد وابن ماجة والترمذي والنسائي (اي الستة) وأحمد.

[47] التضمخ: التلطخ ، يقال في الطِيب.

بالنجاسة، يتعب في طلب الماء حتى إذا وجده لم يستعمله، وبقي متضمخاً بالخبائث. ومنهم من ادعى شيئاً من علمهم، فكان حاصل ما ذكره شيئاً من ركيك فلسفة فيثاغورس، وهو رجل من قدماء الأوائل، ومذهبه أرك[٤٨] مذاهب الفلسفة ، وقد رد عليه أرسطاطاليس، بل استركَّ كلامه واسترذله، وهو المحكي في كتاب "إخوان الصفا"، وهو على التحقيق حشو الفلسفة. فالعجب ممن يتعب طول العمر في تحصيل العلم ثم يقنع بمثل ذلك العلم الركيك المستغث، ويظن بأنه ظفر بأقصى مقاصد العلوم! فهؤلاء أيضاً جربناهم وسبرنا ظاهرهم وباطنهم، فرجع حاصلهم إلى استدراج العوام، وضعفاء العقول ببيان الحاجة إلى المعلم، ومجادلتهم في إنكارهم الحاجة إلى التعليم بكلام قوي مفحم، حتى إذا ساعدهم على الحاجة إلى المعلم مساعد، وقال: هات علمه وأفدنا من تعليمه! وقف وقال: الآن إذا سلمت لي هذا فاطلبه، فإنما غرضَي هذا القدر فقط. إذ علم أنه لو زاد على ذلك لافتضح ولعجز عن حل أدنى الإشكالات، بل عجز عن فهمه، فضلاً عن جوابه. فهذه حقيقة حالهم فأخبرهم تَقْلُهم[٤٩] فلما خبرناهم نفضنا اليد عنهم أيضاً.

٤ – طُرُق الصُّوفِيَّة

ثم إني لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتي على طريق الصوفية وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل. وكان حاصل علومهم قطع عقبات النفس، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يُتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله.

وكان العلم أيسر عليّ من العمل. فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل: "قوت القلوب" لأبي طالب المكي رحمه الله، وكتب الحارث المحاسبي، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلي وأبي يزيد البسطامي، قدس الله أرواحهم، وغيرهم من المشايخ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع. فظهر لي أن أخص خواصهم، ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات. وكم من الفرْق بين أن تعلم حد الصحة وحد الشبع وأسبابهما وشروطهما، وبين أن تكون صحيحاً وشبعان؟ وبين أن تعرف حد السكر، وأنه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر، وبين أن تكون سكران! بل السكران لا يعرف حدّ السكر وعِلمه وهو سكران وما معه من علمه شيء! والصَّاحي يعرف حدّ السُكر وأركانه ومَا معه من السكر شيء. والطبيب في حالة المرض يعرف حدّ الصحة وأسبابها وأدويتها وهو فاقد الصحة. فكذلك فرقٌ بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطه وأسبابه، وبين أن تكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا!

---

[48] أضعف

[49] اخبرهم: امتحنهم ؛ وتقلهم: تبغضهم.

فعلمت يقيناً أنهم أرباب الأحوال، لا أصحاب الأقوال. وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته، ولم يبقَ إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم، بل بالذوق والسلوك. وكان قد حصل معي، من العلوم التي مارستها والمسالك التي سلكتها في التفتيش عن صنفي العلوم الشرعية والعقلية، إيمانٌ يقينيٌ بالله تعالى وبالنبُوّة وباليوم الآخر. فهذه الأصول الثلاثة من الإيمان كانت قد رسخت في نفسي، لا بدليل معين محرر بل بأسبابٍ وقرائن وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلُها. وكان قد ظهر عندي أنه لا مطمع لي في سعادة الآخرة إلا بالتقوى، وكف النفس عن الهوى، وأن رأس ذلك كله قطعُ علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والإقبال بكُنه الهمة على الله تعالى. وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال، والهرب من الشواغل والعلائق. ثم لاحظت أحوالي، فإذا أنا منغمس في العلائق، وقد أحدقت بي من الجوانب، ولاحظت أعمالي – أحسنها التدريس والتعليم– فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة.

ثم تفكرت في نيتي في التدريس فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت، فتيقنت أني على شفا جُرُف هار، وأني قد أشفيت على النار، إن لم أشتغل بتلافي الأحوال. فلم أزل أتفكر فيه مدة، وأنا بعدُ على مقام الاختيار، أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوماً، وأحل العزم يوماً، وأقدم فيه رجلاً وأؤخر عنه أخرى، لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة، إلا ويحمل عليها جند الشهوة حملة فيفترها عشية. فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المقام، ومنادي الإيمان ينادي: الرحيل! الرحيل! فلم يبق من العمر إلا قليل، وبين يديك السفر الطويل، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل! **فإن لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد؟** وإن لم تُقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع؟ فعند ذلك تنبعث الداعية وينجزم العزم على الهرب والفرار. ثم يعود الشيطان ويقول: هذه حال عارضة، إياك أن تطاوعها، فإنها سريعة الزوال، فإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض، والشأن المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص، والأمر المسلم الصافي عن منازعة الخصوم، ربما التفتت إليه نفسك، ولا يتيسر لك المعاودة. فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا، ودواعي الآخرة، قريباً من ستة أشهر أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربع مائة. وفي هذا الشهر[50] جاوز الأمر حد الاختيار إلى الإضطرار، إذ أقفل الله علي لساني حتى اعتُقل عن التدريس، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً تطييباً للقلوب المختلفة إلي، فكان لا ينطق لساني بكلمة واحدة ولا أستطيعها البتة، حتى أورثت هذه العقلة في اللسان حزناً في القلب، بطلت معه قوة الهضم ومراءة الطعام والشراب، فكان لا ينساغ لي ثريد، ولا تنهضم لي لقمة، وتعدى إلى ضعف القوى، حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج وقالوا: هذا أمر نزل بالقلب، ومنه سرى إلى

[50] هذا هو قمة الأزمة الروحية عندة وسببها هو الخوف من الهلاك الآخروي كما قال عبدالغافر الفارسي: "فتح عليه باب من أبواب الخوف". ولعل من الأسباب التي أدت إلى هذه الأزمة هو دراسة كتب الصوفيين وسيرتهم. وفي هذه الفترة الزمنية يذكر ابن كثير أن عالماً دخل بغداد ودرس في الناظمية وعلى يديه تاب كثيرً من العباد ورجعوا إلى الله وكثير منهم من زهد في الدنيا وتنسك. انظر فيما كتبه د. مصطفى محمود أبو صوى عن هذه الأزمة وما كتبتة أنا في هذا الموضوع ، والجدير بالذكر أن هذه الأزمة هي غير (فترة الشك) التي عانى منها وذكرها في فصل مداخل السفسطة وجحد العلوم . (محقق النسخة)

المزاج، فلا سبيل إليه بالعلاج، إلا بأن يتروح السر عن الهم الملم. ثم لما أحسست بعجزي، وسقط بالكلية اختياري، التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له، فأجابني الذي {يجيب المضطر إذا دعاه}، وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال والأهل والولد والأصحاب، وأظهرت عزم الخروج إلى مكة وأنا أدبّر في نفسي سفر الشام حذراً أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمي على المقام في الشام. فتلطفت بلطائف الحيل في الخروج من بغداد على عزم أن لا أعاودها أبداً. واستهدفت لأئمة أهل العراق كافة، إذ لم يكن فيهم من يُجوِّز أن يكون للإعراض عما كنت فيه سبب دينيّ، إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى في الدين، وكان ذلك مبلغهم من العلم. ثم ارتبك الناس في الاستنباطات، وظن من بعُد عن العراق أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة. وأما من قرب من الولاة كان يشاهد إلحاحهم في التعلق بي والانكباب عليَّ، وإعراضي عنهم، وعن الالتفات إلى قولهم ، فيقولون: هذا أمر سماوي، وليس له سبب إلا عين أصابت أهل الإسلام وزمرة أهل العلم.

ففارقت بغداد، وفرقت ما كان معي من المال، ولم أدخر إلا قدر الكفاف، وقوت الأطفال، ترخصاً بأن مال العراق مرصد للمصالح، ولكونه وقفاً على المسلمين. فلم أر في العالم مالاً يأخذه العالم لعياله أصلح منه. ثم دخلت الشام، وأقمت به قريباً من سنتين لا شغل لي إلا العزلة والخلوة، والرياضة والمجاهدة، اشتغالاً بتزكية النفس، وتهذيب الأخلاق، وتصفية القلب لذكر الله تعالى، كما كنت حصلته من كتب الصوفية. فكنت أعتكف مدة في مسجد دمشق، أصعد منارة المسجد طول النهار وأغلق بابها على نفسي. ثم رحلت منها إلى بيت المقدس، أدخل كل يوم الصخرة وأغلق بابها على نفسي. ثم تحركت فيَّ داعية فريضة الحج، والاستمداد من بركات مكة والمدينة، وزيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله وسلامه عليه. فسرت إلى الحجاز. ثم جذبتني الهمم، ودعوات الأطفال إلى الوطن، فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه. فآثرت العزلة به أيضاً حرصاً على الخلوة وتصفية القلب للذكر.

وكانت حوادث الزمان، ومهمات العيال، وضرورات المعاش، تغير فيَّ وجه المراد، وتشوش صفوة الخلوة. وكان لا يصفو لي الحال إلا في أقوات متفرقة. لكني مع ذلك لا أقطع طمعي منها، فتدفعني عنها العوائق، وأعود إليها. ودمت على ذلك مقدار عشر سنين. وانكشفت لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها، والقدر الذي أذكره لينتفع به: أني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق. بل لو جُمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلاً.

وبالجملة، فماذا يقول القائلون في طريقة، طهارتها –وهي أول شروطها– تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة، استغراق القلب بالكلية بذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية

في الله؟ وهذا آخرها بالإضافة إلى ما يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب من أوائلها. وهي على التحقيق أول الطريقة، وما قبل ذلك كالدهليز للسالك إليه.

ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات، حتى أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد. ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال، إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق، فلا يحاول مُعَبِّر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه. وعلى الجملة، ينتهي الأمر إلى قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول، وطائفة الاتحاد، وطائفة الوصول، وكل ذلك خطأ. وقد بينا وجه الخطأ فيه في كتاب "المقصد الأسنى". بل الذي لابسَته تلك الحالة لا ينبغي أن يزيد على أن يقول:

وكان ما كان مما لستُ أذكره فظنَّ خيراً ولا تسأل عن الخبرِ![51]

وبالجملة، فمن لم يُرزق منه شيئاً بالذوق، فليس يدرك من حقيقة النبوة إلا الاسم... وكان ذلك أول حال رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين أقبل إلى جبل حراء، حيث كان يخلو فيه بربه ويتعبد، حتى قالت العرب: إن محمداً عشق ربه!. وهذه حالة، يتحققها بالذوق من يسلك سبيلها. فمن لم يُرزق الذوق فيتيقنها بالتجربة والتسامع إن أكثر معهم الصحبة، حتى يفهم ذلك بقرائن الأحوال يقيناً. ومن جالسهم استفاد منهم هذا الإيمان. فهم القوم لا يشقى جليسهم. ومن لم يرزق صحبتهم، فليعلم إمكان ذلك يقيناً بشواهد البرهان، على ما ذكرناه في كتاب "عجائب القلب" من كتب "إحياء علوم الدين". والتحقيق بالبرهان **علم**، وملابسة عين تلك الحالة **ذوق**، والقبول من التسامع والتجربة بحسن الظن **إيمان**. فهذه ثلاث درجات:{يرفعِ الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجاتٍ}[المجادلة: ٥٨: ١١]. ووراء هؤلاء قوم جهال، هم المنكرون لأصل ذلك، المتعجبون من هذا الكلام، يستمعون ويسخرون، ويقولون: العجب! أنهم كيف يهذون! وفيهم قال الله تعالى:{ومنهم من يستمع إليكَ حتى إذا خرجوا من عِندك قالوا للذين أُوتوا العلم ماذا قال آنفاً أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم}،{فأصمهُم وأعمى أبصارهم}.[محمد: ٤٧: ١٦]. ومما بان لي بالضرورة من ممارسة طريقتهم، **حقيقة النبوة وخاصيتها**. ولا بد من التنبيه على أصلها لشدة مسيس الحاجة إليها.

حقيقَة النُبُوَّة: واضطِرار كَافةِ الخَلق إليهَا

إعلم أن جوهر الإنسان في أصل الفطرة خُلق خالياً ساذجاً لا خبر معه من عوالم الله تعالى! والعوالم كثيرة لا يحصيها إلا الله تعالى كما قال:{وما يعلم جنودُ ربك إلا هو} [المدثر: ٧٤: ٣١]. وإنما خبره من العوالم بواسطة الإدراك، وكل إدراك من الإدراكات خُلق ليطلع الإنسان به على عالم من الموجودات، ونعني بالعوالم أجناس الموجودات.

[51] هذا البيت لابن المعتز.

فأول ما يُخلق في الإنسان حاسة **اللمس**، فيدرك بها أجناساً من الموجودات كالحرارة والبرودة، والرطوبة واليبوسة، واللين والخشونة، وغيرها. واللمس قاصر عن الألوان والأصوات قطعاً، بل هي كالمعدوم في حق اللمس. ثم تُخلق له حاسة **البصر**، فيدرك بها الألوان والأشكال، وهو أوسع عوالم المحسوسات. ثم يُنفخ فيه **السمع**، فيسمع الأصوات والنغمات. ثم يُخلق له **الذوق**، وكذلك إلى أن يجاوز عالم المحسوسات، فيُخلق فيه **التمييز**، وهو قريب من سبع سنين، وهو طور آخر من أطوار وجوده، فيدرك فيه أموراً زائدة على عالم المحسوسات، لا يوجد منها شيء في عالم الحس. ثم يترقى إلى طور آخر، فيُخلق له **العقل**، فيدرك الواجبات والجائزات والمستحيلات وأموراً لا توجد في الأطوار التي قبله. ووراء العقل طور آخر تنفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب وما سيكون في المستقبل، وأموراً أُخر العقل معزول عنها كعزل قوة التمييز عن إدراك المعقولات، وكعزل قوة الحس عن مدركات التمييز. وكما أن المميّز لو عُرضت عليه مدركات العقل لأباها واستبعدها، فكذلك بعض العقلاء أبوا مدركات النبوة واستبعدوها، وذلك عين الجهل، إذ لا مستند لهم إلا أنه طور لم يبلغه ولم يوجد في حقه، فيظن أنه غير موجود في نفسه. والأكمه[٥٢]، لو لم يعلم بالتواتر والتسامع الألوان والأشكال وحُكي له ذلك ابتداءً، لم يفهمها ولم يقرّ بها... فكما أن العقل طور من أطوار الآدمي، يحصل فيه عين يبصر بها أنواعاً من المعقولات، والحواس معزولة عنها، فالنبوة أيضاً عبارة عن طور يحصل فيه عين لها نور يظهر في نورها الغيب، وأمور لا يدركها العقل. والشك في النبوة، إما أن يقع في إمكانها، أو في وجودها ووقوعها، أو في حصولها لشخص معين. ودليل إمكانها وجودها، ودليل وجودها وجود معارف في العالم لا يُتصور أن تُنال بالعقل، كعلم الطب والنجوم. فإن من بحث عنها علم بالضرورة أنها لا تُدرك إلا بإلهام إلهي وتوفيق من جهة الله تعالى، ولا سبيل إليها بالتجربة. فمن الأحكام النجومية ما لا يقع إلا في كل ألف سنة مرة ، فكيف يُنال ذلك بالتجربة؟ وكذلك خواص الأدوية. فتبين بهذا البرهان أن في الإمكان وجود طريق لإدراك هذه الأمور التي لا يدركها العقل –وهو المراد بالنبوة– لا أن النبوة عبارة عنها فقط، بل إدراك هذا الجنس الخارج عن مدركات العقل إحدى خواص النبوة، ولها خواص كثيرة سواها. وما ذكرنا فقطرة من بحرها، إنما ذكرناها لأن معك أُنموذجاً منها، وهو مدركاتك في النوم، ومعك علوم من جنسها في الطب والنجوم، وهي معجزات الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام)، ولا سبيل إليها للعقلاء ببضاعة العقل أصلاً. وأما ما عدا هذا من خواص النبوة، فإنما يدرك بالذوق، من سلوك طريق **التصوف**، لأن هذا إنما فهمته بأنموذج رزقته وهو النوم، ولولاه لما صدقت به. فإن كان للنبي خاصة ليس لك منها أنموذج، ولا تفهمها أصلاً، فكيف تصدق بها؟ وإنما التصديق بعد الفهم. وذلك الأنموذج يحصل في أوائل طريق التصوف فيحصل به نوع من الذوق بالقدر الحاصل ونوع من التصديق بما لم يحصل بالقياس إليه. فهذه الخاصية الواحدة تكفيك للإيمان بأصل النبوة. فإن وقع لك الشك في شخص معين، أنه نبي أم لا، فلا يحصل اليقين إلا بمعرفة أحواله، إما بالمشاهدة، أو بالتواتر والتسامع، فإنك إذا عرفت الطب والفقه، يمكنك أن تعرف الفقهاء والأطباء بمشاهدة أحوالهم وسماع أقوالهم، وإن لم تشاهدهم، ولا تعجز أيضاً عن معرفة كون

[52] الأعمى (المعجم الوجيز)

الشافعي رحمه الله فقيهاً، وكون جالينوس طبيباً، معرفة بالحقيقة لا بالتقليد عن الغير، بل بأن تتعلم شيئاً من الفقه والطب وتطالع كتبهما وتصانيفهما، فيحصل لك علم ضروري بحالهما. فكذلك إذا فهمت معنى النبوة فأكثرت النظر في القرآن والأخبار، يحصل لك العلم الضروري بكونه صلى الله عليه وسلم على أعلى درجات النبوة، وأعضد ذلك بتجربة ما قاله في العبادات وتأثيرها في تصفية القلوب، وكيف صدق صلى الله عليه وسلم في قوله: "من عمل بما علم ورثهُ الله علم ما لم يعلم"[٥٣]. وكيف صدق في قوله: "من أعان ظالماً سلطهُ الله عليهِ"[٥٤]. وكيف صدق في قوله: "من أصبح وهُمُومُهُ همٌّ واحدٌ كفاه الله تعالى هُمُومَ الدنيا والآخرةِ"[٥٥]. فإذا جربت ذلك في ألف وألفين وآلاف، حصل لك علم ضروري لا تتمارى فيه.

فمن هذا الطريق أطلب اليقين بالنبوة، لا من قلب العصا ثعباناً، وشق القمر، فإن ذلك إذا نظرت إليه وحده، ولم تنضم إليه القرائن الكثيرة الخارجة عن الحصر، وربما ظننت أنه سحر وتخييل، وأنه من الله تعالى إضلال فأنه {يُضِلُّ من يَشَاءُ ويَهدي من يشاءُ} [فاطر:٨]. وترد عليك أسئلة المعجزات، فإذا كان مستند إيمانك إلى كلام منظوم في وجه دلالة المعجزة، فينجزم إيمانك بكلام مرتب في وجه الإشكال والشبهة عليها، فليكن مثل هذه الخوارق إحدى الدلائل والقرائن في جملة نظرك، حتى يحصل لك علم ضروري لا يمكنك ذكر مستنده على التعيين كالذي يُخبِره جماعة بخبر متواتر لا يمكنه أن يذكر أن اليقين مستفاد من قول واحد معين، بل من حيث لا يدري، ولا يخرج عن جملة ذلك ولا بتعيين الآحاد. **فهذا هو الإيمان القوي العلمي**. وأما **الذوق** فهو كالمشاهدة والأخذ باليد ، ولا يوجد إلا في طريق الصوفية. فهذا القدر من حقيقة النبوة كاف في الغرض الذي أقصده الآن، وسأذكر وجه الحاجة إليه.

سَبَب نشر العِلْم بعَدْ الإعرَاضِ عَنه

ثم إني لما واظبت على العزلة والخلوة قريباً من عشر سنين، بان لي في أثناء ذلك على الضرورة من أسباب لا أحصيها، مرة بالذوق، ومرة بالعلم البرهاني، ومرة بالقبول الإيماني، أن الإنسان خُلق من بدن وقلب – وأعني بالقلب حقيقة روحه التي هي محل معرفة الله دون اللحم والدم الذي يشارك فيه الميت والبهيمة–، وأن البدن له صحة بها سعادته ومرض فيه هلاكه، وأن القلب كذلك له صحة وسلامة، ولا ينجو{إلا من أتى الله بقلب سليم}[الشعراء:٨٩]، وله مرض فيه هلاكه الأبدي الأخروي، كما قال تعالى:{في قلوبهم مرضٌ}[٥٦][البقرة:١٠]،

---

[53] غير موجود في كتب الحديث المشهورة.

[54] رواه أبن عساكر عن أبن مسعود وهو حديث ضعيف.

[55] رواه أبن ماجة عن أبن مسعود واسناده ضعيف ، فيه نهشل بن سعيد. قيل فيه أنه يروى المناكير ، وقيل بل الموضوعات.

[56] ذكرت في القرآن عشر مرات بهذا اللفظ.

وأن الجهل بالله سم مهلك، وأن معصية الله بمتابعة الهوى داؤه الممرض، وأن معرفة الله تعالى ترياقه المحيي، وطاعته بمخالفة الهوى دواؤه الشافي، وأنه لا سبيل إلى معالجة بإزالة مرضه وكسب صحته الا بأدوية، كما لا سبيل إلى معالجة البدن إلا بذلك... وكما أن الأدوية تُركب من أخلاط مختلفة النوع والمقدار وبعضها ضعف البعض في الوزن والمقدار، فلا يخلو اختلاف مقاديرها عن سر هو من قبيل الخواص، فكذلك العبادات التي هي أدوية داء القلوب، مركبة من أفعال مختلفة النوع والمقدار، حتى أن السجود ضعف الركوع، وصلاة الصبح نصف صلاة العصر في المقدار، ولا يخلو عن سر من الأسرار، هو من قبيل الخواص التي لا يُطلع عليها الا بنور النبوة. ولقد تحامق وتجاهل جداً من أراد أن يستنبط، بطريق العقل، لها حكمة، أو ظن أنها ذُكرت على الاتفاق، لا عن سر إلهي فيها يقتضيها بطريق الخاصية. وكما أن في الأدوية أصولاً هي أركانها، وزوائد هي متمماتها، لكل واحد منها خصوص تأثير في أعمال أصولها، كذلك النوافل والسنن متممات لتكميل آثار أركان العبادات.

وعلى الجملة، فالأنبياء عليهم السلام أطباء أمراض القلوب. وإنما فائدة العقل وتصرفه أن عرّفنا ذلك وشهد للنبوة بالتصديق ولنفسه بالعجز عن درك ما يُدرك بعين النبوة، وأخذ بأيدينا وسلمنا إليها تسليم العميان إلى القائدين، وتسليم المرضى المتحيرين إلى الأطباء المشفقين. فإلى ههنا مجرى العقل ومخطاه وهو معزول عما بعد ذلك، إلا عن تفهم ما يلقيه الطبيب إليه. فهذه أمور عرفناها بالضرورة الجارية مجرى المشاهدة، في مدة الخلوة والعزلة. ثم رأينا فتور الاعتقادات في أصل النبوة، ثم في حقيقة النبوة، ثم في العمل بما شرحته النبوة، وتحققنا شيوع ذلك بين الخلق، فنظرت إلى أسباب فتور الخلق ، وضعف إيمانهم ، فإذا هي أربعة:

١ – سبب من الخائضين في **علم الفلسفة**؛

٢ – وسبب من الخائضين في **طريق التصوف**؛

٣ – وسبب من المنتسبين الى **دعوى التعليم**؛

٤– وسبب من معاملة **الموسومين بالعلم** فيما بين الناس.

فإني تتبعت مدةً آحاد الخلق، أسألُ من أن يُقصر منهم في متابعة الشرع، واسأله عن شبهته وأبحث عن عقيدته وسره وقلت له: ما لك تقصر فيها؟ فإن كنت تؤمن بالآخرة ولست تستعد لها وتبيعها بالدنيا، فهذه حماقة! فإنك لا تبيع الاثنين بواحد، فكيف تبيع ما لا نهاية له بأيام معدودة؟ وإن كنت لا تؤمن، فأنت كافر! فدبر نفسك في طلب الإيمان، وانظر ما سبب كفرك الخفي الذي هو مذهبك باطناً، وهو سبب جرأتك ظاهراً، وإن كنت لا تصرح به تجملاً بالإيمان وتشرفاً بذكر الشرع!

فقائل يقول: إن هذا أمر لو وجبت المحافظة عليه لكان العلماء أجدر بذلك، وفلان من المشاهير بين الفضلاء لا يصلي، وفلان يشرب الخمر، وفلان يأكل أموال الأوقاف وأموال اليتامى، وفلان يأكل إدرار السلطان ولا يحترز عن الحرام، وفلان يأخذ الرشوة على القضاء والشهادة! وهلم جراً إلى أمثاله.

وقائل ثان: يدعي علم التصوف، ويزعم أنه قد بلغ مبلغاً ترقّى عن الحاجة إلى العبادة!

وقائل ثالث: يتعلل بشبهة أخرى من شبهات أهل الإباحة! **وهؤلاء هم الذين ضلوا عن التصوف**.

وقائل رابع لقي أهل التعليم فيقول: الحق مُشكِل، والطريق إليه متعسر، والاختلاف فيه كثير، وليس بعض المذاهب أولى من بعض، وأدلة العقول متعارضة، فلا ثقة برأي أهل الرأي، والداعي إلى التعليم متحكم لا حجة له، فكيف أدع اليقين بالشك ؟

وقائل خامس يقول: لست أفعل هذا تقليداً، ولكني قرأت علم الفلسفة وأدركت حقيقة النبوة، وأن حاصلها يرجع إلى الحكمة والمصلحة، وأن المقصود من تعبداتها ضبط عوام الخلق وتقييدهم عن التقاتل والتنازع والاسترسال في الشهوات، فما أنا من العوام الجُهال حتى أدخل في حجر التكليف، وإنما أنا من الحكماء أتبع الحكمة وأنا بصير بها، مستغن فيها عن التقليد! هذا منتهى إيمان من قرأ مذهب فلسفة الإلهيين منهم، وتعلم ذلك من كتب ابن سينا وأبي نصر الفارابي. وهؤلاء هم المتجملون بالإسلام. وربما ترى الواحد منهم يقرأ القرآن، ويحضر الجماعات والصلوات، ويُعظِّم الشريعة بلسانه، ولكنه مع ذلك لا يترك شرب الخمر وأنواعاً من الفسق والفجور! وإذا قيل له: إن كانت النبوة غير صحيحة، فلم تصلي؟ فربما يقول: لرياضة الجسد، ولعادة أهل البلد، وحفظ المال والولد! وربما قال: الشريعة صحيحة، والنبوة حق! فيقال: فلمَ تشرب الخمر؟ فيقول: إنما نُهي عن الخمر لأنها تورث العداوة والبغضاء، وأنا بحكمتي محترز عن ذلك، وإني أقصد به تشحيذ خاطري. حتى أن ابن سينا ذكر في وصية له كتب فيها: أنه عاهد الله تعالى على كذا وكذا، وأن يُعظم الأوضاع الشرعية، ولا يقصر في العبادات الدينية، ولا يشرب تلهياً بل تداوياً وتشافياً. فكان منتهى حالته في صفاء الإيمان، والتزام العبادات، أن استثنى شرب الخمر لغرض التشافي. فهذا إيمان من يدعي الإيمان منهم. وقد انخدع بهم جماعة، وزادهم انخداعاً ضعف اعتراض المعترضين عليهم، إذ اعترضوا بمجاهدة علم الهندسة والمنطق، وغير ذلك مما هو ضروري لهم، على ما بينا علته من قبل.

فلما رأيت أصناف الخلق قد ضعف إيمانهم إلى هذا الحد بهذه الأسباب، ورأيت نفسي ملبة بكشف هذه الشبهة، حتى كان إفضاح هؤلاء أيسر عندي من شربة ماء، لكثرة خوضي في علومهم وطرقهم –أعني طرق الصوفية والفلاسفة والتعليمية والمتوسمين من العلماء– انقدح في نفسي أن ذلك متعين في هذا الوقت، محتوم. فماذا تغنيك الخلوة والعزلة، وقد عم الداء، ومرض الأطباء، وأشرف الخلق على الهلاك؟ ثم قلت في نفسي: متى تشتغل أنت بكشف هذه الغمة ومصادمة هذه الظلمة، والزمان زمان الفترة، والدور دور الباطل، ولو اشتغلت بدعوة الخلق عن طرقهم إلى الحق، لعاداك أهل الزمان بأجمعهم، وأنّى تقاومهم فكيف تعايشهم، ولا يتم ذلك إلا بزمان مساعد، وسلطان متدين قاهر؟ فترخصت بيني وبين الله تعالى بالاستمرار على العزلة تعللاً بالعجز عن إظهار الحق بالحجة. فقدر الله تعالى أن حرك داعية سلطان الوقت من نفسه، لا بتحريك من خارج، فأمر أمر إلزام بالنهوض إلى نيسابور، لتدارك هذه الفترة. وبلغ الإلزام حداً كان ينتهي، لو أصررت على الخلاف، إلى حد الوحشة. فخطر لي أن سبب الرخصة قد ضعف، فلا ينبغي أن يكون باعثك على ملازمة العزلة الكسل والاستراحة، وطلب عز النفس

وصونها عن أذى الخلق، ولِم ترخص لنفسك عُسْرَ معاناة الخلق، والله سبحانه وتعالى يقول:{بسم الله الرحمن الرحيم* الم. أحَسِبَ الناسُ أن يُتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يُفْتَنونَ ولقد فتنّا الذينَ من قبلهم}، الآية [العنكبوت: ١-٣]. ويقول عز وجل لرسوله وهو أعز خلقه:{ولقدَ كُذّبَتْ رُسلٌ من قبلكَ فصَبروا على ما كُذّبوا وأُوذوا، حتى أتاهم نصرُنا، ولا مبَدّلَ لكلماتِ الله، ولقد جاءك من نبأ المرسلين}[الأنعام:٣٤]. ويقول عز وجل:{بسم الله الرحمن الرحيم* يس والقرآن الحكيم...} إلى قوله:{إنما تنذرُ من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيبِ}[يس:١-١١]. فشاورت في ذلك جماعة من أرباب القلوب والمشاهدات، فاتفقوا على الإشارة بترك العزلة، والخروج من الزاوية. وانضاف إلى ذلك منامات من الصالحين كثيرة متواترة، تشهد بأن هذه الحركة مبدأ خير ورشد قدّرها الله سبحانه على رأس هذه المائة[٥٧]. فاستحكم الرجاء، وغلب حسن الظنّ بسبب هذه الشهادات، وقد وعد الله سبحانه بإحياء دينه على رأس كل مائة. ويسّر الله تعالى الحركة إلى نيسابور للقيام بهذا المهم في ذي القعدة سنة تسع وتسعين وأربع مائة. وكان الخروج من بغداد في ذي القعدة سنة ثمان وثمانين وأربع مائة، وبلغت مدة العزلة إحدى عشر سنة. وهذه حركة قدّرها الله تعالى، وهي من عجائب تقديراته التي لم يكن لها انقداح في القلب في هذه العزلة، كما لم يكن الخروج من بغداد والنزوع عن تلك الأحوال مما خطر إمكانه أصلاً بالبال. والله تعالى مقلب القلوب والأحوال و"قلب المؤمن بين إصبعين من أصابعِ الرحمن"[٥٨]. وأنا أعلم أني، وإن رجعت إلى نشر العلم، فما رجعت! فإن الرجوع عَودٌ إلى ما كان، وكنت في ذلك الزمان أنشر العلم الذي به يُكتسب الجاه، وأدعو إليه بقولي وعملي، وكان ذلك قصدي ونيتي. وأما الآن فأدعو إلى العلم الذي به يُترك الجاه، ويُعرف به سقوط رتبة الجاه. هذا هو الآن نيتي وقصدي وأمنيتي، يعلم الله ذلك مني، وأنا أبغي أن أصلح نفسي وغيري، ولست أدري أأصِل مرادي أم أُخترم[٥٩] دون غرضي؟ ولكني اؤمن إيمان يقين ومشاهدة أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وأني لم أتحرك، لكنه حركني، وأني لم أعمل، لكنه استعملني. فأسأله أن يصلحني أولاً، ثم يُصلح بي، ويهديني، ثم يهدي بي، وأن يريني الحق حقاً ويرزقني اتباعه، ويريني الباطل باطلاً، ويرزقني اجتنابه.

وأما من أثبت النبوة بلسانه، وسوى أوضاع الشرع على الحكمة، فهو على التحقيق كافر بالنبوة، وإنما هو مؤمن بحكم له طالع مخصوص، يقتضي طالعه أن يكون متبوعاً، وليس هذا من النبوة في شيء. بل الإيمان بالنبوة أن يقر بإثبات طور وراء العقل، تنفتح فيه عين يدرك بها مدركات خاصة، والعقل معزول عنها، كعزل السمع عن إدراك الألوان، والبصر عن إدراك الأصوات، وجميع الحواس عن إدراك المعقولات. فإن لم يجوّز هذا، فقد أقمنا البرهان على إمكانه، بل على وجوده. وإن جوز هذا، فقد أثبت أن ههنا أموراً تسمى خواص، لا يدور تصرف العقل حواليها أصلاً، بل يكاد العقل يكذبها ويقضي باستحالتها.

---

[57] أبو دواد والحاكم عن أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها".

[58] مسلم وأحمد عن عبدالله بن عمرو بن العاص ويوجد في الترمذي وأبن ماجه روايات مشابهه عن أخرون.

[59] يقال: اخترمته المنية، أى أخذته.

ومن نظر في أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما ورد من الأخبار في اهتمامه بإرشاد الخلق، وتلطفه في جرّ الناس بأنواع الرفق واللطف إلى تحسين الأخلاق وإصلاح ذات البين، وبالجملة إلى ما يصلح به دينهم ودنياهم، حصل له علم ضروري بأن شفقته صلى الله عليه وسلم على أمته أعظم من شفقة الوالد على ولده. وإذا نظر إلى عجائب ما ظهر عليه من الأفعال، وإلى عجائب الغيب الذي أخبر عنه القرآن على لسانه وفي الأخبار، وإلى ما ذكره في آخر الزمان، فظهر ذلك كما ذكره، علم علماً ضرورياً أنه بلغ الطور الذي وراء العقل، وانفتحت له العين التي ينكشف منها الغيب الذي لا يدركه إلا الخواص، والأمور التي لا يدركها العقل.

فهذا هو منهاج تحصيل العلم الضروري بتصديق النبي صلى الله عليه وسلم. فجرب وتأمل القرآن وطالع الأخبار، تعرف ذلك بالعيان. وهذا القدر يكفي في تنبيه المتفلسفة ، ذكرناه لشدة الحاجة إليه في هذا الزمان.

وأما السبب الرابع – وهو ضعف الإيمان بسبب سيرة العلماء– فيداوي هذا المرض بثلاثة أمور:

أحدها: أن تقول إن العالِم الذي تزعم أنه يأكل الحرام ومعرفته بتحريم ذلك الحرام كمعرفتك بتحريم الخمر ولحم الخنزير والربا، بل بتحريم الغيبة والكذب والنميمة، وأنت تعرف ذلك وتفعله، لا لعدم إيمانك بأنه معصية، بل لشهوتك الغالبة عليك، فشهوته كشهوتك، وقد غلبته كما غلبتك، فعلمه بمسائل وراء هذا يتميز به عنك، لا يناسب زيادة زجر عن هذا المحظور المعين.

الثاني: أن يقال للعامي: ينبغي أن تعتقد أن العالم اتخذ علمه ذخراً لنفسه في الآخرة، ويظن أن علمه ينجيه، ويكون شفيعاً له حتى يتساهل معه في أعماله لفضيلة علمه. وإن جاز أن يكون زيادة حجة عليه، فهو يجوز أن يكون زيادة درجة له، وهو ممكن. فهو، وإن ترك العمل، يدلي بالعلم. وأما أنت أيها العامي! إذا نظرت إليه وتركت العمل وأنت عن العلم عاطل، فتهلك بسوء عملك ولا شفيع لك!

الثالث: وهو الحقيقة، أن العالم الحقيقي لا يقارف معصية إلا على سبيل الهفوة، ولا يكون مصراً على المعاصي أصلاً. إذ العلم الحقيقي ما يعرّف أن المعصية سمٌ مهلك، وأن الآخرة خير من الدنيا. ومن عرَف ذلك، لا يبيع الخير بما هو أدنى منه. وهذا العلم لا يحصل بأنواع العلوم التي يشتغل بها أكثر الناس. فلذلك لا يزيدهم ذلك العلم إلا جرأة على معصية الله تعالى. وأما العلم الحقيقي، فيزيد صاحبه خشية وخوفاً ورجاءً، وذلك يحول بينه وبين المعاصي إلا الهفوات التي لا ينفك عنها البشر في الفترات، وذلك لا يدل على ضعف الإيمان. فالمؤمن مفتنٌ توّابٌ، وهو بعيدٌ عن الإصرار والإكباب.

هذا ما أردت أن أذكره في ذم الفلسفة والتعليم وآفاتهما وآفات من أنكر عليهما ، لا بطريقه.

الاقتصاد في الاعتقاد[٦٠]

الحمد لله الذي اجتبى من صفوة عباده عصابة الحق وأهل السنة، وخصهم من بين سائر الفرق بمزايا اللطف والمنة، وأفاض عليهم من نور هدايته ما كشف به عن حقائق الدين، وأنطق ألسنتهم بحجته التي قمع بها ضلال الملحدين، وصفى سرائرهم من وساوس الشياطين، وطهر ضمائرهم عن نزغات الزائغين، وعمر أفئدتهم بأنوار اليقين حتى اهتدوا بها إلى أسرار ما أنزله على لسان نبيه وصفيه محمد صلى الله عليه وسلم سيد المرسلين، واطلعوا على طريق التلفيق بين مقتضيات الشرائع وموجبات العقول، وتحققوا أن لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول. وعرفوا أن من ظن من الحشوية وجوب الجمود على التقليد واتباع الظواهر ما أتوا به إلا من ضعف العقول وقلة البصائر. وأن من تغلغل من الفلاسفة وغلاة المعتزلة في تصرف العقل حتى صادموا به قواطع الشرع، ما أتوا به إلا من خبث الضمائر. فميل أولئك إلى التفريط وميل هؤلاء إلى الإفراط، وكلاهما بعيد عن الحزم والاحتياط. بل الواجب المحتوم في قواعد الاعتقاد ملازمة الاقتصاد والاعتماد على الصراط المستقيم، فكلا طرفي قصد الأمور ذميم. وأنى يستتب الرشاد لمن يقنع بتقليد الأثر والخبر، وينكر مناهج البحث والنظر، أو لا يعلم أنه لا مستند للشرع إلا قول سيد البشر صلى الله عليه وسلم، وبرهان العقل هو الذي عُرف به صدقه فيما أخبر. وكيف يهتدي للصواب من اقتفى محض العقل واقتصر، وما استضاء بنور الشرع ولا استبصر؟ فليت شعري كيف يفزع إلى العقل من حيث يعتريه العي والحصر؟ أو لا يعلم أن العقل قاصر وأن مجاله ضيق منحصر؟ هيهات قد خاب على القطع والبتات وتعثر بأذيال الضلالات من لم يجمع بتأليف الشرع والعقل هذا الشتات. فمثال العقل البصر السليم عن الآفات والآذاء، ومثال القرآن الشمس المنتشرة الضياء. فاخلق بأن يكون طالب الاهتداء، المستغني إذا استغني بأحدهما عن الآخر في غمار الأغبياء. فالمعرض عن العقل مكتفياً بنور القرآن، مثاله المتعرض لنور الشمس مغمضاً للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان. فالعقل مع الشرع نور على نور، والملاحظ بالعين العور لأحدهما على الخصوص متدل بحبل غرور. وسيتضح لك أيها المشوق إلى الاطلاع على قواعد عقائد أهل السنة، المقترح تحقيقها بقواطع الأدلة، أنه لم يستأثر بالتوفيق للجمع بين الشرع والتحقيق فريق سوى هذا الفريق. فاشكر الله تعالى على إقتفائك لآثارهم وانخراطك في سلك نظامهم وعيارهم واختلاطك بفرقتهم، فعساك أن تحشر يوم القيامة في زمرتهم. نسأل الله تعالى أن يصفي أسرارنا عن كدورات الضلال، ويغمرها بنور الحقيقة، وأن يخرس ألسنتنا عن النطق بالباطل، وينطقها بالحق والحكمة إنه الكريم الفائض المنة الواسع الرحمة.

---

[60] حذفت بعض أجزاء من هذا الكتاب القيم رأيتها مغرقة في التفلسف مما قد يصعب على القارئ العادي استيعابه، فمن رأى معرفتها فله أن يرجع إلى الكتاب الأصلي وليعذرني على ما فعلته (المصنف)

باب

ولنفتح الكلام ببيان اسم الكتاب، وتقسيم المقدمات والفصول والأبواب. أما اسم الكتاب فهو الاقتصاد في الاعتقاد. وأما ترتيبه فهو مشتمل على أربع تمهيدات تجري مجرى التوطئة والمقدمات، وعلى أربع أقطاب تجري مجرى المقاصد والغايات.

التمهيد الأول: في بيان أن هذا العلم من المهمات في الدين.

التمهيد الثاني: في بيان أنه ليس مهماً لجميع المسلمين بل لطائفة منهم مخصوصين.

التمهيد الثالث: في بيان أنه من فروض الكفايات لا من فروض الأعيان.

التمهيد الرابع: في تفصيل مناهج الأدلة التي أوردتها في هذا الكتاب.

وأما الأقطاب المقصودة فأربعة وجملتها مقصورة على النظر في الله تعالى. فإنا إذا نظرنا في العالم لم ننظر فيه من حيث أنه عالم وجسم وسماء وأرض، بل من حيث أنه صنع الله سبحانه. وإن نظرنا في النبي عليه السلام لم ننظر فيه من حيث أنه انسان وشريف وعالم وفاضل، بل من حيث أنه رسول الله. وان نظرنا في أقواله لم ننظر من حيث أنها أقوال ومخاطبات وتفهيمات، بل من حيث أنها تعريفات بواسطته من الله تعالى، فلا نظر إلا في الله ولا مطلوب سوى الله. وجميع أطراف هذا العلم يحصرها النظر في ذات الله تعالى وفي صفاته سبحانه وفي أفعاله عز وجل وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما جاءنا على لسانه من تعريف الله تعالى. فهي إذن أربعة أقطاب:

القطب الأول: النظر في ذات الله تعالى. فنبين فيه وجوده وأنه قديم وأنه باق وأنه ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض ولا محدود بحد ولا هو مخصوص بجهة، وأنه مرئي كما أنه معلوم وأنه واحد. فهذه عشرة دعاوى نبينها في هذا القطب.

القطب الثاني: في صفات الله تعالى. ونبين فيه أنه حي عالم قادر مريد سميع بصير متكلم وأن له حياة وعلماً وقدرة وإرادة وسمعاً وبصراً وكلاماً، ونذكر أحكام هذه الصفات ولوازمها وما يفترق فيها وما يجتمع فيها من الأحكام، وأن هذه الصفات زائدة على الذات، وقديمة وقائمة بالذات، ولا يجوز أن يكون شيء من الصفات حادثاً.

القطب الثالث: في أفعال الله تعالى. وفيه سبعة دعاوى، وهو أنه لا يجب على الله تعالى التكليف ولا الخلق ولا الثواب على التكليف ولا رعاية صلاح العباد، ولا يستحيل منه تكليف ما لا يطاق، ولا يجب عليه العقاب على المعاصي، ولا يستحيل منه بعثه الأنبياء عليهم السلام، بل يجوز ذلك. وفي مقدمة هذا القطب بيان معنى الواجب والحسن والقبيح.

القطب الرابع: في رسل الله، وما جاء على لسان رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم من الحشر والنشر والجنة والنار والشفاعة وعذاب القبر والميزان والصراط، وفيه أربعة أبواب:

الباب الأول: في إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

الباب الثاني: فيما ورد على لسانه من أمور الآخرة.
الباب الثالث: في الإمامة وشروطها.
الباب الرابع: في بيان القانون في تكفير الفرق المبتدعة.

التمهيد الأول في بيان أن الخوض في هذا العلم مهم في الدين

اعلم أن صرف الهمة إلى ما ليس بمهم، وتضييع الزمان بما عنه بد، هو غاية الضلال ونهاية الخسران، سواء كان المُنصَرف إليه بالهمة من العلوم أو من الأعمال، فنعوذ بالله من علم لا ينفع. وأهم الأمور لكافة الخلق نيل السعادة الأبدية واجتناب الشقاوة الدائمة، وقد ورد الأنبياء وأخبروا الخلق بأن لله تعالى على عباده حقوقاً ووظائف في أفعالهم وأقوالهم وعقائدهم. وأن من لم ينطق بالصدق لسانه، ولم ينطو على الحق ضميره، ولم تتزين بالعدل جوارحه، فمصيره إلى النار وعاقبته للبوار. ثم لم يقتصروا على مجرد الإخبار بل استشهدوا على صدقهم بأمور غريبة وأفعال عجيبة خارقة للعادات خارجة عن مقدورات البشر، فمن شاهدها أو سمع أحوالها بالأخبار المتواترة سبق إلى عقله إمكان صدقهم، بل غلب على ظنه ذلك بأول السماع قبل أن يُمعن النظر في تمييز المعجزات عن عجائب الصناعات. وهذا الظن البديهي أو التجويز الضروري ينزع الطمأنينة عن القلب، ويحشوه بالاستشعار والخوف، ويهيجه للبحث والافتكار، ويسلب عنه الدعة والقرار، ويحذره مغبة التساهل والإهمال، ويقرر عنده أن الموت آت لا محالة، وأن ما بعد الموت منطو عن أبصار الخلق، وأن ما أخبر به هؤلاء غير خارج عن حيز الإمكان. فالحزم ترك التواني في الكشف عن حقيقة هذا الأمر. فما هؤلاء مع العجائب التي أظهروها في إمكان صدقهم قبل البحث عن تحقيق قولهم بأقل من شخص واحد يخبرنا عند خروجنا من دارنا ومحل استقرارنا بأن سبعاً من السباع قد دخل الدار فخذ حذرك واحترز منه لنفسك جهدك، فإنا بمجرد السماع إذا رأينا ما أخبرنا عنه في محل الامكان والجواز لم نقدم على الدخول وبالغنا في الاحتراز، فالموت هو المستقر والوطن قطعاً، فكيف لا يكون الاحتراز لما بعده مهماً ؟ فإذن أهم الملمات أن نبحث عن قوله الذي قضى الذهن في بادئ الرأي وسابق النظر بإمكانه أهو محال في نفسه على التحقيق أو هو حق لا شك فيه؟ فمن قوله أن لكم رباً كلفكم حقوقاً وهو يعاقبكم على تركها ويثيبكم على فعلها، وقد بعثني رسولاً إليكم لأبين ذلك لكم، فيلزمنا لا محالة أن نعرف أن لنا رباً أم لا. وإن كان فهل يمكن أن يكون حياً متكلماً حتى يأمر وينهى ويكلف ويبعث الرسل، وإن كان متكلماً فهل هو قادر على أن يعاقب ويثيب إذا عصيناه أو أطعناه، وإن كان قادراً فهل هذا الشخص بعينه صادق في قوله أنا الرسول إليكم. فإن اتضح لنا ذلك لزمنا لا محالة، إن كنا عقلاء، أن نأخذ حذرنا وننظر لأنفسنا ونستحقر هذه الدنيا المنقرضة بالإضافة إلى الآخرة الباقية، فالعاقل من ينظر لعاقبته ولا يغتر بعاجلته.

ومقصود هذا العلم إقامة البرهان على وجود الرب تعالى وصفاته وأفعاله وصدق الرسل. وكل ذلك مهم لا محيص عنه لعاقل. فإن قلت إني لست منكراً هذا الانبعاث للطلب من نفسي، ولكني لست أدري أنه ثمرة الجبلة

والطبع وهو مقتضى العقل، أو هو موجب الشرع، إذ للناس كلام في مدارك الوجوب، فهذا إنما تعرفه في آخر الكتاب عند تعرضنا لمدارك الوجوب. والاشتغال به الآن فضول بل لا سبيل بعد وقوع الانبعاث إلى الانتهاض لطلب الخلاص. فمثال الملتفت إلى ذلك مثال رجل لدغته حية أو عقرب وهي معاودة اللدغ، والرجل قادر على الفرار ولكنه متوقف ليعرف أن الحية جاءته من جانب اليمين أو من جانب اليسار، وذلك من أفعال الأغبياء الجهال، نعوذ بالله من الاشتغال بالفضول مع تضييع المهمات والأصول.

التمهيد الثاني في بيان الخوض في هذا العلم وإن كان مهماً

فهو في حق بعض الخلق ليس بمهم بل المهم لهم تركه

إعلم أن الأدلة التي نحررها في هذا العلم تجري مجرى الأدوية التي يُعالج بها مرض القلوب. والطبيب المستعمل لها إن لم يكن حاذقاً ثاقب العقل رصين الرأي كان ما يفسده بدوائه أكثر مما يصلحه. فليعلم المحصل لمضمون هذا الكتاب والمستفيد لهذه العلوم أن الناس أربع فرق:

الفرقة الأولى: آمنت بالله وصدقت رسوله واعتقدت الحق وأضمرته واشتغلت إما بعبادة وإما بصناعة. فهؤلاء ينبغي أن يُتركوا وما هم عليه ولا تُحرك عقائدهم بالاستحثاث على تعلم هذا العلم، فإن صاحب الشرع صلوات الله عليه لم يطالب العرب في مخاطبته إياهم بأكثر من التصديق، ولم يفرق بين أن يكون ذلك بإيمان وعقد تقليدي أو بيقين برهاني. وهذا مما عُلم ضرورة من مجاري أحواله في تزكيته إيمان من سبق من أجلاف العرب إلى تصديقه ببحث وبرهان، بل بمجرد قرينة ومخيلة سبقت إلى قلوبهم فقادتها إلى الإذعان للحق والانقياد للصدق. فهؤلاء مؤمنون حقاً فلا ينبغي أن تُشوَّش عليهم عقائدهم، فإنه إذا تليت عليهم هذه البراهين وما عليها من الاشكالات وحلها لم يؤمَن أن تعلق بأفهامهم مشكلة من المشكلات وتستولي عليها ولا تُمحى عنها بما يُذكر من طرق الحل. ولهذا لم ينقل عن الصحابة الخوض في هذا الفن لا بمباحثة ولا بتدريس ولا تصنيف، بل كان شغلهم بالعبادة والدعوة إليها، وحمل الخلق على مراشدهم ومصالحهم في أحوالهم وأعمالهم ومعاشهم فقط.

الفرقة الثانية: طائفة مالت عن اعتقاد الحق كالكفرة والمبتدعة. فالجافي الغليظ منهم الضعيف العقل الجامد على التقليد الممتري على الباطل من مبتدأ النشوء إلى كبر السن لا ينفع معه إلا السوط والسيف. فأكثر الكفرة أسلموا تحت ظلال السيوف إذ يفعل الله بالسيف والسنان ما لا يُفعل بالبرهان واللسان. وعن هذا إذا استقرأت تواريخ الأخبار لم تصادف ملحمة بين المسلمين والكفار إلا انكشفت عن جماعة من أهل الضلال مالوا إلى الانقياد، ولم تصادف مُجمَّع مناظرة ومجادلة انكشفت إلا عن زيادة إصرار وعناد. ولا تظنن أن هذا الذي ذكرناه غض من منصب العقل وبرهانه، ولكن نور العقل كرامة لا يخص الله بها إلا الآحاد من أوليائه، والغالب على الخلق القصور والاهمال، فهم لقصورهم لا يدركون براهين العقول كما لا تُدرِك نور الشمس أبصار الخفافيش. فهؤلاء تضر

بهم العلوم كما تضر رياح الورد بالجُعَل[61]. وفي مثل هؤلاء قال الامام الشافعي رحمه الله: فمن منح الجهال علماً أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم.

الفرقة الثالثة: طائفة اعتقدوا الحق تقليداً وسماعاً ولكن خُصوا في الفطرة بذكاء وفطنة، فتنبهوا من أنفسهم لإشكالات تُشككهم في عقائدهم وزُلزلت عليهم طمأنينتهم، أو قرع سمعهم شبهة من الشبهات وحاكت في صدورهم. فهؤلاء يجب التلطف بهم في معالجتهم بإعادة طمأنينتهم وإماطة شكوكهم بما أمكن من الكلام المقنع المقبول عندهم، ولو بمجرد إستبعاد وتقبيح أو تلاوة آية أو رواية حديث أو نقل كلام من شخص مشهور عندهم بالفضل. فإذا زال شكه بذلك القدر فلا ينبغي أن يشافه بالأدلة المحررة على مراسم الجدال، فإن ذلك ربما يفتح عليه أبواباً أخر من الإشكالات. فإن كان ذكياً فطناً لم يقنعه إلا كلام يسير على محك التحقيق. فعند ذلك يجوز أن يشافه بالدليل الحقيقي وذلك على حسب الحاجة وفي موضع الاشكال على الخصوص.

الفرقة الرابعة: طائفة من أهل الضلال، يُتفرس فيهم مخائل الذكاء والفطنة، ويُتوقع منهم قبول الحق بما اعتراهم في عقائدهم من الريبة أو بما يلين قلوبهم لقبول التشكيك بالجبلة والفطرة. فهؤلاء يجب التلطف بهم في استمالتهم إلى الحق وإرشادهم إلى الاعتقاد الصحيح لا في معرض المحاجة والتعصب، فإن ذلك يزيد في دواعي الضلال ويهيج بواعث التمادي والإصرار. وأكثر الجهالات إنما رسخت في قلوب العوام بتعصب جماعة من جُهال أهل الحق أظهروا الحق في معرض التحدي والادلاء، ونظروا إلى ضعفاء الخصوم بعين التحقير والإزراء، فثارت من بواطنهم دواعي المعاندة والمخالفة ورسخت في نفوسهم الاعتقادات الباطلة، وعسر على العلماء المتلطفين محوها مع ظهور فسادها، حتى انتهى التعصب بطائفة إلى أن اعتقدوا أن الحروف التي نظروا بها في الحال بعد السكوت عنها طول العمر قديمة. ولولا استيلاء الشيطان بواسطة العناد والتعصب للأهواء لما وجد مثل هذا الاعتقاد مستقراً في قلب مجنون فضلاً عمن له قلب عاقل. والمجادلة والمعاندة داء محض لا دواء له، فليتحرز المتدين منه جهده، وليترك الحقد والضغينة وينظر إلى كافة خلق الله بعين الرحمة، وليستعن بالرفق واللطف في إرشاد من ضل من هذه الأمة، وليتحفظ من النكد الذي يحرك داعية الضلال، وليتحقق أن مُهَيِّج داعية الإصرار بالعناد والتعصب مُعِين على الاصرار على البدعة ومطالب بعهده إعانته في القيامة.

التمهيد الثالث في بيان الاشتغال بهذا العلم من فروض الكفايات

إعلم أن التبحر في هذا العلم والاشتغال بمجامعه ليس من فروض الأعيان وهو من فروض الكفايات. فأما أنه ليس من فروض الأعيان فقد اتضح لك برهانه في التمهيد الثاني. إذ تبين أنه ليس يجب على كافة الخلق إلا التصديق الجزم وتطهير القلب عن الريب والشك في الإيمان. وإنما تصير إزالة الشك فرض عين في حق من اعتراه الشك. فإن قلت فلم صار من فروض الكفايات وقد ذكرت أن أكثر الفرق يضرهم ذلك ولا ينفعهم؟ فاعلم أنه قد سبق أن

[61] حيوان كالخنفساء يكثر في المواضع الندية (المعجم الوجيز)

إزالة الشكوك في أصول العقائد واجبة، واعتوار الشك غير مستحيل وإن كان لا يقع إلا في الأقل، ثم الدعوة إلى الحق بالبرهان مهمة في الدين. ثم لا يبعد أن يثور مبتدع ويتصدى لإغواء أهل الحق بإفاضة الشبهة فيهم فلا بد ممن يقاوم شبهته بالكشف ويعارض إغواءه بالتقبيح، ولا يمكن ذلك إلا بهذا العلم. ولا تنفك البلاد عن أمثال هذه الوقائع، فوجب أن يكون في كل قطر من الأقطار، وصقع من الأصقاع، قائم بالحق مشتغل بهذا العلم يقاوم دعاة المبتدعة، ويستميل المائلين عن الحق، ويصفي قلوب أهل السنة عن عوارض الشبهة. فلو خلا عنه القطر خرج به أهل القطر كافة، كما لو خلا عن الطبيب والفقيه. نعم من أنس من نفسه تعلم الفقه أو الكلام وخلا الصقع عن القائم بهما ولم يتسع زمانه للجمع بينهما واستفتي في تعيين ما يُشتغل به منهما، أوجبنا عليه الاشتغال بالفقه فإن الحاجة إليه أعم والوقائع فيه أكثر، فلا يستغني أحد في ليله ونهاره عن الاستعانة بالفقه. واعتوار الشكوك المحْوِجة إلى علم الكلام باد بالإضافة إليه، كما أنه لو خلا البلد عن الطبيب والفقيه كان التشاغل بالفقه أهم، لأنه يشترك في الحاجة إليه الجماهير والدهماء. فأما الطب فلا يحتاج إليه الأصحاء، والمرضى أقل عدداً بالإضافة إليهم. ثم المريض لا يستغني عن الفقه كما لا يستغني عن الطب، وحاجته إلى الطب لحياته الفانية وإلى الفقه لحياته الباقية، وشتان بين الحالتين. فإذا نسبت ثمرة الطب إلى ثمرة الفقه علمت ما بين الثمرتين، ويدلك على أن الفقه أهم العلوم اشتغال الصحابة رضي الله عنهم بالبحث عنه في مشاورتهم ومفاوضاتهم. ولا يغرُّنك ما يُهوِّل به من يُعظِّم صناعة الكلام من أنه الأصل والفقه فرع له، فإنها كلمة حق ولكنها غير نافعة في هذا المقام، فإن الأصل هو الاعتقاد الصحيح والتصديق الجزم، وذلك حاصل بالتقليد والحاجة إلى البرهان ودقائق الجدل نادرة. والطبيب أيضاً قد يلبس فيقول وجودك ثم وجودك ثم وجود بدنك موقوف على صناعتي، وحياتك منوطة بي، فالحياة والصحة أولاً ثم الاشتغال بالدين ثانياً. ولكن لا يخفى ما تحت هذا الكلام من التمويه وقد نبهنا عليه.

القطب الثالث في أفعال الله تعالى

وجملة أفعال جائزة لا يوصف شيء منها بالوجوب. وندعي في هذا القطب سبعة أمور: ندعي أنه يجوز لله تعالى أن لا يكلف عباده، وأنه يجوز أن يكلفهم ما لا يطاق، وأنه يجوز منه إيلام العباد بغير عوض وجناية، وأنه لا يجب رعاية الأصلح لهم، وأنه لا يجب عليه ثواب الطاعة وعقاب المعصية، وأن العبد لا يجب عليه شيء بالعقل بل بالشرع، وأنه لا يجب على الله بعثه الرسل، وأنه لو بعث لم يكن قبيحاً ولا محالاً بل أمكن إظهار صدقهم بالمعجزة. وجملة هذه الدعاوى تنبني على البحث عن معنى الواجب والحسن والقبيح، ولقد خاض الخائضون فيه وطولوا القول في أن العقل هل يُحسِّن ويُقبِّح وهل يوجِب. وإنما كثر الخبط لأنهم لم يحصلوا معنى هذه الألفاظ واختلافات الاصطلاحات فيها وكيف تخاطب خصمان في أن العقل واجب وهما بعد لم يفهما معنى الواجب، فهما محصلاً متفقاً عليه بينهما، فلنقدم البحث عن الاصطلاحات ولا بد من الوقوف على معنى ستة ألفاظ وهي: الواجب، والحسن، والقبيح، والعبث، والسفه، والحكمة؛ فإن هذه الألفاظ مشتركة ومثار الأغاليط إجمالها، والوجه في أمثال

هذه المباحث أن نطرح الألفاظ ونحصل المعاني في العقل بعبارات أخرى، ثم نلتفت إلى الألفاظ المبحوث عنها وننظر إلى تفاوت الاصطلاحات فيها، فنقول: أما الواجب فإنه يطلق على فعل لا محالة، ويطلق على القديم إنه واجب، وعلى الشمس إذا غربت إنها واجبة. وليس يخفى أن الفعل الذي لا يترجح فعله على تركه ولا يكون صدوره من صاحبه أولى من تركه لا يسمى واجباً وإن ترجح... ومعلوم أن الفعل قد يكون بحيث يُعلم أنه يُستعقب تركه ضرراً، أو يُتوهم، وذلك الضرر إما عاجل في الدنيا وإما آجل في العاقبة، وهو إما قريب محتمل وإما عظيم لا يطاق مثله. فانقسام الفعل ووجوه ترجحه لهذه الأقسام ثابت في العقل من غير لفظ فلنرجع إلى اللفظ فنقول: معلوم أن ما فيه ضرر قريب محتمل لا يسمى واجباً، إذ العطشان إذا لم يبادر إلى شرب الماء تضرر تضرراً قريباً ولا يقال إن الشرب عليه واجب. ومعلوم أن ما لا ضرر فيه أصلاً ولكن في فعله فائدة لا يسمى واجباً، فإن التجارة واكتساب المال والنوافل فيه فائدة ولا يسمى واجباً، بل المخصوص باسم الواجب ما في تركه ضرر ظاهر، فإن كان ذلك في العاقبة، أعني الآخرة، وعُرف بالشرع فنحن نسميه واجباً، وإن كان ذلك في الدنيا وعُرِف بالعقل فقد يُسمى أيضاً ذلك واجباً. فإن من لا يعتقد الشرع قد يقول واجب على الجائع الذي يموت من الجوع أن يأكل إذا وجد الخبز، ونعني بوجوب الأكل ترجح فعله على تركه بما يتعلق من الضرر بتركه، ولسنا نحرم هذا الاصطلاح بالشرع فإن الاصطلاحات مباحة لا حجر فيها للشرع ولا للعقل، وإنما تمنع منه اللغة إذا لم يكن على وفق الموضوع المعروف. فقد تحصلنا على معنيين للواجب ورجع كلاهما إلى التعرض للضرر، وكان أحدهما أعم لا يختص بالآخرة، والآخر أخص وهو اصطلاحنا، وقد يطلق الواجب بمعنى ثالث وهو الذي يؤدي عدم وقوعه إلى أمر محال، كما يقال: ما عُلم وقوعه فوقوعه واجب، ومعناه أنه إن لم يقع يؤدي إلى أن ينقلب العلم جهلاً وذلك محال. وأما الحسن فحظ المعنى منه أن الفعل في حق الفاعل ينقسم إلى ثلاثة أقسام، أحدها أن توافقه أي تلائم غرضه، والثاني أن ينافر غرضه، والثالث أن لا يكون له في فعله ولا في تركه غرض. وهذا الانقسام ثابت في العقل؛ فالذي يوافق الفاعل يسمى حسناً في حقه ولا معنى لحسنه إلا موافقته لغرضه، والذي ينافي غرضه يسمى قبيحاً ولا معنى لقبحه إلا منافاته لغرضه، والذي لا ينافي ولا يوافق يسمى عبثاً، أي لا فائدة فيه أصلاً، وفاعل العبث يسمى عابثاً وربما يسمى سفيهاً، وفاعل القبيح أعني الفعل الذي يَضُرُّ به يسمى سفيهاً، واسم السفيه أصدق منه على العابث، وهذا كله إذا لم يلتفت إلى غير الفاعل أو لم يرتبط الفعل بغرض غير الفاعل، فإن ارتبط بغير الفاعل وكان موافقاً لغرضه سمي حسناً في حق من وافقه، وإن كان منافياً سمي قبيحاً، وإن كان موافقاً لشخص دون شخص سمي في حق أحدهما حسناً وفي حق الآخر قبيحاً. إذ اسم القبيح والحسن بأن الموافقة والمخالفة، وهما أمران إضافيان، مختلفان بالأشخاص ويختلف في حق شخص واحد بالأحوال ويختلف في حال واحد بالأعراض. فرب فعل يوافق الشخص من وجه ويخالفه من وجه فيكون حسناً من وجه قبيحاً من وجه، فمن لا ديانة له يستحسن الزنا بزوجة الغير ويعد الظفر بها نعمة، ويستقبح فعل الذي يكشف عورته ويسميه غمازاً قبيح الفعل والمتدين يسميه محتسباً حسن الفعل، وكل بحسب غرضه يطلق اسم الحسن والقبح. بل يُقتل ملك من الملوك فيَستحسن فعل القاتل جميع أعدائه

ويستقبحه جميع أوليائه. ففي الطباع ما خُلق مايلاً من الألوان الحسان إلى السمرة، فصاحبه يستحسن الأسمر ويعشقه، والذي خُلق مايلاً إلى البياض المشرب بالحمرة يستقبحه ويستكرهه ويسفه عقل المستحسن المستهتر به. فبهذا يتبين على القطع أن الحسن والقبيح عبارتان عن الخلق كلهم عن أمرين إضافيين يختلفان بالإضافات عن صفات الذوات التي لا تختلف بالإضافة. فلا جرم جاز أن يكون الشيء حسناً في حق زيد قبيحاً في حق عمرو، ولا يجوز أن يكون الشيء أسود في حق زيد أبيض في حق عمرو لما لم تكن الألوان من الأوصاف الإضافية. فإذا فهمت المعنى فافهم أن الاصطلاح في لفظ الحسن أيضاً ثلاثة: فقائل يطلقه على كل ما يوافق الغرض عاجلاً كان أو آجلاً، وقائل يخصص بما يوافق الغرض في الآخرة وهو الذي حسنه الشرع، أي حث عليه ووعد بالثواب عليه، وهو اصطلاح أصحابنا، والقبيح عند كل فريق ما يقابل الحسن، فالأول أعم وهذا أخص، وبهذا الاصطلاح قد يسمي بعض من لا يتحاشى فعل الله تعالى قبيحاً إذ كان لا يوافق غرضهم، ولذلك تراهم يسبون الفلك والدهر ويقولون خرف الفلك وما أقبح أفعاله ويعلمون أن الفاعل خالق الفلك. ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر؛ وفيه اصطلاح ثالث إذ قد يقال فعل الله تعالى حسن كيف كان مع إنه لا غرض في حقه، ويكون معناه أنه لا تبعة عليه فيه ولا لائمة وأنه فاعل في مُلكه الذي لا يساهم فيه ما يشاء. وأما الحكمة فتطلق على معنيين: أحدهما الاحاطة المجردة بنظم الأمور ومعانيها الدقيقة والجليلة والحكم عليها بأنها كيف ينبغي أن تكون حتى تتم منها الغاية المطلوبة بها، والثاني أن تنضاف إليه القدرة على إيجاد الترتيب والنظام واتقانه وإحكامه فيقال حكيم من الحكمة، وهو نوع من العلم، ويقال حكيم من الأحكام وهو نوع من الفعل. فقد اتضح لك معنى هذه الألفاظ في الأصل ولكن ههنا ثلاث غلطات للوهم يستفاد من الوقوف عليها الخلاص من إشكالات تغتر بها طوائف كثيرة. الغلطة الأولى: أن الإنسان قد يطلق اسم القبيح على ما يخالف غرضه وإن كان يوافق غرض غيره، ولكنه لا يلتفت إلى الغير، فكل طبع مشغوف بنفسه ومستحقر ما عداه، ولذلك يحكم على الفعل مطلقاً بأنه قبيح وقد يقول أنه قبيح في عينه، وسببه أنه قبيح في حقه بمعنى أنه مخالف لغرضه، ولكن أغراضه كأنه كل العالم في حقه، فيتوهم أن المخالف لحقه مخالف في نفسه، فيضيف القبح إلى ذات الشيء ويحكم بالاطلاق. فهو مصيب في أصل الاستقباح ولكنه مخطيء في حكمه بالقبح على الاطلاق، وفي إضافة القبح إلى ذات الشيء ومنشؤه غفلته عن الالتفات إلى غيره، بل عن الالتفات إلى بعض أحوال نفسه، فإنه قد يستحسن في بعض أحواله غير ما يستقبحه مهما انقلب موافقاً لغرضه. الغلطة الثانية فيه: أن ما هو مخالف للأغراض في جميع الأحوال إلا في حالة نادرة، فقد يحكم الإنسان عليه مطلقاً بأنه قبيح لذهوله عن الحالة النادرة ورسوخ غالب الأحوال في نفسه واستيلائه على ذكره، فيقضي مثلاً على الكذب بأنه قبيح مطلقاً في كل حال وإن قبحه لأنه كذب لذاته فقط لا لمعنى زائد، وسبب ذلك غفلته عن ارتباط مصالح كثيرة بالكذب في بعض الأحوال، ولكن لو وقعت تلك الحالة ربما نفر طبعه عن استحسان الكذب لكثرة إلفه باستقباحه، وذلك لأن الطبع ينفر عنه من أول الصبا بطريق التأديب والاستصلاح، ويُلقي إليه أن الكذب قبيح في نفسه وأنه لا ينبغي أن يكذب قط، فهو قبيح

ولكن بشرط يلازمه في أكثر الأوقات وإنما يقع نادراً، فلذلك لا يُنبه على ذلك الشرط ويُغرس في طبعه قبحه والتنفير عنه مطلقاً. الغلطة الثالثة: سبق الوهم إلى العكس، فإن ما رئي مقروناً بالشيء يُظن أن الشيء أيضاً لا محالة يكون مقروناً به مطلقاً، ولا يدري أن الأخص أبداً يكون مقروناً بالأعم، وأما الأعم فلا يلزم أن يكون مقروناً بالأخص. ومثاله ما يقال من أن السليم، أعني الذي نهشته الحية، يخاف من الحبل المبرقش اللون، وهو كما قيل، وسببه أنه أدرك المؤذي وهو متصور بصورة حبل مبرقش، فإذا أدرك الحبل سبق الوهم إلى العكس وحكم بأنه مؤذ فينفر الطبع تابعاً للوهم والخيال وإن كان العقل مكذباً به، بل الانسان قد ينفر عن أكل الخبيص[٦٢] الأصفر لشبهه بالعذرة[٦٣]، فيكاد يتقيأ عند قول القائل إنه عذرة، يتعذر عليه تناوله مع كون العقل مكذباً به، وذلك لسبق الوهم إلى العكس فإنه أدرك المستقذر رطباً أصفر فإذا رأى الرطب الأصفر حكم بأنه مستقذر، بل في الطبع ما هو أعظم من هذا فإن الأسامي التي تطلق عليها الهنود والزنوج لما كان يقترن قبح المسمى به يؤثر في الطبع ويبلغ إلى حد لو سمى به أجمل الأتراك والروم لنفر الطبع عنه، لأنه أدرك الوهم القبيح مقروناً بهذا الإسم فيحكم بالعكس، فإذا أدرك الإسم حكم بالقبح على المسمى ونفر الطبع. وهذا مع وضوحه للعقل فلا ينبغي أن يُغفل عنه لأن إقدام الخلق وإحجامهم في أقوالهم وعقائدهم وأفعالهم تابع لمثل هذه الأوهام. وأما اتباع العقل الصِرف فلا يقوى عليه إلا أولياء الله تعالى الذين أراهم الله الحق حقاً وقواهم على اتباعه، وإن أردت أن تجرب هذا في الاعتقادات فأورد على فهم العامي المعتزلي مسألة معقولة جلية فيسارع إلى قبولها، فلو قلت له إنه مذهب الأشعري رضي الله عنه لنفر وامتنع عن القبول وانقلب مكذباً بعين ما صدق به مهما كان سيء الظن بالأشعري، إذ كان قبح ذلك في نفسه منذ الصبا. وكذلك تقرر أمراً معقولاً عند العامي الأشعري ثم تقول له إن هذا قول المعتزلي فينفر عن قبوله بعد التصديق ويعود إلى التكذيب. ولست أقول هذا طبع العوام بل طبع أكثر من رأيته من المتوسمين بإسم العلم، فإنهم لم يفارقوا العوام في أصل التقليد، بل أضافوا إلى تقليد المذهب تقليد الدليل فهم في نظرهم لا يطلبون الحق بل يطلبون طريق الحيلة في نصرة ما اعتقدوه حقاً بالسماع والتقليد، فإن صادفوا في نظرهم ما يؤكد عقائدهم قالوا قد ظفرنا بالدليل، وإن ظهر لهم ما يُضعف مذهبهم قالوا قد عرضت لنا شبهة، فيضعون الاعتقاد المتلقف بالتقليد أصلاً وينبذون بالشبهة كل ما يخالفه، وبالدليل كل ما يوافقه، وإنما الحق ضده، وهو أن لا يعتقد شيئاً أصلاً وينظر إلى الدليل ويسمي مقتضاه حقاً ونقيضه باطلاً وكل ذلك منشؤه الاستحسان والاستقباح بتقديم الإلفه والتخلق بأخلاق منذ الصبا. فإذا وقفت على هذه المثارات سهل عليك دفع الاشكالات. فإن قيل: فقد رجع كلامكم إلى أن الحسن والقبيح يرجعان إلى الموافقة والمخالفة للأغراض، ونحن نرى العاقل يستحسن ما لا فائدة له فيه ويستقبح ما له فيه فائدة. أما الاستحسان فمن رأى إنساناً أو حيواناً مشرفاً على الهلاك استحسن إنقاذه ولو بشربة ماء مع أنه ربما لا يعتقد الشرع ولا يتوقع منه غرضاً في الدنيا ولا هو بمرأى من الناس حتى ينتظر عليه ثناء، بل يمكن أن يقدر انتفاء

[62] نوع من الحلوى يصنع من دقيق وتمر وسمن (المعجم العربي الأساسي)

[63] الغائط (المعجم الوجيز)

كل غرض ومع ذلك يرجح جهة الانقاذ على جهة الاهمال بتحسين هذا وتقبيح ذلك. وأما الذي يستقبح مع الأغراض، كالذي يُحمل على كلمة الكفر بالسيف والشرع قد رخص له في اطلاقها، فإنه قد يُستحسن منه الصبر على السيف وترك النطق به. أو الذي لا يعتقد الشرع وحُمل بالسيف على نقض عهد، ولا ضرر عليه في نقضه وفي الوفاء به هلاكه، فإنه يستحسن الوفاء بالعهد والامتناع من النقض... وإذا تتبع الإنسان الأخلاق والعادات رأى شواهد هذا خارجة عن الحصر، فهذا هو السبب الذي هو غلط المغترين بظاهر الأمور، الذاهلين عن أسرار أخلاق النفوس، الجاهلين بأن هذا الميل وأمثاله يرجع إلى طاعة النفس بحكم الفطرة والطبع بمجرد الوهم والخيال الذي هو غلط بحكم العقل ولكن خُلقت قوى النفس مطيعة للأوهام والتخيلات بحكم اجراء العادات، حتى إذا تخيل الإنسان طعاماً طيباً بالتذكر أو بالرؤية سال في الحال لعابه وتحلبت أشداقه، وذلك بطاعة القوة التي سخرها الله تعالى لإفاضة اللعاب المعين على المضغ للتخيل والوهم، فإن شأنها أن تنبعث بحسب التخيل وإن كان الشخص عالماً بأنه ليس يريد الإقدام على الأكل بصوم أو بسبب آخر. وكذلك يتخيل الصورة الجميلة التي يشتهي مجامعتها، فكما ثبت ذلك في الخيال انبعثت القوة الناشرة لآلة الفعل وساقت الرياح إلى تجاويف الأعصاب وملأتها، وثارت القوة المأمورة بصب المذي الرطب المعين على الوقاع، وذلك كله مع التحقيق بحكم العقل للامتناع عن الفعل في ذلك الوقت. ولكن الله تعالى خلق هذه القوى بحكم طرد العادة مطيعة مسخرة تحت حكم الخيال، والوهم ساعد العقل أو لم يساعده، فهذا وأمثاله منشأ الغلط في سبب ترجيح أحد جانبي الفعل على الآخر. وكل ذلك راجع إلى الأغراض، فأما النطق بكلمة الكفر وإن كان كذلك فلا يستقبحه العاقل تحت السيف البتة بل ربما يستقبح الإصرار، فإن استحسن الإصرار فله سببان: أحدهما، اعتقاده أن الثواب على الصبر والاستسلام أكثر، والآخر ما ينتظر من الثناء عليه بصلابته في الدين. فكم من شجاع يمتطي متن الخطر ويتهجم على عدد يعلم أنه لا يطيقهم ويستحقر ما يناله بما يعتاضه عنه من لذة الثناء والحمد بعد موته. وكذلك الامتناع عن نقض العهد بسببه ثناء الخلق على من يفي بالعهد، وتواصيهم به على مر الأوقات لما فيها من مصالح الناس. فإن قَدر حيث لا ينتظر ثناء فسببه حكم الوهم من حيث أنه لم يزل مقروناً بالثناء الذي هو لذيذ، والمقرون باللذيذ لذيذ، كما أن المقرون بالمكروه مكروه كما سبق في الأمثلة. فهذا ما يحتمله هذا المختصر من بث أسرار هذا الفصل، وإنما يعرف قدره من طال في المعقولات نظره، وقد استفدنا بهذه المقدمة إيجاز الكلام في الدعاوى فلنرجع إليها. الدعوى الأولى: ندعي أنه يجوز لله تعالى أن لا يخلق الخلق، وإذا خلق فلم يكن ذلك واجباً عليه، وإذا خلقهم فله أن لا يكلفهم، وإذا كلفهم فلم يكن ذلك واجباً عليه. وقالت طائفة من المعتزلة يجب عليه الخلق، والتكليف واجب، غير مفهوم. فإنا بينا أن المفهوم عندنا من لفظ الواجب ما ينال تاركه ضرر، إما عاجلاً وإما آجلاً، أو ما يكون نقيضه محال، والضرر محال في حق الله تعالى. وليس في ترك التكليف وترك الخلق لزوم محال، إلا أن يقال كان يؤدي ذلك إلى خلاف ما سبق به العلم في الأزل وما سبقت به المشيئة في الأزل، فهذا حق وهو بهذا التأويل واجب، فإن الإرادة إذا فُرضت موجودة، أو العلم إذا فُرض متعلقاً بالشيء، كان حصول المراد والمعلوم واجباً لا محالة. فإن قيل: إنما يجب عليه ذلك

لفائدة الخلق لا لفائدة ترجع إلى الخالق سبحانه وتعالى، قلنا: الكلام في قولكم لفائدة الخلق للتعليل، والحكم المعلل هو الوجوب، ونحن نطالبكم بتفهيم الحكم فلا يعنيكم ذكر العلة. فما معنى قولكم إنه يجب لفائدة الخلق وما معنى الوجوب ونحن لا نفهم من الوجوب إلا المعاني الثلاثة، وهي منعدمة، فإن أردتم معنى رابعاً ففسروه أولاً ثم اذكروا علته، فإنا ربما لا ننكر أن للخلق في الخلق فائدة، وكذا في التكليف، ولكن ما فيه فائدة غيره لم يجب عليه إذا لم يكن له فائدة في فائدة غيره. وهذا لا مخرج عنه أبداً، على أنا نقول إنما يستقيم هذا الكلام في الخلق لا في التكليف، ولا يستقيم في هذا الخلق الموجود بل في أن يخلقهم في الجنة متنعمين، من غير هم وضرر وغم وألم، وأما هذا الخلق الموجود فالعقلاء كلهم قد تمنوا العدم، وقال بعضهم: ليتني كنت نسياً منسياً، وقال آخر ليتني لم أك شيئاً، وقال آخر ليتني كنت تبنة رفعها من الأرض، قال آخر يشير إلى طائر ليتني كنت ذلك الطائر. وهذا قول الأنبياء والأولياء وهم العقلاء، فبعضهم يتمنى عدم الخلق وبعضهم يتمنى عدم التكليف بأن يكون جماداً أو طائراً، فليت شعري كيف يستجيز العاقل في أن يقول: للخلق في التكليف فائدة وإنما معنى الفائدة نفي الكلفة، والتكليف في عينه إلزام كلفة وهو ألم، وإن نُظر إلى الثواب فهو الفائدة، وكان قادراً على إيصاله إليهم بغير تكليف، فإن قيل: الثواب إذا كان باستحقاق كان ألذ وأوقع من أن يكون بالامتنان والابتداء، والجواب: أن الاستعاذة بالله تعالى من عقل ينتهي إلى التكبر على الله عز وجل والترفع من احتمال منته وتقدير اللذة في الخروج من نعمته أولى من الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم. وليت شعري كيف يُعد من العقلاء من يخطر بباله مثل هذه الوساوس، ومن يستثقل المقام أبد الآباد في الجنة من غير تقدم تعب وتكليف أخس من أن يناظر أو يخاطب. هذا لو سلم أن الثواب بعد التكليف يكون مستحقاً، وسنبين نقيضه. ثم ليت شعري الطاعة التي بها يُستحق الثواب من أين وجدها العبد؟ وهل لها سبب سوى وجوده وقدرته وإرادته وصحة أعضائه وحضور أسبابه؟ وهل لكل ذلك مصدر إلا فضل الله ونعمته. فنعوذ بالله من الانخلاع عن غريزة العقل بالكلية، فإن هذا الكلام من هذا النمط، فينبغي أن يسترزق الله تعالى عقلاً لصاحبه ولا يشتغل بمناظرته. الدعوى الثانية: إن لله تعالى أن يكلف العباد ما يطيقونه وما لا يطيقونه، وذهب المعتزلة إلى إنكار ذلك، ومعتقد أهل السنة أن التكليف له حقيقة في نفسه وهو أنه كلام وله مصدر وهو المُكلِف، ولا شرط فيه إلا كونه متكلماً، وله مورد وهو المكلف وشرطه أن يكون فاهماً للكلام فلا يسمى الكلام مع الجماد والمجنون خطاباً ولا تكليفاً، والتكليف نوع خطاب وله متعلق وهو المكلف به وشرطه أن يكون مفهوماً فقط، وأما كونه ممكناً فليس بشرط لتحقيق الكلام فإن التكليف كلام، فإذا صدر ممن يفهم مع من يفهم فيما يُفهم وكان المخاطَب دون المخاطِب سمي تكليفاً، وإن كان مثله سمي التماساً، وإن كان فوقه سمي دعاء وسؤالاً، فالاقتضاء في ذاته واحد. وهذه الأسامي تختلف عليه باختلاف النسبة، وبرهان جواز ذلك أن استحالته لا تخلو إما أن تكون لامتناع تصور ذاته، كاجتماع السواد والبياض، أو كان لأجل الاستقباح، وباطل أن يكون امتناعه لذاته، فإن السواد والبياض لا يمكن أن يُفرض مجتمعاً...

القطب الرابع إثبات نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وإثبات ما أخبر هو عنه

وفيه أربعة أبواب:

الباب الأول: في اثبات نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم.

الباب الثاني: في بيان أن ما جاء به من الحشر والنشر والصراط والميزان وعذاب القبر حق، وفيه مقدمة وفصلان.

الباب الثالث: فيه نظر في ثلاثة أطراف.

الباب الرابع: في بيان من يجب تكفيره من الفرق ومن لا يجب، والاشارة إلى القوانين التي ينبغي أن يعول عليها في التكفير، وبه اختتام الكتاب.

الباب الأول: في اثبات نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وإنما نفتقر إلى إثبات نبوته، على الخصوص، لثلاثة فرق: الفرقة الأولى، العيسوية: حيث ذهبوا إلى أنه رسول إلى العرب فقط لا إلى غيرهم، وهذا ظاهر البطلان فإنهم اعترفوا بكونه رسولاً حقاً، ومعلوم أن الرسول لا يكذب، وقد ادعى هو أنه رسول مبعوث إلى الثقلين، وبعث رسوله إلى كسرى وقيصر وسائر ملوك العجم وتواتر ذلك منه، فما قالوه محال متناقض. الفرقة الثانية، اليهود: فإنهم انكروا صدقه لا بخصوص نظر فيه وفي معجزاته، بل زعموا أنه لا نبي بعد موسى عليه السلام، فأنكروا نبوة محمد وعيسى عليهما السلام. فينبغي أن تثبت عليهم نبوة عيسى لأنه ربما يقصر فهمهم عن درك إعجاز القرآن ولا يقصرون عن درك إعجاز إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، فيقال لهم ما الذي حملكم على التفريق بين من يُستدل على صدقه بإحياء الموتى وبين من يُستدل بقلب العصا ثعباناً ؟ ولا يجدون إليه سبيلاً البتة، إلا أنهم ضلوا بشبهتين: إحداهما، قولهم: النسخ محال في نفسه لأنه يدل على البدء والتغيير وذلك محال على الله تعالى، والثانية لفهم بعض الملحدة أن يقولوا: قد قال موسى عليه السلام: عليكم بديني ما دامت السموات والأرض، وإنه قال إني خاتم الأنبياء. أما الشبهة الأولى فبطلانها بفهم النسخ، وهو عبارة عن الخطاب الدال على ارتفاع الحكم الثابت المشروط استمراره بعد لحقوق خطاب يرفعه... فهكذا ينبغي أن يُفهم اختلاف أحكام الشرائع. فإن ورود النبي ليس بناسخ لشرع من قبله بمجرد بعثته، ولا في معظم الأحكام، ولكن في بعض الأحكام كتغير قبلة وتحليل محرم وغير ذلك، وهذه المصالح تختلف بالأعصار والأحوال فليس فيه ما يدل على التغير، ولا على الاستبانة بعد الجهل، ولا على التناقض. ثم هذا إنما يستمر لليهود إذ لو اعتقدوا أنه لم يكن شريعة من لدن آدم إلى زمن موسى لم ينكروا وجود نوح وإبراهيم وشرعهما، ولا يتميزون فيه عمن ينكر نبوة موسى وشرعه، وكل ذلك إنكار ما عُلم على القطع بالتواتر. وأما الشبهة الثانية فسخيفة من وجهين. أحدهما، أنه لو صح ما قالوه عن موسى لما ظهرت المعجزات على يد عيسى، فإن ذلك تصديق بالضرورة، فكيف يُصدِّق الله بالمعجزة من يكذب موسى وهو أيضاً مصدق له، أفتنكرون معجزة عيسى وجوداً أو تنكرون إحياء الموتى دليلاً على صدق المتحدي؟ فإن أنكروا شيئاً منهم لزمهم في

شرع موسى لزوماً لا يجدون عنه محيصاً، وإذا اعترفوا به لزمهم تكذيب من نقل إليهم من موسى عليه السلام قوله إني خاتم الأنبياء. والثاني: أن هذه الشبهة إنما لقنوها بعد بعثة نبينا محمد عليه السلام وبعد وفاته، ولو كانت صحيحة لاحتج اليهود بها وقد حُمِلوا بالسيف على الاسلام، وكان رسولنا عليه السلام مصدِقاً بموسى عليه السلام وحاكِماً على اليهود بالتوراة في حكم الرجم وغيره، فلا عرض عليه من التوارة ذلك، وما الذي صرفهم عنه ومعلوم قطعاً أن اليهود لم يحتجوا به لأن ذلك لو كان لكان مفحماً لا جواب عنه ولتواتر نقله، ومعلوم أنهم لم يتركوه مع القدرة عليه، ولقد كانوا يحرصون على الطعن في شرعه بكل ممكن حمايةً لدمائهم وأموالهم ونسائهم، فإذا ثبت عليهم نبوة عيسى أثبتنا نبوة نبينا عليه السلام بما نثبتها على النصارى. الفرقة الثالثة، وهم يجوزون النسخ ولكنهم ينكرون نبوة نبينا من حيث أنهم ينكرون معجزته في القرآن. وفي إثبات نبوته بالمعجزة طريقتان: الطريقة الأولى، التمسك بالقرآن، فإنا نقول: لا معنى للمعجزة إلا ما يقترن بتحدي النبي عند استشهاده على صدقه على وجه يعجز الخلق عن معارضته، وتحديه على العرب مع شغفهم بالفصاحة وإغراقهم فيها متواتر، وعدم المعارضة معلوم، إذ لو كان لظهر، فإن أرذل الشعراء لما تُحدوا بشعرهم وعورضوا ظهرت المعارضات والمناقضات الجارية بينهم، فإذاً لا يمكن إنكار تحديه بالقرآن ولا يمكن إنكار اقتدار العرب على طريق الفصاحة ولا يمكن انكار حرصهم على دفع نبوته بكل ممكن حماية لدينهم ودمهم ومالهم وتخلصاً من سطوة المسلمين وقهرهم، ولا يمكن إنكار عجزهم لأنهم لو قدروا لفعلوا، فإن العادة قاضية بالضرورة بأن القادر على دفع الهلاك عن نفسه يشتغل بدفعه، ولو فعلوا لظهر ذلك ونُقِل. فهذه مقدمات بعضها بالتواتر وبعضها بجاري العادات، وكل ذلك مما يورث اليقين فلا حاجة إلى التطويل. وبمثل هذا الطريق تثبت نبوة عيسى ولا يقدر النصراني على إنكار شيء من ذلك، فإنه يمكن أن يُقابل بعيسى فينكر تحديه بالنبوة أو استشهاده بإحياء الموتى أو وجود إحياء الموتى أو عدم المعارضة أو يقال عورض ولم يظهر، وكل ذلك مجاحدات لا يقدر عليها المعترف بأصل النبوات. فإن قيل: ما وجه إعجاز القرآن؟ قلنا الجزالة والفصاحة مع النظم العجيب والمنهاج الخارج عن مناهج كلام العرب في خطبهم وأشعارهم وسائر صنوف كلامهم، والجمع بين هذا النظم وهذه الجزالة معجز خارج عن مقدور البشر، نعم ربما يُرى للعرب أشعار وخطب حكم فيها بالجزالة، وربما يُنقل عن بعض من قصد المعارضة مراعاة هذا النظم بعد تعلمه من القرآن، ولكن من غير جزالة بل مع ركاكة كما يحكى عن ترهات مسيلمة الكذاب حيث قال: الفيل وما أدراك ما الفيل له ذنب وثيل وخرطوم طويل. فهذا وأمثاله ربما يقدر عليه مع ركاكة يستغثها الفصحاء ويستهزؤون بها، وأما جزالة القرآن فقد قضى كافة العرب منها العجب ولم ينقل عن واحد منهم تشبث بطعن في فصاحته، فهذا إذاً معجز وخارج عن مقدور البشر من هذين الوجهين، أعني من اجتماع هذين الوجهين، فإن قيل: لعل العرب اشتغلت بالمحاربة والقتال فلم تعرج على معارضة القرآن ولو قصدت لقدرت عليه، أو منعتها العوائق عن الاشتغال به، والجواب أن ما ذكروه هوس، فإن دفع تحدي المتحدي بنظم كلام أهون من الدفع بالسيف مع ما جرى على العرب من المسلمين بالأسر والقتل والسبي وشن الغارات، ثم ما ذكروه غير دافع غرضنا، فإن انصرافهم عن المعارضة لم يكن إلا بصرف من الله تعالى، والصرف عن

المقدور المعتاد من أعظم المعجزات، فلو قال نبي آية صدقي أني في هذا اليوم أحرك أصبعي ولا يقدر أحد من البشر على معارضتي، فلم يعارضه أحد في ذلك اليوم، ثبت صدقه، وكان فقد قدرتهم على الحركة مع سلامة الأعضاء من أعظم المعجزات. وإن فُرض وجود القدرة ففقد داعيتهم وصرفهم عن المعارضة من أعظم المعجزات، مهما كانت حاجتهم ماسةً إلى الدفع باستيلاء النبي على رقابهم وأموالهم، وذلك كله معلوم على الضرورة. فهذا طريق تقدير نبوته على النصارى، ومهما تشبثوا بإنكار شيء من هذه الأمور الجليلة فلا تشتغل إلا بمعارضتهم بمثله في معجزات عيسى عليه السلام. الطريقة الثانية: أن تثبت نبوته بجملة من الأفعال الخارقة للعادات التي ظهرت عليه، كانشقاق القمر، ونطق العجماء، وتفجر الماء من بين أصابعه، وتسبيح الحصى في كفه، وتكثير الطعام القليل، وغيره من خوارق العادات، وكل ذلك دليل على صدقه. فإن قيل: آحاد هذه الوقائع لم يبلغ نقلها مبلغ التواتر. قلنا: ذلك أيضاً إن سلم فلا يقدح في العرض مهما كان المجموع بالغاً مبلغ التواتر، وهذا كما أن شجاعة علي رضوان الله عليه وسخاوة حاتم معلومان بالضرورة على القطع تواتراً، وآحاد تلك الوقائع لم تثبت تواتراً، ولكن يُعلم من مجموع الآحاد على القطع ثبوت صفة الشجاعة والسخاوة، فكذلك هذه الأحوال العجيبة بالغة جملتها مبلغ التواتر، لا يستريب فيها مسلم أصلاً. فإن قال قائل من النصارى: هذه الأمور لم تتواتر عندي لا جملتها ولا آحادها. فيقال: ولو انحاز يهودي إلى قطر من الأقطار ولم يخالط النصارى وزعم أنه لم تتواتر عنده معجزات عيسى، وإن تواترت فعلى لسان النصارى وهم مهتمون به، فبماذا ينفصلون عنه؟ ولا انفصال عنه إلا أن يقال: ينبغي أن يخالط القوم الذين تواتر ذلك بينهم حتى يتواتر ذلك إليك، فإن الأصم لا تتواتر عنده الأخبار، وكذا المتصامم، فهذا أيضاً عذرنا عند إنكار واحد منهم التواتر على هذا الوجه.

الباب الثاني في بيان وجوب التصديق بأمور ورد بها الشرع وقضى بجوازها العقل، وفيه مقدمة وفصلان. أما المقدمة: فهو أن ما لا يُعلم بالضرورة ينقسم إلى ما يُعلم بدليل العقل دون الشرع، وإلى ما يُعلم بالشرع دون العقل، وإلى ما يُعلم بهما. أما المعلوم بدليل العقل دون الشرع فهو حدث العالم ووجود المُحدِث وقدرته وعلمه وارادته، فإن كل ذلك ما لم يُثبَت لم يَثبُت الشرع، إذ الشرع يبنى على الكلام، فإن لم يُثبت كلام النفس لم يَثبت الشرع. فكل ما يتقدم في الرتبة على كلام النفس يستحيل إثباته بكلام النفس وما يستند إليه، ونفس الكلام أيضاً فيما اخترناه لا يمكن إثباته بالشرع... وأما المعلوم بمجرد السمع فتخصيص أحد الجائزين بالوقوع فإن ذلك من موافق العقول، وإنما يُعرف من الله تعالى بوحي وإلهام، ونحن نعلم من الوحي إليه بسماع كالحشر والنشر والثواب والعقاب وأمثالهما، وأما المعلوم بهما فكل ما هو واقع في مجال العقل ومتأخر في الرتبة عن إثبات كلام الله تعالى كمسألة الرؤية وانفراد الله تعالى بخلق الحركات والأغراض كلها وما يجري هذا المجرى، ثم كلما ورد السمع به يُنظر، فإن كان العقل مجوِّزاً له وجب التصديق به قطعاً إن كانت الأدلة السمعية قاطعة في متنها، ومستندها لا يتطرق إليها احتمال، وجب التصديق بها ظناً إن كانت ظنية، فإن وجوب التصديق باللسان والقلب عمل يُبنى على الأدلة الظنية كسائر الأعمال. فنحن نعلم قطعاً إنكار الصحابة على من يدعي كون العبد خالقاً لشيء من الأشياء وعرض من

الأعراض، وكانوا ينكرون ذلك بمجرد قوله تعالى "خالق كل شيء"، ومعلوم أنه عام قابل للتخصيص فلا يكون عمومه إلا مظنوناً، إنما صارت المسألة قطعية بالبحث على الطرق العقلية التي ذكرناها، ونعلم أنهم كانوا ينكرون ذلك قبل البحث عن الطرق العقلية ولا ينبغي أن يُعتقد بهم أنهم لم يلتفتوا إلى المدارك الظنية إلا في الفقهيات بل اعتبروها أيضاً في التصديقات الاعتقادية والقولية. وأما ما قضى العقل باستحالته فيجب فيه تأويل ما ورد السمع به، ولا يُتصور أن يشمل السمع على قاطع مخالف للمعقول، وظواهر أحاديث التشبيه أكثرها غير صحيحة، والصحيح منها ليس بقاطع بل هو قابل للتأويل، فإن توقف العقل في شيء من ذلك فلم يقض فيه باستحالة ولا جواز وجب التصديق أيضاً لأدلة السمع، فيكفي في وجوب التصديق انفكاك العقل عن القضاء بالإحالة، وليس يشترط اشتماله على القضاء لتجويز، وبين الرتبتين فرق ربما يزل ذهن البليد حتى لا يدرك الفرق بين قول القائل: اعلم أن الأمر جائز، وبين قوله: لا أدري إنه محال أم جائز، وبينهما ما بين السماء والأرض، إذ الأول جائز على الله تعالى والثاني غير جائز، فإن الأول معرفة بالجواز، والثاني عدم معرفة بالاحالة، ووجوب التصديق جائز في القسمين جميعاً فهذه هي المقدمة. أما الفصل الأول ففي بيان قضاء العقل بما جاء الشرع به من الحشر والنشر وعذاب القبر والصراط والميزان. أما الحشر فيُعنى به إعادة الخلق وقد دلت عليه القواطع الشرعية، وهو ممكن بدليل الابتداء. فإن الاعادة خلق ثان ولا فرق بينه وبين الابتداء، وإنما يسمى إعادة بالاضافة إلى الابتداء السابق، والقادر على الإنشاء والابتداء قادر على الإعادة وهو المعني بقوله:{قل يحييها الذي أنشأها أول مرة}... وأما عذاب القبر فقد دلت عليه قواطع الشرع، إذ تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة رضي الله عنهم بالاستعاذة منه في الأدعية، واشتهر قوله عند المرور بقبرين: إنهما ليعذبان، ودل عليه قوله تعالى:{وحاق بآل فرعون سوء العذاب النار يعرضون عليها غدواً وعشياً}، الآية، وهو ممكن، فيجب التصديق به. ووجه إمكانه ظاهر، وإنما تنكره المعتزلة من حيث يقولون إنا نرى شخص الميت مشاهدة وهو غير معذب، وإن الميت ربما تفترسه السباع وتأكله، وهذا هوس. أما مشاهدة الشخص فهو مشاهدة لظواهر الجسم، والمدرك للعقاب جزء من القلب أو من الباطن كيف كان، وليس من ضرورة العذاب ظهور حركة في ظاهر البدن، بل الناظر إلى ظاهر النائم لا يشاهد ما يدركه النائم من اللذة عند الاحتلام ومن الألم عند تخيل الضرب وغيره، ولو انتبه النائم وأخبر عن مشاهداته وآلامه ولذاته من لم يجر له عهد بالنوم لبادر إلى الإنكار اغتراراً بسكون ظاهر جسمه، كمشاهدة إنكار المعتزلة لعذاب القبر. وأما الذي تأكله السباع فغاية ما في الباب أن يكون بطن السبع قبراً، فإعادة الحياة إلى جزء يدرك العذاب ممكن، فما كل متألم يدرك الألم من جميع بدنه. وأما سؤال منكر ونكير فحق، والتصديق به واجب لورود الشرع به وامكانه، فإن ذلك لا يستدعي منهما إلا تفهيماً بصوت أو بغير صوت، ولا يستدعي منه إلا فهماً، ولا يستدعي الفهم إلا حياة، والإنسان لا يفهم بجميع بدنه بل بجزء من باطن قلبه، وإحياء جزء يفهم السؤال ويجيب ممكن مقدور عليه، فيبقى قول القائل إنا نرى الميت ولا نشاهد منكراً ونكيراً ولا نسمع صوتهما في السؤال ولا صوت الميت في الجواب، فهذا يلزمه منه أن ينكر مشاهدة النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام وسماعه كلامه وسماع جبريل جوابه

ولا يستطيع مصدق الشرع أن ينكر ذلك، إذ ليس فيه إلا أن الله تعالى خلق له سماعاً لذلك الصوت ومشاهدة لذلك الشخص، ولم يُخلق للحاضرين عنده ولا لعائشة رضي الله تعالى عنها وقد كانت تكون عنده حاضرة في وقت ظهور بركات الوحي، فإنكار هذا مصدره الإلحاد وإنكار سعة القدرة، وقد فرغنا عن إبطاله. ويلزم منه أيضاً إنكار ما يشاهده النائم ويسمعه من الأصوات الهائلة المزعجة، ولولا التجربة لبادر إلى الإنكار كل من سمع من النائم حكاية أحواله، فتعساً لمن ضاقت حوصلته عن تقدير اتساع القدرة لهذه الأمور المستحقرة بالإضافة إلى خلق السموات والأرض وما بينهما، مع ما فيهما من العجائب. والسبب الذي ينفر طباع أهل الضلال عن التصديق بهذه الأمور بعينه منفر عن التصديق بخلق الانسان من نطفة قذرة مع ما فيه من العجائب والآيات، أولاً أن المشاهدة تضطره إلى التصديق فإذاً ما لا برهان على إحالته لا ينبغي أن ينكر بمجرد الاستبعاد. وأما الميزان فهو أيضاً حق وقد دلت عليه قواطع السمع، وهو ممكن فوجب التصديق به. فإن قيل: كيف توزن الأعمال وهي أعراض وقد انعدمت، والمعدوم لا يوزن؟ وإن قُدرت إعادتها وخلقها في جسم الميزان كان محالاً لاستحالة إعادة الأعراض. ثم كيف تُخلق حركة يد الانسان وهي طاعته في جسم الميزان؟ أيتحرك بها الميزان فيكون ذلك حركة الميزان لا حركة يد الانسان، أم لا تتحرك فتكون الحركة قد فاتت بجسم ليس هو متحركاً بها، وهو محال؟ ثم إن تحرك فيتفاوت من الميزان بقدر طول الحركات وكثرتها لا بقدر مراتب الأجور، فرُب حركة بجرء من البدن يزيد إثمها على حركة جميع البدن فراسخ فهذا محال. فنقول: قد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا فقال: "توزن صحائف الأعمال فإن الكرام الكاتبين يكتبون الأعمال في صحائف هي أجسام، فإذا وضعت في الميزان خلق الله تعالى في كفتها ميلاً بقدر رتبة الطاعات وهو على ما يشاء قدير". فإن قيل: فأي فائدة في هذا ؟ وما معنى المحاسبة؟ قلنا: لا نطلب لفعل الله تعالى فائدة: {لا يسأل عما يفعل وهو يسألون}. ثم قد دللنا على هذا. ثم أي بُعد في أن تكون الفائدة فيه أن يشاهد العبد مقدار أعماله ويعلم أنه مُجزى بها بالعدل أو يُتجاوز عنه باللطف، ومن يعزم على معاقبة وكيله بجنايته في أمواله أو يعزم على الإبراء فمن أين يبعد أن يُعرِّفه مقدار جنايته بأوضح الطرق ليعلم أنه في عقوبته عادل وفي التجاوز عنه متفضل. هذا إن طُلِبت الفائدة لأفعال الله تعالى، وقد سبق بطلان ذلك. وأما الصراط فهو أيضاً حق، والتصديق به واجب، لأنه ممكن. فإنه عبارة عن جسر ممدود على متن جهنم يرده الخلق كافة، فإذا توافوا عليه قيل للملائكة {وقفوهم إنهم مسؤولون}، فإن قيل: كيف يمكن ذلك وفيما رُوي أدق من الشعر وأحد من السيف، فكيف يمكن المرور عليه؟ قلنا هذا إن صدر ممن ينكر قدرة الله تعالى، فالكلام معه في إثبات عموم قدرته وقد فرغنا عنها. وإن صدر من معترف بالقدرة فليس المشي على هذا بأعجب من المشي في الهواء، والرب تعالى قادر على خلق قدرة عليه، ومعناه أن يخلق له قدرة المشي على الهواء ولا يخلق في ذاته هوياً إلى أسفل، ولا في الهواء انحراف، فإذا أمكن هذا في الهواء فالصراط أثبت من الهواء بكل حال. الفصل الثاني: في الاعتذار عن الإخلال بفصول شُحنت بها المعتقدات فرأيت الإعراض عن ذكرها أولى لأن المعتقدات المختصرة حقها أن لا تشتمل إلا على المهم الذي لا بد منه في صحة الاعتقاد. أما الأمور التي لا حاجة إلى إخطارها بالبال،

وإن خطرت بالبال فلا معصية في عدم معرفتها وعدم العلم بأحكامها، فالخوض فيها بحث عن حقائق الأمور وهي غير لائقة بما يراد منه تهذيب الاعتقاد، وكل ذلك ليس بمهم في الدين، بل المهم أن ينفي الانسان الشك عن نفسه في ذات الله تعالى... فأقول: إن المواظبة على الطاعات لها تأثير في تأكيد طمأنينة النفس إلى الاعتقاد التقليدي ورسوخه في النفس، وهذا أمر لا يعرفه إلا من سبر أحوال نفسه وراقبها في وقت المواظبة على الطاعة وفي وقت الفِترة ولاحظ تفاوت الحال في باطنه، فإنه يزداد بسبب المواظبة على العمل أنسة لمعتقداته، ويتأكد به طمأنينته، حتى أن المعتقِد الذي طالت منه المواظبة على العمل بموجب اعتقاده أعصا نفساً على المُحاوِل تغييره وتشكيكه ممن لم تطل مواظبته، بل العادات تقضي بها، فإن من يعتقد الرحمة في قلبه على يتيم فإن أقدم على مسح رأسه وتفقد أمره صادف في قلبه عند ممارسة العمل بموجب الرحمة زيادة تأكيد في الرحمة، ومن يتواضع بقلبه لغيره فإذا عمل بموجبه ساجداً له أو مقبلاً يده ازداد التعظيم والتواضع في قلبه، ولذلك تعبُدنا بالمواظبة على أفعال هي مقتضى تعظيم القلب من الركوع والسجود ليزداد بسببها تعظيم القلوب...

الباب الثالث في الامامة. النظر في الإمامة أيضاً ليس من المهمات، وليس أيضاً من فن المعقولات فيها من الفقهيات، ثم إنها مثار للتعصبات، والمعرض عن الخوض فيها أسلم من الخائض بل وإن أصاب، فكيف إذا أخطأ ! ... فإن قيل: فهلا قلتم إن التنصيص واجب من النبي والخليفة كي يقطع ذلك دابر الاختلاف كما قالت بعض الإمامية إذ ادعوا أنه واجب، قلنا: لأنه لو كان واجباً لنص عليه الرسول عليه السلام، ولم ينص هو، ولم ينص عمر أيضاً، بل ثبتت إمامة أبو بكر وإمامة عثمان وإمامة علي رضي الله عنهم بالتفويض... فإن البيعة تقطع مادة الاختلاف والدليل عليه عدم الاختلاف في زمان أبي بكر وعثمان رضي الله عنهم، وقد توليا البيعة، وكثرته في زمان علي رضي الله عنه ومعتقد الإمامية أنه تولى بالنص. الطرف الثالث: في شرح عقيدة أهل السنة في الصحابة والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم. اعلم أن للناس في الصحابة والخلفاء إسراف في أطراف، فمن مبالغ في الثناء حتى يدعي العصمة للأئمة، ومنهم متهجم على الطعن بطلق اللسان بذم الصحابة. فلا تكونن من الفريقين واسلك طريق الاقتصاد في الاعتقاد. واعلم أن كتاب الله مشتمل على الثناء على المهاجرين والأنصار وتواترت الأخبار بتزكية النبي صلى الله عليه وسلم إياهم بألفاظ مختلفة، كقوله أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم، وكقوله: خير الناس قرني ثم الذين يلونهم. وما من واحد إلا وورد عليه ثناء خاص في حقه يطول نقله. فينبغي أن تستصحب هذا الاعتقاد في حقهم ولا تسيء الظن بهم، كما يحكى عن أحوال تخالف مقتضى حسن الظن، فأكثر ما ينقل مُختَرَع بالتعصب في حقهم ولا أصل له، وما ثبت نقله فالتأويل متطرق إليه ولم يجز ما لا يتسع العقل لتجويز الخطأ والسهو فيه، وحمل أفعالهم على قصد الخير وإن لم يصيبوه. والمشهور من قتال معاوية مع علي ومسير عائشه رضي الله عنهم إلى البصرة، والظن بعائشة أنها كانت تطلب تطفئة الفتنة ولكن خرج الأمر من الضبط، فأواخر الأمور لا تبقى على وفق طلب أوائلها، بل تنسل عن الضبط، والظن بمعاوية أنه كان على تأويل وظن فيما كان يتعاطاه، وما يُحكى سوى هذا من روايات الآحاد، فالصحيح منه مختلط بالباطل، والاختلاف أكثره اختراعات الروافض والخوارج وأرباب

الفضول الخائضون في هذه الفنون. فينبغي أن تلازم الإنكار في كل ما لم يثبت، وما ثبت فيُستنبط له تأويلاً. فما تعذر عليك فقل: لعل له تأويلاً وعذراً لم أطلع عليه. واعلم أنك في هذا المقام بين أن تسيء الظن بمسلم وتطعن عليه وتكون كاذباً، أو تحسن الظن به وتكف لسانك عن الطعن وأنت مخطئ مثلاً، والخطأ في حسن الظن بالمسلم أسلم من الصواب بالطعن فيهم، فلو سكت إنسان مثلاً عن لعن ابليس أو لعن أبي جهل أو أبي لهب أو من شئت من الأشرار طول عمره لم يضره السكوت، ولو هفا هفوة بالطعن في مسلم بما هو بريء عند الله تعالى منه فقد تعرض للهلاك، بل أكثر ما يُعلم في الناس لا يحل النطق به لتعظيم الشرع الزجر عن الغيبة، مع أنه إخبار عما هو متحقق في المغتاب. فمن يلاحظ هذه الفصول ولم يكن في طبعه ميل إلى الفضول آثر ملازمته السكوت وحسن الظن بكافة المسلمين وإطلاق اللسان بالثناء على جميع السلف الصالحين. هذا حكم الصحابة عامة، فأما الخلفاء الراشدون فهم أفضل من غيرهم، وترتيبهم في الفضل عند أهل السنة كترتيبهم في الإمامة، وهذا لمكان أن قولنا فلان أفضل من فلان أن معناه أن محله عند الله تعالى في الآخرة أرفع، وهذا غيب لا يطلع عليه إلا الله ورسوله إن أطلعه عليه، ولا يمكن أن يُدعى نصوص قاطعة من صاحب الشرع متواترة مقتضية للفضيلة على هذا الترتيب، بل المنقول الثناء على جميعهم. واستنباط حكم الترجيحات في الفضل من دقائق ثنائه عليهم رمي في عماية واقتحام أمر آخر أغنانا الله عنه، ويُعرف الفضل عند الله تعالى بالأعمال مشكل أيضاً وغايته رجم ظن، فكم من شخص متحرم الظاهر وهو عند الله بمكان ليس في قلبه وخُلق خفي في باطنه، وكم من مزين بالعبادات الظاهرة وهو في سخط الله لخبث مستكن في باطنه فلا مطلع على السرائر إلا الله تعالى. ولكن إذا ثبت أنه لا يُعرف الفضل إلا بالوحي، ولا يُعرف من النبي إلا بالسماع، وأولى الناس بالسماع ما يدل على تفاوت الفضائل الصحابة الملازمون لأحوال النبي صلى الله عليه وسلم، وهم قد أجمعوا على تقديم أبي بكر، ثم نص أبو بكر على عمر، ثم أجمعوا بعده على عثمان، ثم على علي رضي الله عنهم. وليس يُظن منهم الخيانة في دين الله تعالى لغرض من الأغراض، وكان إجماعهم على ذلك من أحسن ما يُستدل به على مراتبهم في الفضل، ومن هذا اعتقد أهل السنة هذا الترتيب في الفضل ثم بحثوا عن الأخبار فوجدوا فيها ما عُرف به مستند الصحابة وأهل الإجماع في هذا الترتيب. فهذا ما أردنا أن نقتصر عليه من أحكام الإمامة والله أعلم وأحكم.

الباب الرابع بيان من يجب تكفيره من الفرق. اعلم أن للفرق في هذا مبالغات وتعصبات، فربما انتهى بعض الطوائف إلى تكفير كل فرقة سوى الفرقة التي يُعزى إليها، فإذا أردت أن تعرف سبيل الحق فيه فاعلم قبل كل شيء أن هذه مسألة فقهية، أعني الحكم بتكفير من قال قولاً وتعاطى فعلاً، فإنها تارة تكون معلومة بأدلة سمعية وتارة تكون مظنونة بالاجتهاد، ولا مجال لدليل العقل فيها البتة، ولا يمكن تفهيم هذا إلا بعد تفهيم قولنا: إن هذا الشخص كافر والكشف عن معناه، وذلك يرجع إلى الإخبار عن مستقره في الدار الآخرة وأنه في النار على التأبيد، وعن حكمه في الدنيا وأنه لا يجب القصاص بقتله ولا يُمكَّن من نكاح مسلمة ولا عصمة لدمه وماله، إلى غير ذلك من الأحكام، وفيه أيضاً إخبار عن قول صادر منه وهو كذب، أو اعتقاد وهو جهل، ويجوز أن يُعرف بأدلة العقل كون

القول كذباً وكون الاعتقاد جهلاً، ولكن كون هذا الكذب والجهل موجباً للتكفير أمر آخر، ومعناه كونه مسلطاً على سفك دمه وأخذ أمواله، ومعنى كونه مسلطاً على سفك دمه وأخذ أمواله ومبيحاً لإطلاق القول أنه مخلد في النار؛ وهذه الأمور شرعية ويجوز عندنا أن يرد الشرع بأن الكذاب أو الجاهل أو المكذب مخلد في الجنة وغير مكتَرَث بكفره، وأن ماله ودمه معصوم، ويجوز أن يرد بالعكس أيضاً. نعم ليس يجوز أن يرد بأن الكذب صدق وأن الجهل علم، وذلك ليس هو المطلوب بهذه المسألة بل المطلوب أن هذا الجهل والكذب هل جعله الشرع سبباً لإبطال عصمته والحكم بأنه مخلد في النار؟ وهو كنظرنا في أن الصبي إذا تكلم بكلمتي الشهادة فهو كافر بعد أو مسلم؟ أي هذا اللفظ الذي صدر منه وهو صدق، والاعتقاد الذي وجد في قلبه وهو حق، هل جعله الشرع سبباً لعصمة دمه وماله أم لا؟ وهذا إلى الشرع. فأما وصف قوله بأنه كذب أو اعتقاده بأنه جهل، فليس إلى الشرع. فإذاً معرفة الكذب والجهل يجوز أن يكون عقلياً، وأما معرفة كونه كافر أو مسلماً فليس إلا شرعياً. ويجوز الفتوى في ذلك بالقطع مرة وبالظن والاجتهاد أخرى، فإذا تقرر هذا الأصل فقد قررنا في أصول الفقه وفروعه أن كل حكم شرعي يدعيه مدع فإما أن يعرفه بأصل من أصول الشرع من إجماع أو نقل أو بقياس على أصل، وكذلك كون الشخص كافراً إما أن يُدرك بأصل أو بقياس على ذلك الأصل. والأصل المقطوع به أن كل من كذب محمداً صلى الله عليه وسلم فهو كافر أي مخلد في النار بعد الموت، ومستباح الدم والمال في الحياة، إلى جملة الأحكام. إلا أن التكذيب على مراتب.

الرتبة الأولى: تكذيب اليهود والنصارى وأهل الملل كلهم من المجوس وعبدة الأوثان وغيرهم، فتكفيرهم منصوص عليه في الكتاب ومجمع عليه بين الأمة، وهو الأصل وما عداه كالملحق به.

الرتبة الثانية: تكذيب البراهمة المنكرين لأصل النبوات، والدهرية المنكرين لصانع العالم. وهذا ملحق بالمنصوص بطريق الأولى، لأن هؤلاء كذبوه وكذبوا غيره من الأنبياء، أعني البراهمة، فكانوا بالتكفير أولى من النصارى واليهود، والدهرية أولى بالتكفير من البراهمة لأنهم أضافوا إلى تكذيب الأنبياء إنكار المرسل ومن ضرورة إنكار النبوة، ويلتحق بهذه الرتبة كل من قال قولاً لا تثبت النبوة في أصلها أو نبوة نبينا محمد على الخصوص إلا بعد بطلان قوله.

الرتبة الثالثة: الذين يصدقون بالصانع والنبوة ويصدقون النبي، ولكن يعتقدون أموراً تخالف نصوص الشرع، ولكن يقولون أن النبي محق وما قصد بما ذكره إلا صلاح الخلق ولكن لم يقدر على التصريح بالحق لكلال أفهام الخلق عن دركه، وهؤلاء هم الفلاسفة. ويجب القطع بتكفيرهم في ثلاثة مسائل وهي: إنكارهم لحشر الأجساد، والتعذيب بالنار، والتنعيم في الجنة بالحور العين والمأكول والمشروب والملبوس. والأخرى: قولهم إن الله لا يعلم الجزئيات وتفصيل الحوادث وإنما يعلم الكليات، وإنما الجزئيات تعلمها الملائكة السماوية. والثالثة: قولهم إن العالم قديم وإن الله تعالى متقدم على العالم بالرتبة مثل تقدم العلة على المعلول، وإلا فلم تر في الوجود إلا متساويين. وهؤلاء إذا أوردوا عليهم آيات القرآن زعموا أن اللذات العقلية تقصر الأفهام عن دركها، فمُثِّل لهم ذلك باللذات الحسية وهذا كفر صريح، والقول به إبطال لفائدة الشرائع وسد لباب الاهتداء بنور القرآن واستبعاد للرشد من قول الرسل، فإنه إذا جاز

عليهم الكذب لأجل المصالح بطلت الثقة بأقوالهم فما من قول يصدر عنهم إلا ويُتصور أن يكون كذباً، وإنما قالوا ذلك لمصلحة. فإن قيل: فلم قلتم مع ذلك بأنهم كفرة؟ قلنا لأنه عُرف قطعاً من الشرع أن من كذب رسول الله فهو كافر وهؤلاء مكذبون ثم معالمون للكذب بمعاذير فاسدة وذلك لا يخرج الكلام عن كونه كذباً.

الرتبة الرابعة: المعتزلة والمشبّهة والفرق كلها سوى الفلاسفة، وهم الذين يصدقون ولا يجوزون الكذب لمصلحة وغير مصلحة، ولا يشتغلون بالتعليل لمصلحة الكذب بل بالتأويل، ولكنهم مخطئون في التأويل، فهؤلاء أمرهم في محل الاجتهاد. والذي ينبغي أن يميل المحصل إليه الاحتراز من التكفير ما وُجد إليه سبيلاً. فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة المصرحين بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله خطأ، والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم. وقد قال صلى الله عليه وسلم: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله، فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها". وهذه الفرق منقسمون إلى مسرفين وغلاة، وإلى مقتصدين بالإضافة إليهم، ثم المجتهد يرى تكفيرهم وقد يكون ظنه في بعض المسائل وعلى بعض الفرق أظهر. وتفصيل آحاد تلك المسائل يطول ثم يثير الفتن والأحقاد، فإن أكثر الخائضين في هذا إنما يحركهم التعصب واتباع تكفير المكذب للرسول، وهؤلاء ليسوا مكذبين أصلاً ولم يثبت لنا أن الخطأ في التأويل موجب للتكفير، فلا بد من دليل عليه، وثبت أن العصمة مستفادة من قول لا إله إلا الله قطعاً، فلا يُدفع ذلك إلا بقاطع. وهذا القدر كاف في التنبيه على أن إسراف من بالغ في التكفير ليس عن برهان، فإن البرهان إما أصل أو قياس على أصل، والأصل هو التكذيب الصريح ومن ليس بمكذب فليس في معنى الكذب أصلاً فيبقى تحت عموم العصمة بكلمة الشهادة.

الرتبة الخامسة: من ترك التكذيب الصريح ولكن يُنكِر أصلاً من أصول الشرعيات المعلومة بالتواتر من رسول الله صلى الله عليه وسلم، كقول القائل: الصلوات الخمس غير واجبة، فإذا قرئ عليه القرآن والأخبار قال: لست أعلم صدر هذا من رسول الله، فلعله غلط وتحريف. وكمن يقول: أنا معترف بوجوب الحج ولكن لا أدري أين مكة وأين الكعبة، ولا أدري أن البلد الذي تستقبله الناس ويحجونه هل هي البلد التي حجها النبي عليه السلام ووصفها القرآن. فهذا أيضاً ينبغي أن يُحكَم بكفره لأنه مكذب ولكنه محترز عن التصريح، وإلا فالمتواترات تشترك في دركها العوام والخواص، وليس بطلان ما يقوله كبطلان مذهب المعتزلة، فإن ذلك يختص لدركه أُلوا البصائر من النظار إلا أن يكون هذا الشخص قريب العهد بالاسلام ولم يتواتر عنده بعد هذه الأمور فيمهله إلى أن يتواتر عنده، ولسنا نكفره لأنه أنكر أمراً معلوماً بالتواتر، وإنه لو أنكر غزوة من غزوات النبي صلى الله عليه وسلم المتواترة أو أنكر نكاحه حفصة بنت عمر، أو أنكر وجود أبي بكر وخلافته، لم يلزم تكفيره لأنه ليس تكذيباً في أصل من أصول الدين مما يجب التصديق به، بخلاف الحج والصلاة وأركان الإسلام، ولسنا نكفره بمخالفة الإجماع، فإن لنا نظرة في تكفير النظام المنكِر لأصل الاجماع، لأن الشبه كثيرة في كون الإجماع حجة قاطعة وإنما الإجماع عبارة عن التطابق على رأي نظري وهذا الذي نحن فيه تطابق على الأخبار غير محسوس، وتطابق العدد الكبير على الأخبار غير

محسوس على سبيل التواتر الموجب للعلم الضروري، وتطابق أهل الحق والعقد على رأي واحد نظري لا يوجب العلم إلا من جهة الشرع. ولذلك لا يجوز أن يُستدل على حدوث العالم بتواتر الأخبار من النظار الذين حكموا به، بل لا تواتر إلا في المحسوسات.

الرتبة السادسة: أن لا يصرح بالتكذيب ولا يكذب أيضاً أمراً معلوماً على القطع بالتواتر من أصول الدين، ولكن مُنكِر ما عُلِم صحته إلا الإجماع، فأما التواتر فلا يشهد له كالنظام[٦٤] مثلاً، إذ أنكر كون الإجماع حجة قاطعة في أصله، وقال: ليس يدل على استحالة الخطأ على أهل الإجماع دليل عقلي قطعي ولا شرعي متواتر لا يحتمل التأويل، فكلما تستشهد به من الأخبار والآيات له تأويل بزعمه، وهو في قوله خارق لإجماع التابعين، فإنا نعلم إجماعهم على أن ما أجمع عليه الصحابة حق مقطوع به لا يمكن خلافه، فقد أنكر الإجماع وخرق الإجماع وهذا في محل الاجتهاد، ولي فيه نظر، إذ الاشكالات كثيرة في وجه كون الإجماع حجة فيكاد يكون ذلك الممهد للعذر، ولكن لو فُتح هذا الباب انجر إلى أمور شنيعة، وهو أن قائلاً لو قال: يجوز أن يُبعث رسول بعد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فيبعد التوقف في تكفيره، ومستند استحالة ذلك عند البحث تستمد من الإجماع لا محالة، فإن العقل لا يحيله، وما نقل فيه من قوله: لا نبي بعدي، ومن قوله تعالى: خاتم النبيين، فلا يعجز هذا القائل عن تأويله فيقول: خاتم النبيين أراد به أولي العزم من الرسل، فإن قالوا النبيين عام، فلا يبعد تخصيص العام، وقوله لا نبي بعدي لم يرد به الرسول، وفرق بين النبي والرسول، والنبي أعلى رتبة من الرسول إلى غير ذلك من أنواع الهذيان. فهذا وأمثاله لا يمكن أن ندعي استحالته من حيث مجرد اللفظ، فإنا في تأويل ظواهر التشبيه قضينا باحتمالات أبعد من هذه ولم يكن ذلك مبطلاً للنصوص، ولكن الرد على هذا القائل أن الأمة فهمت بالإجماع من هذا اللفظ ومن قرائن أحواله أنه أفهم عدم نبي بعده أبداً وعدم رسول الله أبداً وأنه ليس فيه تأويل ولا تخصيص. فمنكر هذا لا يكون إلا منكر الإجماع، وعند هذا يتفرع مسائل متقاربة مشتبكة يفتقر كل واحد منها إلى نظر، والمجتهد في جميع ذلك يحكم بموجب ظنه يقيناً وإثباتاً. والغرض الآن تحرير معاقد الأصول التي يأتي عليها التكفير. وقد نرجع إلى هذه المراتب الستة، ولا يعترض فرع إلا ويندرج تحت رتبة من هذه الرتب، فالمقصود التأصيل دون التفصيل. فإن قيل: السجود بين يدي الصنم كفر، وهو فعل مجرد لا يدخل تحت هذه الروابط، فهل هو أصل آخر؟ قلنا: لا، فإن الكفر في اعتقاده تعظيم الصنم، وذلك تكذيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن، ولكن يُعرف اعتقاده تعظيم الصنم تارة بتصريح لفظه، وتارةً بالإشارة إن كان أخرساً، وتارة بفعل يدل عليه دلالة قاطعة كالسجود حيث لا يحتمل أن يكون السجود لله وإنما الصنم بين يديه كالحائط وهو غافل عنه أو غير معتقد تعظيمه، وذلك يُعرف بالقرائن. وهذا كنظرنا أن الكافر إذا صلى بجماعتنا هل يُحكم باسلامه، أي هل يُستدل على اعتقاد التصديق ؟ فليس هذا إذن نظراً خارجاً عما ذكرناه. ولنقتصر على هذا القدر في تعريف مدارك التكفير، وإنما أوردناه من حيث أن الفقهاء لم

[64] ابراهيم بن سيار (ت: ٢٣١ هـ/ ٨٤٥ م)، متكلم معتزلي نشأ بالبصرة وتوفي ببغداد، رأس فرقة النظامية، أخذ عنه الجاحظ (المعجم العربي الأساسي)

يتعرضوا له والمتكلمون لم ينظروا فيه نظراً فقهياً، إذ لم يكن ذلك من فنهم، ولم ينبه بعضهم بها لقرب المسألة من الفقهيات، لأن النظر في الأسباب الموجبة للتكفير من حيث أنها أكاذيب وجهالات نظر عقلي، ولكن النظر من حيث أن تلك الجهالات مقتضية بطلان العصمة وإنما الخلود في النار نظر فقهي وهو المطلوب.

ولنختم الكتاب بهذا، فقد أظهرنا الاقتصاد في الاعتقاد وحذفنا الحشو والفضول المستغنى عنه، الخارج من أمهات العقائد، وقواعدها، واقتصرنا من أدلة ما أوردناه على الجلي الواضح الذي لا تقصر أكثر الأفهام عن دركه، فنسأل الله تعالى ألا يجعله وبالاً علينا، وأن يضعه في ميزان الصالحات إذا رُدت إلينا أعمالنا، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد خاتم النبيين وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً آمين.

فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة

أحمد الله تعالى استسلاماً لعزته، واستتماماً لنعمته، واستغناماً لتوفيقه، ومعونته، وطاعته، واستعصاماً من خذلانه، ومعصيته، واستدراراً لسوابغ نعمته. وأصلي على محمد عبده ورسوله، وخير خليقته، انقياداً لنبوته، واستجلاباً لشفاعته، وقضاء لحق رسالته، واعتصاماً بيمن سريرته، ونقيبته.وعلى آله، وأصحابه، وعترته.

الفصل الأول : الشرع والبحث عن الحق

أما بعد ... فإني رأيتك أيها الأخ المشفق، والصديق المتعصب، موغر الصدر، منقسم الفكر لما قرع سمعك من طعن طائفة من الحسدة، على بعض كتبنا المصنفة في أسرار معاملات الدين وزعمهم أن فيها ما يخالف مذهب الأصحاب المتقدمين، والمشايخ المتكلمين، وأن العدول عن مذهب الأشعري، ولو في قيد شبر كفر، ومباينته ولو في شيء نزر ضلال وخسر.

فهون أيها الأخ المشفق المتعصب على نفسك، ولا تضق به صدرك، وقُلَّ من غَرْبِك قليلاً، واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً، واستحقر من لا يحسد ولا يقذف، واستصغر من بالكفر أو الضلال لا يعرف. فأي داع (يقصد داعية إلى الحق) أكمل وأعقل من سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم؟ وقد قالوا: إنه مجنون من المجانين!! وأي كلام أجل وأصدق من كلام رب العالمين؟ وقد قالوا إنه أساطير الأولين!! وإياك أن تشتغل بخصامهم، وتطمع في إفحامهم، فتطمع في غير مطمع، وتصوت في مسمع. أما سمعت ما قيل :

كل العداوات قد ترجى سلامتها إلا عداوة من عاداك من حسد

ولو كان فيه مطمع لأحد من الناس، لما تلي على أجلهم رتبة آيات اليأس. أو ما سمعت قوله تعالى:{وإن كان كبر عليك إعراضهم، فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض، أو سلماً في السماء، فتأتيهم بآية، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين}. وقوله تعالى:{ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا: إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون}.وقوله تعالى:{ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين}. وقوله تعالى:{ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة، وكلمهم الموتى، وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون}.

واعلم أن حقيقة الكفر والإيمان وحدَّهما، والحق والضلال وسرهما، لا ينجلي للقلوب المدنسة بطلب الجاه والمال وحبهما، بل إنما ينكشف ذلك لقلوب طُهرت من وسخ أوضار الدنيا أولاً، ثم صُقِلت بالرياضة الكاملة ثانياً، ثم نوِّرت بالذكر الصافي ثالثاً، ثم غُذيت بالفكر الصائب رابعاً، ثم زُينت بملازمة حدود الشرع خامساً، حتى فاض عليها النور من مشكاة النبوة، وصارت كأنها مرآة مجلوة، وصار مصباح الإيمان في زجاجة قلبه، مشرق الأنوار، يكاد زيته يضيء ولم لم تمسسه نار.

وأنى تتجلى أسرار الملكوت لقوم إلههم هواهم!! ومعبودهم سلاطينهم !!! وقبلتهم دراهمهم ودنانيرهم !!! وشريعتهم رعونتهم !!! وإرادتهم جاههم وشهواتهم!! وعبادتهم خدمتهم أغنياءهم !!! وذكرهم وساوسهم !!! وكنزهم سواسهم !!! وفكرهم استنباط الحيل، لما تقتضيه حشمتهم !!! فهؤلاء من أين تتميز لهم ظلمة الكفر من ضياء الإيمان؟ أبإلهام إلهي؟ ولم يفرغوا القلوب من كدورات الدنيا لقبولها. أم بكمال علمي؟ وإنما بضاعتهم في العلم، مسألة النجاسة، وماء الزعفران وأمثالهما. هيهات!! هيهات!! هذا المطلب أنفس وأعز من أن يدرك بالمنى، أو ينال بالهوينا. فاشتغل أنت بشأنك، ولا تضيع فيهم بقية زمانك. {فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا، ذلك مبلغهم من العلم، إن ربك أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى}.

الفصل الثاني : التكفير بسبب الاختلاف المذهبي ناتج عن التقليد ولا أساس له

فأما أنت إن أردت أن تنتزع هذه الحسكة[٦٥] من صدرك، وصدر من هو في حالك، ممن لا تحركه غواية الحسود، ولا تقيده عماية التقليد، بل تعطشه إلى الاستبصار لحزازة إشكال أثارها فكر، وهيجها نظر، فخاطب نفسك وصاحبك، وطالبه بحد الكفر(أي تعريفه)، فإن زعم أن حد الكفر ما يخالف مذهب الأشعري، أو مذهب المعتزلي، أو مذهب الحنبلي أو غيرهم، فاعلم أنه غِر بليد، قد قيده التقليد، فهو أعمى من العميان، فلا تضيع بإصلاحه الزمان. وناهيك حجة في إفحامه، مقابلة دعواه بدعوى خصومه، إذ لا يجد بين نفسه وبين سائر المقلدين المخالفين له فرقاً وفصلاً ولعل صاحبه يميل، من بين سائر المذاهب، إلى الأشعري[٦٦]، ويزعم أن مخالفته في كل وِرْدٍ وصدر، كفر من الكفر الجلي. فسأله من أين ثبت له أن يكون الحق وقفا عليه حتى قضى بكفر الباقلاني إذ خالفه في صفة البقاء لله تعالى وزعم أنه ليس هو وصفا لله تعالى زائدا على الذات. ولِمَ صار الباقلاني أولى بالكفر بمخالفته الأشعري من الأشعري بمخالفته الباقلاني؟ ولِمَ صار الحق وقفا على أحدهما دون الثاني؟ أكان ذلك لأجل السبق في الزمان؟ فقد سبق الأشعريَّ غيرُهُ من المعتزلة، فليكن الحق للسابق عليه؛ أم لأجل التفاوت في الفضل والعلم؟ فبأي ميزان ومكيال قدّر درجات الفضل حتى لاح له أن لا أفضل في الوجود من متبوعه ومقلده؟ فإن رخّص للباقلاني في مخالفته فلِمَ حجر على غيره ؟ وما الفرق بين الباقلاني والكرابيسي والقَلانْسي وغيرهم؟ وما مُدرِكُ التخصيص بهذه الرخصة؟ وإن زعم أن خلاف الباقلاني يرجع إلى لفظٍ لا تحقيق وراءه كما تعسَّف بتكلّفِه بعضُ المتعصبين زاعما أنهما جميعا متوافقان على دوام الوجود، والخلافُ في أن ذلك يرجع إلى الذات أو إلى وصفٍ زائد عليه، خلافٌ

[65] الحسك نبات له ثمرة خشنة تتعلق بأصواف الغنم وأوبار الإبل (المعجم الوجيز)

[66] أبو الحسن علي بن أبي موسى الأشعري (٢٦٠- ٣٣٠ هـ/ ٨٧٣- ٩٤١م)، ولد بالبصرة ثم انتقل إلى بغداد، تتلمذ للجبائي المعتزلي ثم خرج على مذهب المعتزلة لاختلافه معه في مسألة الصلاح والصلح وأسس مذهبا كلاميا، وكان مذهبه هو السائد في ذلك العصر، والأشعرية أو الأشاعرة فرقة من المتكلمين ينتسبون إلى الأشعري ويخالفون المعتزلة في آرائهم، ويقولون إن معرفة الله بالعقل تحصل وبالسمع تحب (المعجم العربي الأساسي)

قريبٌ لا يوجب التشديد، فما باله يشدد القول على المعتزلي في نفيه الصفات وهو معترف بأن الله تعالى عالِم محيطٌ بجميع المعلومات، قادر على جميع الممكنات، وإنما يخالف الأشعري في أنه عالم وقادر بالذات أو بصفة زائدة؟ فما الفرق بين الخلافين؟ وأي مطلب أجلّ وأخطر من صفات الحق سبحانه وتعالى في النظر في نفيهما وإثباتهما؟ فإن قال إنما أكفِّرُ المعتزلي لأنه يزعم أن الذات الواحدة تصدر منها فائدة العلم والقدرة والحياة، وهذه صفاتٌ مختلفة بالحد والحقيقة، والحقائقُ المختلفةُ تستحيل أن توصف بالاتحاد أو تقومَ مقامَها الذاتُ الواحدةُ، فما بالُهُ لا يستبعد من الأشعري قولَه إن الكلام صفة زائدة قائمة بذات الله تعالى ومع كونه واحداً هو توراةٌ وإنجيلٌ وزبور وقرآن، وهو أمر ونهي وخبر واستخبار، وهذه حقائق مختلفة. وكيف لا وحَدُّ الخبر ما يتطرق إليه التصديق والتكذيب ولا يتطرق ذلك إلى الأمر والنهي. فكيف تكون حقيقةٌ واحدة يتطرق إليها التصديق، والتكذيب ولا يتطرق، فيجتمع النفي والإثبات على شيء واحد؟

فإذا تخبط في جواب هذا أو عجز عن كشف الغطاء فيه، فاعلم أنه ليس من أهل النظر وإنما هو مقلّد. وشرط المقلد أن يَسكُت ويُسكَتَ عنه، لأنه قاصر عن سلوك طريق الحِجَاج. ولو كان أهلاً له كان مستتبَعاً لا تابعا، وإماماً لا مأموماً. فإن خاض المقلد في المحاجَّة فذلك منه فضولٌ والمشتغلُ به صار كضاربٍ في حديدٍ باردٍ وطالبٍ لصلاح الفاسدِ، وهل يُصلح العطّارُ ما أفسدَ الدهرُ ؟

ولعلك إن أنصفت علمت أن من جعل الحق وقفاً على واحد من النظار بعينه، فهو إلى الكفر والتناقض أقرب. أما الكفر فلأنه نزله منزلة النبي المعصوم من الزلل الذي لا يثبت الإيمانُ إلا بموافقته، ولا يلزم الكفرُ إلا بمخالفته. وأما التناقض فهو أن كل واحد من النظار يوجب النظر، وأنك لا ترى في نظرك إلا ما رأيت، وكل ما رأيته حجة. وأي فرق بين من يقول قلدني في مذهبي، وبين من يقول قلدني في مذهبي ودليلي جميعاً، وهل هذا إلا التناقض؟

الفصل الثالث : التكفير يقع على من يكذب الرسول صلى الله عليه وسلم

لعلك تشتهي أن تعرف حد الكفر، بعد أن تتناقض عليك حدود أصناف المقلدين. فاعلم أن شرح ذلك طويل، ومدركه غامض، ولكني أعطيك علامة صحيحة فتطردها وتعكسها، لتتخذ مطمح نظرك، وترعوي بسببها عن تكفير الفرق، وتطويل اللسان في أهل الإسلام، وإن اختلفت طرقهم ماداموا متمسكين بقول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، صادقين بها، غير مناقضين لها.

فأقول : الكفر: هو تكذيب الرسول، عليه الصلاة والسلام، في شيء مما جاء به. والإيمان: تصديقه في جميع ما جاء به. فاليهودي والنصراني كافران لتكذيبهما للرسول عليه الصلاة والسلام. والبرهمي: كافر بالطريق الأولى لأنه أنكر مع رسولنا سائر المرسلين. والدهري كافر بالطريق الأولى لأنه أنكر مع رسولنا المرسل سائر الرسل. وهذا لأن الكفر حكم شرعي كالرق والحرية مثلاً، إذ معناه إباحة الدم والحكم بالخلود في النار. ومدركه شرعي،

فيُدرك إما بنص، وإما بقياس على منصوص. وقد وردت النصوص في اليهود والنصارى، والتحق بهم بالطريق الأولى البراهمة والثنوية والزنادقة والدهرية، وكلهم مشركون مكذبون للرسل. فكل كافر مكذب للرسل، وكل مكذب للرسل فهو كافر.فهذه هي العلامة المطردة المنعكسة.

الفصل الرابع : للوجود خمسة مراتب

اعلم أن الذي ذكرناه مع ظهوره، تحته غور، بل تحته كل الغور، لأن كل فرقة تكفر مخالفها، وتنسبه إلى تكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام. فالحنبلي يكفر الأشعري، زاعماً أنه كذب الرسول في إثبات الفوق لله تعالى وفي الاستواء على العرش. والأشعري يكفره زاعماً أنه مشبه وكذَّب الرسول في أنه {ليس كمثله شيء}. والأشعري يكفر المعتزلي زاعماً أنه كذب الرسول في جواز رؤية الله تعالى، وفي إثبات العلم والقدرة والصفات له. والمعتزلي يكفر الأشعري، زاعماً أن إثبات الصفات تكثير للقدماء، وتكذيب للرسول في التوحيد. ولا ينجيك من هذه الورطة إلا أن تعرف حد التكذيب والتصديق، وحقيقتهما فيه. فينكشف لك غلو هذه الفرق، وإسرافها في تكفير بعضها بعضاً.

فأقول: التصديق إنما يتطرق إلى الخبر، بل إلى المُخبِر. وحقيقته الاعتراف بوجود ما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم عن وجوده. إلا أن للوجود خمس مراتب، ولأجل الغفلة عنها نسبت كل فرقة مخالفها إلى التكذيب. فإن الوجود: ذاتي، وحسي، وخيالي، وعقلي، وشبهي. فمن اعترف بوجود ما أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام عن وجوده، بوجه من هذه الوجوه الخمسة فليس بمكذب على الإطلاق.

فلنشرح هذه الأصناف الخمسة، ولنذكر مثالها في التأويلات.

أما **الوجود الذاتي**: فهو الوجود الحقيقي الثابت خارج الحس والعقل، ولكن يأخذ الحس والعقل عنه صورة، فيسمى أخذِه إدراكاً، وهذا كوجود السموات والأرض والحيوان والنبات، وهو ظاهر بل هو المعروف الذي لا يعرف الأكثرون للوجود معنى سواه.

وأما **الوجود الحسي**: فهو ما يتمثل في القوة الباصرة مثلاً، والمراد إحدى الحواس، من العين، مما لا وجود له خارج العين، فيكون موجوداً في الحس ويختص به الحاس، ولا يشاركه غيره، وذلك (كالحلم) الذي يشاهده النائم، بل (الخيال) كما يشاهده المريض المتيقظ، إذ قد تتمثل له صورة، ولا وجود لها خارج حسه، حتى يشاهدها كما شاهد سائر الموجودات الخارجة عن حسه. بل قد تتمثل للأنبياء والأولياء في اليقظة والصحة صورة جميلة محاكية لجواهر الملائكة، ينتهي إليهم الوحي والإلهام بواسطتها، فيتلقون من أمر الغيب في اليقظة ما يتلقاه غيرهم في النوم، وذلك لشدة صفاء باطنهم، كما قال تعالى:{فتمثل لها بشراً سوياً}. وكما أنه عليه الصلاة والسلام رأى جبريل عليه السلام كثيراً، ولكن ما رآه في صورته إلا مرتين، وكان يراه في صور مختلفة يتمثل بها. وكما يُرى رسول الله صلى

الله عليه وسلم في المنام، وقد قال: "من رآني في النوم، فقد رآني حقاً، فإن الشيطان لا يتمثل بي". ولا تكون رؤيته بمعنى انتقال شخصه من روضة المدينة إلى موضع النائم، بل هي على سبيل وجوده في حس النائم فقط.

وأما **الوجود الخيالي**: فهو صورة هذه المحسوسات إذا غابت عن حسك، فإنك تقدر على أن تخترع في خيالك صورة (فيل) و(فرس) وإن كنت مغمضاً عينيك، حتى كأنك تشاهده، وهو موجود بكمال صورته في دماغك لا في الخارج.

وأما **الوجود العقلي**: فهو أن يكون للشيء روح وحقيقة ومعنى، فيتلقى العقل مجرد معناه، دون أن يثبت صورته في خيال أو حس أو خارج، كاليد مثلاً فإن لها صورة محسوسة ومتخيلة، ولها معنى هو حقيقتها، وهي القدرة على البطش، والقدرة على البطش هي اليد العقلية. وللقلم صورة، ولكن حقيقته ما تُنقش به العلوم، وهذا ما يتلقاه العقل من غير أن يكون مقروناً بصورة (قصب) و(خشب) وغير ذلك من الصور الخيالية والحسية.

وأما **الوجود الشبهي**: فهو أن لا يكون نفس الشيء موجوداً، لا بصورته ولا بحقيقته، لا في الخارج، ولا في الحس، ولا في الخيال، ولا في العقل. ولكن يكون الموجود شيئاً آخر يشبهه في خاصة من خواصه، وصفة من صفاته.وستفهم هذا إذا ذكرت له مثاله في التأويلات.

فهذه مراتب وجود الأشياء.

فصل : المراتب الخمسة وأمثلتها في التأويل

اسمع الآن أمثلة هذه الدرجات في التأويلات:

أما الوجود **الذاتي**: فلا يحتاج إلى مثال، وهو الذي يجري على الظاهر، ولا يُتؤول، وهو الوجود المطلق الحقيقي. وذلك كإخبار الرسول صلى الله عليه وسلم عن العرش، والكرسي، والسموات السبع. فإنه يجري على ظاهره، ولا يتؤول، إذ هذه أجسام موجودة في نفسها، أُدركت بالحس والخيال أم لم تُدرك.

وأما **الوجود الحسي**: فأمثلته في التأويلات كثيرة، وأكتفي منها بمثالين، أحدهما: قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار". فإن من قام عنده البرهان على أن الموت عرض، أو عدم عَرَض، وأن قلب العرض جسماً مستحيل غير مقدور، يُنزل الخبر على أن أهل القيامة يشاهدون ذلك ويعتقدون أنه الموت، ويكون ذلك موجوداً في حسهم، لا في الخارج، ويكون سبباً لحصول اليقين باليأس من الموت بعد ذلك، إذ المذبوح ميئوس منه. ومن لم يقم عنده هذا البرهان، فعساه يعتقد أن نفس الموت ينقلب كبشاً في ذاته ويُذبح.

المثال الثاني: قول رسول الله صلى الله عليه وسلم."عرضت علي الجنة في عرض هذا الحائط". فمن قام عنده البرهان على أن الأجسام لا تتداخل، وأن الصغير لا يسع الكبير، حمل ذلك على أن نفس الجنة لم تنتقل إلى الحائط، لكن تمثل للحس صورتها في الحائط، حتى كأنه يشاهدها. ولا يُمتنع أن يُشاهَد مثال شيء كبير في جرم

صغير، كما تشاهد السماء في مرآة صغيرة، ويكون ذلك إبصاراً مفارقاً لمجرد تخيل صورة الجنة. إذ تدرك التفرقة بين أن ترى صورة السماء في المرآة، وبين أن تغمض عينيك فتدرك صورة السماء في المرآة على سبيل التخيل.

وأما **الوجود الخيالي**: فمثاله قوله صلى الله عليه وسلم: "كأني أنظر إلى يونس بن متى عليه عباءتان قطوانيتان، يلبي وتجيبه الجبال، والله تعالى يقول له: لبيك يا يونس". والظاهر أن هذا إنباء عن تمثيل الصورة في خياله، إذ كان وجود هذه الحالة سابقاً على وجود رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد انعدم ذلك، فلم يكن موجوداً في الحال. ولا يبعد أن يقال أيضاً: تمثل هذا في حسه حتى صار يشاهده كما يشاهد النائم الصور. ولكن قوله: "كأني أنظر" يُشعر بأنه لم يكن حقيقة النظر، بل كالنظر. والغرض التفهيم بالمثال، لا عين هذه الصورة. وعلى الجملة، فكل ما يُتمثل في محل الخيال، فيُتصور أن يُتمثل في محل الإبصار، فيكون ذلك مشاهدة. وكل ما يُتميز بالبرهان استحالة المشاهدة فيما يُتصور فيه التخيل.

وأما **الوجود العقلي**: فأمثلته كثيرة، فاقنع منها بمثالين، أحدهما قوله صلى الله عليه وسلم: "من يخرج من النار يعطى من الجنة عشرة أمثال هذه الدنيا". فإن ظاهر هذا يشير إلى أنه عشرة أمثالها، بالطول والعرض والمساحة. وهو التفاوت الحسي والخيالي. ثم قد يتعجب فيقول: إن الجنة في السماء، كما دلت عليه ظواهر الأخبار. فكيف تتسع السماء لعشرة أمثال الدنيا، والسماء أيضاً من الدنيا. وقد يقطع المتأول هذا التعجب، فيقول: المراد به تفاوت معنوي عقلي، لا حسي ولا خيالي. كما يقال مثلاً: هذه الجوهرة، أضعاف الفرس، أي في روح المالية ومعناها المدرك عقلاً، دون مساحتها المدركة بالحس والتخيل.

المثال الثاني: قوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله خمر طينة آدم بيده أربعين صباحاً". فقد أثبت لله تعالى يداً. ومن قام عنده البرهان على استحالة (يد) لله تعالى، هي جارحة محسوسة أو متخيلة، فإنه يُثبت لله سبحانه يداً روحانية عقلية. أعني أنه يُثبت معنى اليد وحقيقتها وروحها دون صورتها. إن روح اليد ومعناها، ما به يُبطش ويُفعل، ويُعطى ويُمنع، والله تعالى يعطي ويمنع بواسطة ملائكته، كما قال عليه الصلاة والسلام: "أول ما خلق الله العقل، فقال: بك أعطي وبك أمنع". ولا يمكن أن يكون المراد بذلك العقل عرضاً، كما يعتقده المتكلمون، إذ لا يمكن أن يكون العرض أول مخلوق، بل يكون عبارة عن ذات ملك من الملائكة يسمى عقلاً، من حيث يعقل الأشياء بجوهره من غير حاجة إلى تعلم. وربما يسمى قلماً، باعتبار أنه تُنقش به حقائق العلوم في ألواح قلوب الأنبياء والأولياء وسائر الملائكة، وحياً وإلهاماً، فإنه ورد في حديث آخر: "أن أول ما خلق الله تعالى القلم"، فإن لم يرجع ذلك إلى العقل، تناقض الحديثان. ويجوز أن يكون لشيء واحد أسماء كثيرة، باعتبارات مختلفة: فيسمى (عقلاً) باعتبار ذلك، و(ملكا) باعتبار نسبته إلى الله تعالى في كونه واسطة بينه وبين الخلق، و(قلماً) باعتبار إضافته إلى ما يصدر منه من نقش العلوم بالإلهام والوحي. كما يسمى جبريل (روحاً) باعتبار ذاته، و(أميناً) باعتبار ما أودع من الأسرار، و(ذا مِرة) باعتبار قدرته، و(شديد القوى) باعتبار كمال قوته، و(مكيناً عند ذي العرش) باعتبار قرب منزلته، و(مطاعاً)

باعتبار كونه متبوعاً في حق بعض الملائكة. وهذا القائل يكون قد أثبت قلماً ويداً عقلياً، لا حسياً وخيالياً. وكذلك من ذهب إلى أن اليد عبارة عن صفة لله تعالى: إما القدرة، أو غيرها كما اختلف فيه المتكلمون.

وأما **الوجود الشبهي**: فمثاله الغضب، والشوق، والفرح، والصبر، وغير ذلك، مما ورد في حق الله تعالى. فإن الغضب مثلاً حقيقته أنه غليان القلب لإرادة التشفي. وهذا لا ينفك عن نقصان وألم. فمن قام عنده البرهان على استحالة ثبوت نفس الغضب لله تعالى، ثبوتاً ذاتياً وحسياً وخيالياً وعقلياً، نزله على ثبوت صفة أخرى يصدر منها ما يصدر من الغضب، كإرادة العقاب. والإرادة لا تناسب الغضب في حقيقة ذاته، ولكن في صفة من الصفات تقارنها، وأثر من الآثار يصدر عنها، وهو الإيلام. فهذه درجات التأويل.

الفصل السادس : ضرورة التأويل مفروضة على جميع الفرق

اعلم أن كل من نزل قولاً من أقوال صاحب الشرع على درجة من هذه الدرجات فهو من المصدقين. وإنما التكذيب أن ينفي جميع هذه المعاني، ويزعم أن ما قاله لا معنى له، وإنما هو مكذب محض، وغرضه فيما قاله التلبيس أو مصلحة الدنيا، وذلك هو الكفر المحض والزندقة. ولا يلزم كفر المؤولين ماداموا يلازمون قانون التأويل كما سنشير إليه. وكيف يلزم الكفر بالتأويل وما من فريق من أهل الإسلام إلا وهو مضطر إليه. فأبعد الناس عن التأويل أحمد بن حنبل رحمة الله عليه، وأبعد التأويلات عن الحقيقة وأغربها أن تجعل الكلام مجازاً أو استعارة، وهو الوجود العقلي، والوجود الشبهي، والحنبلي مضطر إليه وقائل به، فقد سمعت الثقات من أئمة الحنابلة ببغداد يقولون إن أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى صرح بتأويل ثلاثة أحاديث فقط. أحدها: قول صلى الله عليه وسلم: "الحجر الأسود يمين الله في الأرض"، والثاني: قوله صلى الله عليه وسلم: "قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن"، والثالث: قوله صلى الله عليه وسلم: "إني لأجد نَفَس الرحمن من قبل اليمن". فانظر الآن كيف أول هذا؟ حيث قام البرهان عنده على استحالة ظاهره، فيقول: اليمين تُقبَّل في العادة تقرباً إلى صاحبها، والحجر الأسود يقبل أيضاً تقرباً إلى الله تعالى، فهو مثل اليمين لا في ذاته ولا في صفات ذاته، ولكن في عارض من عوارضه، فسمي لذلك يميناً. وهذا هو الوجود الذي سميناه الوجود الشبهي، وهو أبعد وجوه التأويل. فانظر كيف اضطر إليه أبعد الناس عن التأويل. وكذلك لما استحال عنده وجود الإصبعين لله تعالى حساً، إذ من فتش عن صدره لم يشاهد فيه إصبعين، فتأوله على روح الإصبعين، وهي الإصبع العقلية الروحانية. أعني أن روح الإصبع ما به يتيسر تقليب الأشياء، وقلب الإنسان بين لمة الملك ولمة الشيطان، وبهما يقلب الله تعالى القلوب، فكنى بالإصبعين عنهما. وإنما اقتصر أحمد بن حنبل رضي الله عنه على تأويل هذه الأحاديث الثلاثة، لأنه لم تظهر عنده الاستحالة إلا في هذا القدر، لأنه لم يكن ممعناً في النظر العقلي، ولو أمعن لظهر له ذلك في الاختصاص بجهة فوق وغيره مما لم يتأوله. والأشعري والمعتزلي لزيادة بحثهما تجاوزا إلى تأويل ظواهر كثيرة. وأقرب الناس إلى الحنابلة في أمور الآخرة الأشعرية وفقهم الله، فإنهم قرروا فيها أكثر الظواهر إلا يسيراً. والمعتزلة أشد منهم توغلاً في التأويلات، وهم مع هذا، أعني الأشعرية، يضطرون أيضاً إلى تأويل

أمور، كما ذكرناه من قوله: "إنه يؤتى بالموت في صورة كبش أملح"، وكما ورد في وزن الأعمال بالميزان، فإن الأشعري أول وزن الأعمال فقال: توزن صحائف الأعمال ويخلق الله فيها أوزاناً بقدر درجات الأعمال. وهذا رد إلى الوجود الشبهي البعيد، فإن الصحائف أجسام كتبت فيها رقوم تدل بالاصطلاح على أعمال هي أعراض. فليس الموزون إذن العمل، بل محل نقش يدل بالاصطلاح على العمل. والمعتزلي تأول نفس الميزان وجعله كناية عن سبب به ينكشف لكل واحد مقدار عمله، وهو أبعد عن التعسف في التأويل بوزن الصحائف. وليس الغرض تصحيح أحد التأويلين، بل أن تعلم أن كل فريق، وإن بالغ في ملازمة الظواهر، فهو مضطر إلى التأويل، إلا أن يجاوز الحد في الغباوة والتجاهل، فيقول: الحجر الأسود يمين تحقيقاً، والموت وإن كان عرضاً يستحيل فينتقل كبشاً بطريق الانقلاب، والأعمال، وإن كانت أعراضاً، وقد عدمت، فينتقل إلى الميزان، ويكون فيها أعراض هي الثقل. ومن ينتهي إلى هذا الحد من الجهل، فقد انخلع من ربقة العقل.

الفصل السابع: شرط التأويل، البرهان القاطع

فاسمع الآن قانون التأويل، فقد علمت اتفاق الفرق على هذه الدرجات الخمس في التأويل، وأن شيئاً من ذلك ليس من حيز التكذيب. واتفقوا أيضاً على أن جواز ذلك موقوف على قيام البرهان على استحالة الظاهر. والظاهر الأول هو الوجود الذاتي، فإنه إذا ثبت تضمن الجميع، فإن تعذر فالوجود الحسي، فإنه إذا ثبت تضمن ما بعده، فإن تعذر فالوجود الخيالي أو العقلي، وإن تعذر فالوجود الشبهي المجازي. ولا رخصة للعدول عن درجة إلى ما دونها إلا بضرورة البرهان، فيُرجع الاختلاف على التحقيق إلى البراهين. إذ يقول الحنبلي: لا برهان على استحالة اختصاص البارئ بجهة فوق. ويقول الأشعري: لا برهان على استحالة الرؤية. وكأن كل واحد لا يرضى بما ذكره الخصم، ولا يراه دليلاً قاطعاً.

وكيفما كان فلا ينبغي أن يُكَفِّر كل فريق خصمه، بأن يراه غالطاً في البرهان. نعم يجوز أن يسميه ضالاً أو مبتدعاً، أما ضالاً فمن حيث أنه ضل عن الطريق عنده، وأما مبتدعاً فمن حيث أنه ابتدع قولاً لم يُعهد من السلف الصالح التصريح به، إذ المشهور فيما بين السلف أن الله تعالى يُرى، فقول القائل لا يُرى بدعة، وتصريحه بتأويل الرؤية بدعة. بل إن ظهر عنده أن تلك الرؤية معناها مشاهدة القلب، فينبغي أن لا يُظهره ولا يذكره، لأن السلف لم يذكروه. لكن عند هذا يقول الحنبلي: إثبات الفوق لله تعالى مشهور عند السلف، ولم يذكر أحد منهم أن خالق العالم ليس متصلاً بالعالم ولا منفصلاً ولا داخلاً ولا خارجاً، وأن الجهات الست خالية عنه، وأن نسبة جهة فوق إليه كنسبة جهة تحت، فهذا قول بدع، إذ البدعة عبارة عن إحداث مقالة غير مأثورة عن السلف.

وعن هذا يتضح لك أن هاهنا مقامين، أحدهما: مقام عوام الخلق، والحق فيه الاتباع والكف عن تغيير الظاهر رأساً، والحذر من إبداع التصريح بتأويل لم تصرح به الصحابة، وحسم باب السؤال رأساً، والزجر عن الخوض في الكلام والبحث، واتباع ما تشابه من الكتاب والسنة. كما رُوي عن عمر رضي الله عنه أنه سأله سائل عن

آيتين متعارضتين، فعلاه بالدرة. وكما رُوي عن مالك رحمه الله أنه سئل عن الاستواء، فقال: **الاستواء معلوم، والإيمان به واجب، والكيفية مجهولة، والسؤال عنه بدعة.**

المقام الثاني بين النظار الذي اضطربت عقائدهم المأثورة المروية، فينبغي أن يكون بحثهم بقدر الضرورة، وتركهم الظاهر بضرورة البرهان القاطع، ولا ينبغي أن يُكفِّر بعضهم بعضاً بأن يراه غالطاً فيما يعتقده برهاناً. فإن ذلك ليس أمراً هيناً سهل المدرك، وليكن للبرهان بينهم قانون متفق عليه يعترف كلهم به، فإنهم إذا لم يتفقوا في الميزان لم يمكنهم رفع الخلاف بالوزن. وقد ذكرنا الموازين الخمسة في كتاب "القسطاس المستقيم" وهي التي لا يُتصور الخلاف فيها بعد فهمها أصلاً، بل يعترف كل من فهمها بأنها مدارك اليقين قطعاً، والمحصلون لها يسهل عليهم عقد الإنصاف والانتصاف، وكشف الغطاء ورفع الاختلاف. ولكن لا يستحيل منهم الاختلاف أيضاً، إما لقصور بعضهم عن إدراك تمام شروطه، وإما في رجوعهم إلى محض القريحة والطبع، دون الوزن بالميزان، كالذي يرجع بعد تمام تعلم العَروض في الشعر إلى الذوق، لاستثقاله عرض كل شعر على العروض، لا يبعد أن يغلط. وإما لاختلافهم في العلوم التي هي مقدمات البراهين، فإن من العلوم التي هي أصول البراهين، تجريبية وتواترية، وغيرها.

والناس يختلفون في التجربة والتواتر، فقد يتواتر عند واحد ما لا يتواتر عند غيره، وقد يتولى تجربة ما لا يتولاه غيره، إما لالتباس قضايا الوهم بقضايا العقل، وإما لالتباس الكلمات المشهورة المحمودة بالضروريات والأوليات، كما فصلنا ذلك في كتاب "محك النظر". ولكن بالجملة إذا حصلوا تلك الموازين وحققوها، أمكنهم الوقوف عند ترك العناد على مواقع الغلط على يسر.

الفصل الثامن: تأويل أصول العقائد بدون برهان قاطع يؤدي إلى التكفير

من الناس من يبادر إلى التأويل بغلبات الظنون من غير برهان قاطع، ولا ينبغي أن يُبادَر أيضاً إلى كفره في كل مقام، بل يُنظر إليه، فإن كان تأويله في أمر لا يتعلق بأصول العقائد ومهماتها فلا نكفره، وذلك كقول بعض الصوفية إن المراد برؤية الخليل عليه السلام الكوكب والقمر والشمس وقوله:{هذا ربي} غير ظاهرها، بل هي جواهر نورانية ملكية، ونورانيتها عقلية لا حسية، ولها درجات في الكمال ونسبة ما بينها في التفاوت، كنسبة الكوكب والقمر والشمس. ويستدل عليه بأن الخليل عليه السلام، أجل من أن يعتقد في جسم أنه إله، حتى يحتاج إلى أن يشاهد أفوله. أفترى أنه لو لم يأفل أكان يتخذه إلها لو لم يعرف استحالة الإلهية من حيث كونه جسماً مقدراً؟ واستُدِل بأنه كيف يمكن أن يكون أول ما رآه الكوكب، والشمس هي الأظهر، وهي أول ما يُرى؟ واستُدل بأن الله تعالى قال أولاً:{وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض}، ثم حكى هذا القول، فكيف يمكن أن يُتوهم ذلك بعد كشف الملكوت له؟ وهذه دلالات ظنية وليست براهين. أما قوله: (هو أجل من ذلك) فقد قيل: إنه كان صبياً لما جرى له ذلك، ولا يبعد أن يخطر لمن سيكون نبياً في صباه مثل هذا الخاطر، ثم يتجاوزه على قرب، ولا يبعد أن تكون دلالة الأفول على الحدوث عنه أظهر من دلالة التقدير والجسمية. وأما رؤية الكوكب أولاً، فقد روي أنه كان

محبوساً في صباه في غار وإنما خرج بالليل. وأما قوله تعالى أولاً: {وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض}، فيجوز أن يكون الله تعالى، قد ذكر حال نهايته، ثم رجع إلى ذكر بدايته.

فهذه وأمثالها ظنون يظنها براهين من لا يعرف حقيقة البرهان وشرطه. فهذا جنس تأويلهم، وقد تأولوا (العصا) و(النعلين) في قوله تعالى: {اخلع نعليك}، {وألق ما في يمينك}. ولعل الظن في مثل هذه الأمور التي لا تتعلق بأصول الاعتقاد يجري مجرى البرهان في أصول الاعتقاد، فلا يُكفر فيه ولا يُبدَّع.

نعم إن كان فتح هذا الباب يؤدي إلى تشويش قلوب العوام فيُبدِّع به خاصة صاحبه في كل ما لم يؤثر عن السلف ذكره، ويقرب منه قول الباطنية إن (عجل) السامري مؤول، إذ كيف يخلو خلق كثير من عاقل يعلم أن المتخذ من الذهب لا يكون إلهاً؟ وهذا أيضاً ظن، إذ لا يستحيل أن تنتهي طائفة من الناس إليه كعبدة الأصنام، وكونه نادراً لا يورث يقيناً.

وأما ما يتعلق من هذا الجنس بأصول العقائد المهمة، فيجب تكفير من يغير الظاهر بغير برهان قاطع، كالذي ينكر حشر الأجساد، وينكر العقوبات الحسية في الآخرة بظنون وأوهام واستبعادات من غير برهان قاطع، فيجب تكفيره قطعاً، إذ لا برهان على استحالة رد الأرواح إلى الأجساد، وذكر عظيم الضرر في الدين فيجب تكفير كل ما تعلق به، وهو مذهب أكثر الفلاسفة. وكذلك يجب تكفير من قال منهم: إن الله تعالى لا يعلم إلا نفسه، أو لا يعلم إلا الكليات، فأما الأمور الجزئية المتعلقة بالأشخاص فلا يعلمها، لأن ذلك تكذيب للرسول صلى الله عليه وسلم قطعاً، وليس من قبيل الدرجات التي ذكرناها في التأويل. إذ أدلة القرآن والأخبار على تفهيم حشر الأجساد، وتفهيم تعلق علم الله تعالى بتفصيل كل ما يجري على الأشخاص، مجاوز حد لا يقبل التأويل وهم معترفون بأن هذا ليس من التأويل. ولكن قالوا: لما كان صلاح الخلق في أن يعتقدوا حشر الأجساد لقصور عقولهم عن فهم المعاد العقلي، وكان صلاحهم في أن يعتقدوا أن الله تعالى عالم بما يجري عليهم ورقيب عليهم ليورث ذلك رغبة ورهبة في قلوبهم، جاز للرسول عليه الصلاة والسلام أن يفهمهم ذلك، وليس بكاذب من أصلح غيره فقال ما فيه صلاحه وإن لم يكن كما قاله. وهذا القول باطل قطعاً، لأنه تصريح بالكذب، ثم طلب عذر في أنه لم يكذب. ويجب إجلال منصب النبوة عن هذه الرذيلة، ففي الصدق وإصلاح الخلق به مندوحة عن الكذب.

وهذه أول درجات الزندقة، وهي رتبة بين الاعتزال وبين الزندقة المطلقة، فإن المعتزلة يقرب منهاجهم من منهاج الفلاسفة إلا في هذا الأمر الواحد، هو أن المعتزلي لا يُجوِّز الكذب على الرسول عليه السلام بمثل هذا العذر، بل يؤول الظاهر مهما ظهر به بالبرهان خلافه. والفلسفي لا يقتصر في مجاوزته للظاهر على ما يقبل التأويل على قرب أو على بعد.

وأما الزندقة المطلقة فهي أن تنكر أصل المعاد عقلياً وحسياً، وتنكر الصانع للعالم أصلاً ورأساً. وأما إثبات المعاد بنوع عقلي مع نفي الآلام واللذات الحسية، وإثبات الصانع مع نفي علمه بتفاصيل العلوم، فهي زندقة مقيدة بنوع اعتراف بصدق الأنبياء.

وظاهر ظني، والعلم عند الله، أن هؤلاء هم المرادون بقوله عليه السلام: "ستفترق أمتي بضعاً وسبعين فرقة، كلهم في الجنة، إلا الزنادقة"، وهي فرقة. هذا لفظ الحديث في **بعض** الروايات. وظاهر الحديث يدل على أنه أراد به (الزنادقة) من أمته، إذ قال "ستفترق أمتي"، ومن لم يعترف بنبوته فليس من أمته. والذين ينكرون أصل المعاد وأصل الصانع، فليسوا معترفين بنبوته. إذ يزعمون أن الموت عدم محض، وأن العالم لم يزل كذلك موجوداً بنفسه من غير صانع، ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، وينسبون الأنبياء إلى التلبيس. فلا يمكن نسبتهم إلى الأمة. فإذن لا معنى لزندقة هذه الأمة إلا ما ذكرناه .

الفصل التاسع: التكفير بين الاعتبارات النظرية والشرعية: مفهوم الضرر

اعلم أن شرح ما يُكفَّر به وما لا يكفر به، يستدعي تفصيلاً طويلاً يفتقر إلى ذكر كل المقالات والمذاهب، وذكر شبهة كل واحد ودليل، ووجه بعده عن الظاهر، ووجه تأويله. وذلك لا يحويه مجلدات، ولا تتسع لشرح ذلك أوقاتي. فاقنع الآن بوصية وقانون.

أما **الوصية**: فأن تكف لسانك عن أهل القبلة ما أمكنك، ماداموا قائلين لا إله إلا الله محمد رسول الله، غير مناقضين لها، والمناقضة تجويزهم الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعذر أو غير عذر، فإن التكفير فيه خطر، والسكوت لا خطر فيه.

أما **القانون**: فهو أن تعلم أن النظريات قسمان: قسم يتعلق بأصول القواعد، وقسم يتعلق بالفروع. وأصول الإيمان ثلاثة: الإيمان بالله، وبرسوله، وباليوم الآخر، وما عداه فروع. واعلم أنه لا تكفير في الفروع أصلاً، إلا في مسألة واحدة. وهي أن ينكر أصلاً دينياً عُلم من الرسول صلى الله عليه وسلم بالتواتر. لكن في بعضها تخطئة كما في الفقهيات، وفي بعضها تبديع كالخطأ المتعلق بالإمامة وأحوال الصحابة. واعلم أن الخطأ في الإمامة وتعيينها وشروطها وما يتعلق به، لا يوجب شيئ منه تكفيراً. فقد أنكر ابن كيسان أصل وجوب الإمامة، ولا يلزم تكفيره. ولا يُلتفت إلى قوم يُعظِّمون أمر الإمامة، ويجعلون الإيمان بالإمام مقروناً بالإيمان بالله ورسوله، ولا إلى خصومهم المكفرين لهم بمجرد مذهبهم في الإمامة. فكل ذلك إسراف. إذ ليس في واحد من القولين تكذيب للرسول صلى الله عليه وسلم أصلاً، ومهما وُجِد التكذيب، وجب التكفير، وإن كان من الفروع. فلو قال قائل مثلاً: البيت الذي بمكة ليس الكعبة التي أمر الله بحجها، فهذا كفر، إذ قد ثبت تواتراً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خلافه. ولو أنكر شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم لذلك البيت بأنه الكعبة لم ينفعه إنكاره، بل يُعلم قطعاً أنه معاند في إنكاره، إلا أن يكون قريب عهد بالإسلام ولم يتواتر عنده ذلك. وكذلك من نسب عائشة رضي الله عنها إلى الفاحشة، وقد نزل القرآن ببراءتها فهو كافر، لأن هذا وأمثاله لا يمكن إلا بتكذيب الرسول أو إنكار التواتر. والتواتر ينكره الإنسان بلسانه، ولا يمكن أن يجهله بقلبه. نعم لو أنكر ما ثبت بأخبار الآحاد فلا يلزمه به الكفر. ولو أنكر

ما ثبت بالإجماع، فهذا فيه نظر، لأن معرفة كون الإجماع حجة قاطعة، فيه غموض يعرفه المحصلون لعلم أصول الفقه. وأنكر النظام كون الإجماع حجة أصلاً، فصار كون الإجماع حجة مختلفاً فيه.

فهذا حكم الفروع.

وأما **الأصول الثلاثة**، وكل ما لم يحتمل التأويل في نفسه، وتواتر نقله، ولم يُتصور أن يقوم برهان على خلافه، فمخالفته تكذيب محض. ومثاله ما ذكرناه من حشر الأجساد، والجنة والنار، وإحاطة علم الله بتفاصيل الأمور. وما يتطرق إليه احتمال التأويل، ولو بالمجاز البعيد، فننظر فيه إلى البرهان: فإن كان قاطعاً، وجب القول به. ولكن إن كان في إظهاره مع العوام ضرر، لقصور فهمهم، فإظهاره بدعة. وإن لم يكن البرهان قطعياً، لكن يفيد ظناً غالباً، وكان مع ذلك لا يُعلم ضرره في الدين، كنفي المعتزلة الرؤية عن الله تعالى، فهذه بدعة، وليس بكفر. وأما ما يظهر له ضرر، فيقع في محل الاجتهاد والنظر، فيُحتمل أن يُكفر، ويحتمل أن لا يُكفر. ومن جنس ذلك ما يدعيه بعض من **يدعي التصوف** أنه قد بلغ حالة بينه وبين الله تعالى، أسقطت عنه الصلاة، وأحلت له شرب الخمر والمعاصي، وأكل مال السلطان. فهذا ممن لا شك في وجوب قتله، وإن كان في الحكم بخلوده في النار نظر. وقتل مثل هذا أفضل من قتل مائة كافر، إذ ضرره في الدين أعظم، وينفتح به باب من الإباحة لا ينسد. وضرر هذا فوق ضرر من يقول بالإباحة مطلقاً، فإنه يمنع عن الإصغاء إليه ظهور كفره، وأما هذا فإنه يهدم الشرع من الشرع، ويزعم أنه لم يرتكب فيه إلا تخصيص عموم، إذ خصص عموم التكليفات بمن ليس له مثل درجته في الدين. وربما يزعم أنه يلابس ويقارف المعاصي بظاهره، وهو بباطنه بريء عنها، ويتداعى هذا إلى أن يدعي كل فاسق مثل حاله، وينحل به عصام الدين.

ولا ينبغي أن يُظن أن التكفير ونفيه ينبغي أن يُدرَك قطعاً في كل مقام. بل التكفير حكم شرعي، يرجع إلى إباحة المال وسفك الدم والحكم بالخلود في النار. فمأخذه كمأخذ سائر الأحكام الشرعية، فتارة يُدرك بيقين، وتارة بظن غالب، وتارة يُتردد فيه، ومهما حصل تردد، فالوقف فيه عن التكفير أولى. والمبادرة إلى التكفير إنما تغلب على طباع من يغلب عليهم الجهل. ولا بد من التنبيه على قاعدة أخرى، وهي أن المخالِف قد يخالف نصاً متواتراً، ويزعم أنه مؤول، ولكن ذِكر تأويله لا انقداح له أصلاً في اللسان، لا على بعد ولا على قرب، فذلك كفر، وصاحبه مُكذِّب، وإن كان يزعم أنه مؤول. مثاله ما رأيت في كلام بعض الباطنية إن الله تعالى واحد، بمعنى أنه يعطي الوحدة ويخلقها، وعالم، بمعنى أنه يعطي العلم لغيره ويخلقه، وموجود، بمعنى أنه يُوجِد غيره. وأما أن يكون واحداً في نفسه وموجوداً وعالماً، على معنى اتصافه، فلا. وهذا كفر صراح، لأن حمل الواحد على إيجاد الوحدة، ليس من التأويل في شيء ولا تحتمله لغة العرب أصلاً. ولو كان خالق الوحدة يسمى خالقاً لخلقِه الوحدة لسمي ثلاثاً، وأربعاً، لأنه خلق الأعداد أيضاً. فأمثلة هذه المقالات، تكذيبات، عُبِّر عنها بالتأويلات.

الفصل العاشر : شروط التواتر والإجماع والبرهان

قد فهمت من هذه التكفيرات أن النظر في التكفير يتعلق بأمور، أحدها: أن النص الشرعي الذي عُدِل به عن ظاهره، هل يحتمل التأويل أم لا؟ فإن احتمل، فهل (تأويله) قريب أم بعيد؟ ومعرفة ما يقبل التأويل وما لا يقبل التأويل، ليس بالهين، بل لا يستقل به إلا الماهر الحاذق في علم اللغة، العارف بأصول اللغة، ثم بعادة العرب في الاستعمال في استعاراتها، وتجوزاتها، ومنهاجها في ضرب الأمثال.

الثاني: في النص المتروك، أنه ثبت تواتراً ؟ أو آحاداً ؟ أو بالإجماع المجرد؟ فإن ثبت تواتراً، فهل على شرط التواتر أم لا؟ إذ ربما يُظَن المستفيض متواتراً. وحد التواتر ما لا يمكن الشك فيه، كالعلم بوجود الأنبياء، ووجود البلاد المشهورة وغيرها، وأنه متواتر في الأعصار كلها، عصراً بعد عصر، إلى زمان النبوة. فهل يُتصور أن يكون قد نقص عدد التواتر في عصر من الأعصار؟ وشرط التواتر أن لا يحتمل ذلك، كما في القرآن. أما في غير القرآن فيَغمُض مُدرَك ذلك جيداً، ولا يستقل بإدراكه إلا الباحثون عن كتب التواريخ، وأحوال القرون الماضية، وكتب الأحاديث، وأحوال الرجال وأغراضهم في نقل المقالات. إذ قد يوجد عدد التواتر في كل عصر ولا يُحصل به العلم، إذ كان يتصور أن يكون للجمع الكثير رابطة في التوافق، لاسيما بعد وقوع التعصب بين أرباب المذاهب . ولذلك ترى الروافض يدّعون النصَّ على عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في الإمامة لتواتره عندهم ، وتواتَرَ عند خصومهم في أشياء كثيرةٍ خِلافُ ما تواترَ عندهم، لشدّةِ توافُق الروافض على إقامة أكاذيبهم واتّباعها.

وأما ما يستند إلى الإجماع فدرك ذلك من أغمض الأشياء، إذ شرطه أن يجتمع أهل الحل والعقد في صعيد واحد، فيتفقوا على أمر واحد اتفاقاً بلفظ صريح، ثم يستمروا عليه، مرة عند قوم، وإلى تمام انقراض العصر عند قوم. أو يكاتبهم إمام في أقطار الأرض فيأخذ فتاويهم في زمان واحد، بحيث تتفق أقوالهم اتفاقاً صريحاً، حتى يُمتنع الرجوع عنه والخلاف بعده. ثم النظر في أن من خالف بعده هل يُكفر؟ لأن من الناس من قال: إذا جاز في ذلك الوقت أن يختلفوا، فيُحمل توافقهم على اتفاق، ولا يُمتنع على واحد منهم أن رجع بعد ذلك وهذا غامض أيضاً.

الثالث: النظر في أن صاحب المقال هل تواتر عنده الخبر؟ أو هل بلغه الإجماع؟ إذ كل من يولد لا تكون الأمور عنده متواترة، ولا مواضع الإجماع عنده متميزة عن مواضع الخلاف. وإنما يُدرِك ذلك شيئاً فشيئاً. وإنما يُعرف ذلك من مطالعة الكتب المصنفة في الاختلاف والإجماع للسلف، ثم لا يحصل العلم في ذلك بمطالعة تصنيف، ولا تصنيفين، إذ لا يحصل تواتر الإجماع به. وقد صنف أبو بكر الفارسي، رحمه الله، كتاباً في مسائل الإجماع، وأُنكر عليه كثير منه، وخولف في بعض تلك المسائل. فإذن من خالف الإجماع، ولم يثبت عنده بعد فهو جاهل مخطئ، وليس بمكذب، فلا يمكن تكفيره. والاستقلال بمعرفة التحقيق في هذا ليس بيسير.

الرابع: النظر في دليله الباعث على مخالفة الظاهر: أهو على شرط البرهان أم لا؟ ومعرفة شروط البرهان لا يمكن شرحها إلا في مجلدات، وما ذكرنا في كتاب "القسطاس المستقيم" وكتاب "محك النظر" أنموذج منه. وتكل قريحة فقهاء الزمان عن قصر شرط البرهان على الاستيفاء، ولابد من معرفة ذلك، فإن البرهان إذا كان قاطعاً، رُخص في التأويل وإذا كان بعيداً. فإذا لم يكن قاطعاً لم يرخص إلا في تأويل قريب سابق إلى الفهم.

الخامس: في أن ذكر تلك المقالة، هل يَعظُم ضررها في الدين أم لا؟ فإن ما لا يعظم ضرره في الدين فالأمر فيه أسهل، وإن كان القول شنيعاً وظاهر البطلان كقول الإمامية المنتظرة إن الإمام مختف في سرداب، وإنه ينتظر خروجه، فإنه قول كاذب، ظاهر البطلان، شنيع جداً، ولكن لا ضرر فيه على الدين، إنما الضرر على الأحمق المعتقد لذلك، إذ يخرج كل يوم من بلده لاستقبال الإمام حتى يدخل الليل، فيرجع إلى بيته خاسئاً. وهذا مثال، والمقصود أنه لا ينبغي أن يُكفَّر بكل هذيان وإن كان ظاهر البطلان.

فإذا فهمت أن النظر في التكفير موقوف على جميع هذه المقامات التي لا يستقل بآحادها المبرزون، علمت أن المبادر إلى تكفير من يخالف الأشعري أو غيره، جاهل مجازف. وكيف يستقل الفقيه بمجرد الفقه بهذا الخطب العظيم؟ وفي أي ربع من أرباع الفقه يصادف هذه العلوم؟ فإذا رأيت الفقيه الذي بضاعته مجرد الفقه، يخوض في التكفير والتضليل، فأعرض عنه، ولا تشغل به قلبك ولسانك، فإن التحدي بالعلوم غريزة في الطبع، لا يصبر عنه الجهال، ولأجله كثر الخلاف بين الناس، ولو ينكث من الأيدي من لا يدري، لقلّ الخلاف بين الخلق.

الفصل الحادي عشر : نقد الكلام وتمجيد النور الإلهي

من أشد الناس غلواً وإسرافاً، طائفة من المتكلمين كفَّروا عوام المسلمين، وزعموا أن "من لا يعرف الكلام معرفتنا، ولم يعرف الأدلة الشرعية بأدلتنا التي حررناها، فهو كافر". فهؤلاء ضيقوا رحمة الله الواسعة على عباده، أولاً، وجعلوا الجنة وقفاً على شرذمة يسيرة من المتكلمين. ثم جهلوا ما تواتر من السنة، ثانياً. إذ ظهر لهم في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعصر الصحابة رضي الله عنهم، حكمهم بإسلام طوائف من أجلاف العرب، كانوا مشغولين (قبل إسلامهم) بعبادة الوثن، ولم يشتغلوا بعلم الدليل، ولو اشتغلوا به لم يفهموه. ومن ظن أن مُدرَك الإيمان (هو) الكلام والأدلة المجردة والتقسيمات المترتبة، فقد ابتدع، بل **الإيمان نور يقذفه الله في قلوب عبيده، عطية وهدية من عنده، تارة ببينة من الباطن لا يمكنه التعبير عنها، وتارة بسبب رؤيا في المنام، وتارة بمشاهدة حال رجل متدين وسراية نوره إليه عند صحبته ومجالسته، وتارة بقرينة حال**، فقد جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم جاحداً به منكراً، فلما وقع بصره على طلعته البهية، زادها الله شرفاً وكرامة، فرآها تتلألأ منها أنوار النبوة قال: والله ما هذا بوجه كذاب، وسأله أن يعرض عليه الإسلام، فأسلم. وهذا وأمثاله أكثر من أن تحصى، ولم يشتغل واحد منهم بالكلام وتعلم الأدلة، بل **كان يبدو نور الإيمان بمثل هذه القرائن في قلوبهم، لمعة بيضاء، ثم لا تزال تزداد إشراقاً بمشاهدة تلك الأحوال العظيمة وتلاوة القرآن وتصفية القلوب**.

فليت شعري!! متى نُقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو عن الصحابة رضي الله عنهم، إحضار أعرابي أسلم، وقوله له: الدليل على أن العالم حادث أنه لا يخلو عن الأعراض، وما لا يخلو عن الحوادث حادث، وأن الله تعالى عالم بعلم، وقادر بقدرة زائدة على الذات، لا هي هو، ولا هي غيره، إلى غير ذلك من رسوم المتكلمين. ولست أقول لم تجر هذه الألفاظ ولم يجر أيضا ما معناه معنى هذه الألفاظ، بل كان لا تنكشف ملحمة

إلا عن جماعة من الأجلاف يسلمون تحت ظلال السيوف، وجماعة من الأسارى يسلمون واحدا بعد طول الزمان أو على القرب، وكانوا إذا نطقوا بكلمة الشهادة عُلِّموا الصلاة والزكاة ورُدّوا إلى صناعتهم من رعاية الغنم وغيرها.

نعم لست أنكر أنه يجوز أن يكون ذِكْرُ أدلة المتكلمين أحدَ أسباب الإيمان في حق بعض الناس، ولكن ليس ذلك بمقصورٍ عليه وهو أيضا نادرٌ. بل الأنفع في معرض الوعظ كما يشتمل عليه القرآن. فأما الكلام المحرر على رسم المتكلمين فإنه يُشعر نفوس المستمعين بأنه فيه صنعة جدلٍ لِيَعجزَ عنه العامّيّ لا لكونه حقا في نفسه، وربما يكون ذلك سببا لرسوخ العناد في قلبه. ولذلك لا ترى مجلس مناظرة للمتكلمين ولا للفقهاء ينكشف عن واحد انتقل من الاعتزال أو بدعة إلى غيره، ولا عن مذهب الشافعي إلى مذهب أبي حنيفة ولا على العكس. وتجري هذه الانتقالات بأسباب أخر، حتى في القتال بالسيف. ولذلك لم تجر عادة السلف بالدعوة بهذه المجادلات بل شددوا القول على من يخوض في الكلام ويشتغل بالبحث والسؤال.

وإذا تركنا المداهنة ومراقبة الجانب صرّحنا بأن الخوض في "الكلام" حرامٌ لكثرة الآفة فيه، إلا لأحد شخصين: رجل وقعت له شبهة ليست تزول عن قلبه بكلام قريب وعظيّ ولا بخبر نقليّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيجوز أن يكون القول المرتب الكلاميّ رافعا شبهته، ودواءً له في مرضه، فيُستعمَل معه ذلك ويخرِسُ عنه سمعُ الصحيح الذي ليس به ذلك المرض، فإنه يوشك أن يحرّك في نفسه إشكالا ويثير له شبهة تُمرِضُهُ وتستنزله عن اعتقاده المجزوم الصحيح . والثاني: شخص كامل العقل راسخ القدم في الدين، ثابت الإيمان بأنوار اليقين، يريد أن يُحصِّل هذه الصنعة ليداوي بها مريضا إذا وقعت له شبهة، وليفحم بها مبتدعا إذا نبغ، وليحرس به معتقده إذا قصد مبتدع إغواءه. فتعلُّمُ ذلك بهذا العزم كان من فروض الكفايات، وتعلُّمُ قدر ما يزيلُ به الشك ويدرأ الشبهة في حق المشكل فرضُ عينٍ، إذا لم يمكن إعادة اعتقاده المجزوم بطريق آخر سواه.

والحق الصريح أن كل من اعتقد ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام واشتمل عليه القرآن، اعتقاداً جزماً، فهو مؤمن وإن لم يعرف أدلته. بل الإيمان المستفاد من الدليل الكلامي ضعيف جداً مُشرِف على الزوال بكل شبهة. بل الإيمان الراسخ إيمان العوام الحاصل في قلوبهم في الصبا بتواتر السماع، أو الحاصل بعد البلوغ بقرائن أحوال لا يمكن التعبير عنها. وتمام تأكده يلزمه العبادة والذكر، فإن من تمادت به العبادة إلى حقيقة التقوى وتطهير الباطن عن كدورات الدنيا، وملازمة ذكر الله تعالى دائماً، تجلت له أنوار المعرفة، وصارت الأمور التي كان قد أخذها تقليداً عنه، كالمعاينة والمشاهدة وذلك، حقيقة المعرفة التي لا تُحصَّل إلا بعد انحلال عقدة اعتقادات، وانشراح الصدر بنور الله تعالى. {فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام}،{فهو على نور من ربه}. كما سئل صلى الله عليه وسلم عن معنى شرح الصدر، فقال: "نور يقذفه في قلب المؤمن"، فقيل ما علامته؟ قال: "التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود". فبهذا يُعلم المتكلم المقبل على الدنيا المتهالك عليها، غير مدرك حقيقة المعرفة، ولو أدركها لتجافى عن دار الغرور قطعاً.

الفصل الثاني عشر: قضايا النجاة والشفاعة والرحمة الإلهية

لعلك تقول: أنت تأخذ التكفير من التكذيب للنصوص الشرعية، والشارع صلوات الله عليه هو الذي ضيق الرحمة على الخلق، دون "المتكلم"، إذ قال عليه الصلاة والسلام: "يقول الله تعالى لآدم عليه السلام يوم القيامة: يا آدم ابعث من ذريتك بعث النار.فيقول: يارب من كم؟ فيقول: من كل ألف، تسعمائة وتسع وتسعين". وقال عليه الصلاة والسلام: "ستفترق أمتي على نيف وسبعين فرقة، الناجية منها واحدة". الجواب: أن الحديث الأول صحيح، ولكن ليس المعني به، أنهم كفار مخلدون، بل إنهم يُدخلون النار ويُعرضون عليها ويُتركون فيها بقدر معاصيهم، والمعصوم من المعاصي لا يكون في الألف إلا واحداً. وكذلك قال الله تعالى:{وإن منكم إلا واردها}. ثم "بعث النار" عبارة عمن استوجب النار بذنوبه، ويجوز أن يُصرفوا عن طريق جهنم بالشفاعة، كما وردت به الأخبار وتشهد له الأخبار الكثيرة الدالة على سعة رحمة الله تعالى، وهي أكثر من أن تُحصى. فمنهم ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: فقدت النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة، فباتغيته فإذا هو في مشربة يصلي، فرأيت على رأسه أنوارا ثلاثة. فلما قضى صلاته قال: مُهَيِمٌ، من هذه؟ قلت أنا عائشة يا رسول الله. قال: أرأيت الأنوار الثلاثة؟ قلت: نعم يا رسول الله. قال: "إن آتٍ أتاني من ربي في النور الأول فبشرني أن الله تعالى يُدخل الجنة من أمتي سبعين ألفا بغير حساب ولا عذاب. ثم أتاني في النور الثاني آت من ربي فبشرني أن الله تعالى يدخل الجنة من أمتي مكان كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا بغير حساب ولا عذاب. ثم أتاني في النور الثالث آت من ربي فبشرني أن الله تعالى يدخل من أمتي مكان كل واحد من السبعين ألفا المضاعفة سبعين ألفا بغير حساب ولا عذاب". فقلت يا رسول الله ألا تبلغ أمتك هذا. قال: "يكلمون لكم من الأعراب من لا يصوم ولا يصلي". فهذا وأمثاله من الأخبار الدالة على سعة رحمة الله تعالى كثيرٌ. فهذا في أمة محمد صلى الله عليه وسلم خاصة .

وأنا أقول: إن الرحمة تشمل كثيراً من الأمم السالفة، وإن كان أكثرهم يُعرضون على النار إما عرضة خفيفة، حتى في لحظة، أو في ساعة، وإما في مدة، حتى يطلق عليهم اسم بعث النار. بل أقول: إن أكثر نصارى الروم والترك في هذا الزمان تشملهم الرحمة إن شاء الله تعالى، أعني الذين هم في أقاصي الروم والترك ولم تبلغهم الدعوة، فإنهم ثلاثة أصناف، صنف: لم يبلغهم اسم محمد صلى الله عليه وسلم أصلاً، فهم معذورون. وصنف: بلغهم اسمه ونعته، وما ظهر عليه من المعجزات، وهم المجاورون لبلاد الإسلام والمخالطون لهم، وهم الكفار الملحدون. وصنف: ثالث بين الدرجتين، بلغهم اسم محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يبلغهم نعته وصفته، بل سمعوا أيضاً منذ الصبا أن كذاباً ملبساً اسمه محمد إدعى النبوة، كما سمع صبياننا أن كذاباً يقال له المقفع ادعى أن الله بعثه وتحدى بالنبوة كاذباً، فهؤلاء عندي في معنى الصنف الأول، فإنهم مع أنهم سمعوا اسمه، سمعوا ضد أوصافه، وهذا لا يحرك داعية النظر في الطلب.

وأما الحديث الآخر، وهو قوله: "الناجية منها واحدة"، فالرواية مختلفة تماماً فيه، فقد روي: "الهالكة منها واحدة"، ولكن الأشهر تلك الرواية. ومعنى "الناجية" هي التي لا تُعرض على النار ولا تحتاج إلى الشفاعة. بل الذي

تتعلق به الزبانية لتجره إلى النار، فليس بناج على الإطلاق، وإن انُتزع بالشفاعة من مخالبهم. وفي رواية: "كلها في الجنة، إلا الزنادقة"، وهي فرقة. ويمكن أن تكون الروايات كلها صحيحة فتكون الهالكة واحدة، وهي التي تخلد في النار، ويكون الهالك عبارة عمن وقع اليأس عن صلاحه، لأن الهالك لا يُرجى له بعد الهلاك خير. وتكون الناجية واحدة: وهي التي تدخل الجنة بغير حساب ولا شفاعة، لأن من نوقش الحساب فقد عُذب، فليس بناج إذن، ومن عُرِّض للشفاعة فقد عُرض للمذلة، فليس بناج أيضاً على الإطلاق. وهذان طريقان، وهما عبارة عن شر الخلق وخيره. وباقي الفرق كلهم بين هاتين الدرجتين. فمنهم من يعذَّب بالحساب فقط، ومنهم من يقرب من النار، ثم يُصرف بالشفاعة، ومنهم من يُدخل النار ثم يُخرج على قدر خطاياهم في عقائدهم وبدعتهم وعلى كثرة معاصيهم وقلتها. فأما الهالكة المخلدة في النار من هذه الفرق، فهي فرقة واحدة، وهي التي كذبت وجَوَّزت الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمصلحة. وأما من سائر الأمم فمن كذَّبه بعدما قرع سمعه بالتواتر عن خروجه وصفته ومعجزاته الخارقة للعادة، كشق القمر وتسبيح الحصا ونبع الماء من بين أصابعه والقرآن المعجز الذي تحدى به أهل الفصاحة وعجزوا عنه، فإذا قرع ذلك سمعه فأعرض عنه وتولى ولم ينظر فيه ولا يتأمل ولم يبادر إلى التصديق، فهذا هو الجاحد الكاذب، وهو الكافر. بل أقول: من قرع سمعه هذا، فلا بد أن تنبعث فيه داعية الطلب ليستبين حقيقة الأمر إن كان من أهل الدين ولم يكن من الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة. فإن لم تنبعث فيه هذه الداعية، فذلك لركونه إلى الدنيا وخلوه عن الخوف وخطر أمر الدين وذلك كفر. وإن انبعثت الداعية، فقصر عن الطلب، فهو أيضاً كفر. بل ذو الإيمان بالله واليوم الآخر، من أهل كل ملة، لا يمكنه أن يفتر عن الطلب بعد ظهور المخايل بالأسباب الخارقة للعادة، فإن اشتغل بالنظر والطلب ولم يُقصِّر، فأدركه الموت قبل تمام التحقيق، فهو أيضاً مغفور له ثم له الرحمة الواسعة. فاستوسِع رحمة الله الواسعة، ولا تزن الأمور الإلهية بالموازين المختصرة الرسمية، واعلم أن الآخرة قريب من الدنيا، فـ{ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة}. فكما أن أكثر أهل الدنيا في نعمة وسلامة، أو في حالة يغبطها، إذ لو خير بينها وبين الإماتة والإعدام، مثلاً، لاختارها، وإنما المعذب الذي يتمنى الموت نادر. فكذلك المخلدون في النار بالإضافة إلى الناجين، والمخرجين منها في الآخرة، نادر. فإن صفة الرحمة لا تتغير باختلاف أحوالنا وإنما الدنيا والآخرة عبارتان عن اختلاف أحوالك. ولولا هذا لما كان لقوله عليه الصلاة والسلام معنى حيث قال: "أوّلُ ما خطّ اللهُ في الكتاب الأوّلِ: أنا الله لا إله إلا أنا سبقت رحمتي غضبي، فمن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فله الجنة".

واعلم أن أهل البصائر قد انكشف لهم سبق الرحمة وشمولها بأسباب ومكاشفات سوى ما عندهم من الأخبار والآثار، ولكن ذكر ذلك يطول. فأبشر برحمة الله وبالنجاة المطلقة إن جمعت بين الإيمان والعمل الصالح، وبالهلاك المطلق إذا خلوت عنهما جميع. وإن كنت صاحب يقين في أهل التصديق، وصاحب خطأ في بعض التأويل، أو صاحب شك فيهما، أو صاحب خلط في الأعمال فلا تطمع في النجاة المطلقة. واعلم أنك بين أن

تُعذَب مدة ثم تُخلَى، وبين أن يشفَعَ فيك من تيقنْتَ صدقه في جميع ما جاء به أو غيرِهِ. فاجتهد أن يغنيك الله بفضله عن شفاعة الشفعاء، فإن الأمر في ذلك مُخطِرٌ.

الفصل الثالث عشر : مأخذ التكفير

قد ظن بعض الناس أن مأخذ التكفير من العقل لا من الشرع. وأن الجاهل بالله كافر والعارف به مؤمن. فيقال له: الحكم بإباحة الدم والخلود في النار، حكم شرعي لا معنى له قبل ورود الشرع. وإن أراد به أن المفهوم من الشارع أن الجاهل بالله هو الكافر، فهذا لا يمكن حصره فيه، لأن الجاهل بالرسول وبالآخرة أيضاً كافر. ثم إن خصص ذلك الجهل بذات الله تعالى، بجحد وجوده أو وحدانيته، ولم يطْرِده في الصفات فربما سوعد عليه. وإن جعل المخطئ في الصفات أيضاً جاهلاً أو كافراً، لزمه تكفير من نفى صفة البقاء وصفة القدم، ومن نفى الكلام وصفاً زائداً على العلم، ومن نفى السمع والبصر زائداً على العلم، ومن نفى جواز الرؤية، ومن أثبت الجهة، وأثبت إرادة حادثة لا في ذاته ولا في محل، وتكفير المخالفين فيه. وبالجملة يلزمه التكفير في كل مسألة تتعلق بصفات الله، وذلك حكم لا مستند له وإن خُصص ببعض الصفات دون بعض، لم يجد لذلك فصلاً ومرداً، ولا وجه له إلا الضبط بالتكذيب، ليعم المكذب بالرسول وبالمعاد، ويخرج منه المؤول. ثم لا يبعد أن يقع الشك والنظر في بعض المسائل، من جملة التأويل أو التكذيب، حتى يكون التأويل بعيداً، ويُقضى فيه بالظن، وموجب الاجتهاد. فقد عرفت أن هذه مسألة اجتهاد.

الفصل الرابع عشر: الغلط لا يعرض مرتكبه إلى التكفير

من الناس من قال إنما أُكفّر من يكفّرني من الفرق، ومن لا يكفّرني فلا. وهذا لا مأخذ له. فإن قال قائل: علي رضي الله عنه أولى بالإمامة، إذا لم يكن كفرٌ فبأن يخطئ صاحبُهُ ويَظُنَّ أن المخالف فيه كافر، لا يصير كافرا، وإنما هو خطأ في مسألة شرعية. وكذلك الحنبليّ إذا لم يُكفِّر بإثبات الجهة، فلم يكفر بأن يغلط أو يظن أن نافي الجهة مكذِّبٌ وليس بمتأول. وأما قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إذا قذف أحد المسلمين صاحبة بالكفر فقد باء به أحدهما "، معناه أن يُكفِّره مع معرفته بحاله. فمن عرف مَنْ غيرَهُ أنه مصدق لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم يُكفِّره فيكون المكفِّرُ كافراً. فأما إن كفَّره لظنه أنه كذَّب الرسول فهذا غلَطٌ منه في حال شخص واحد. إذ قد يظن به أنه كافر مكذب وليس كذلك، وهذا لا يكون كفراً .

فقد أفدناك بهذه الترديدات التنبيهَ على أعظم الغَورِ في هذه القاعدة، وعلى القانون الذي أن يُتَّبَع فيه، فاقنع به، والسلام

التبر المسبوك في نصيحة الملوك

- **أصول الإيمان**
  - الأصل الأول قاعدة الاعتقاد الذي هو أصل الإيمان
  - الأصل الثاني في تنزيه الخالق تعالى
  - الأصل الرابع في العلم
  - الأصل الخامس والسادس في أنه سميع بصير
  - الأصل السابع في الكلام
  - الأصل الثامن في أفعاله تعالى
  - الأصل التاسع في ذكر الآخرة
  - الأصل العاشر في ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم
- **أصول العدل والإنصاف عشرة**
  - الأصل الأول
  - الأصل الثالث
  - الأصل الرابع
  - الأصل الخامس
  - الأصل السادس
  - الأصل السابع
  - الأصل الثامن
  - الأصل التاسع
  - الأصل العاشر
- **بيان العينين اللتين هما مشرب شجرة الإيمان**
  - العين الأولى في معرفة الدنيا ولم أوجد فيها الإنسان
  - العين الثانية معرفة النفس الأخير
    - الحكاية الأولى
    - الحكاية الثانية
    - الحكاية الثالثة

- الحكاية الرابعة
- الحكاية الخامسة

- **في ذكر العدل والسياسة وذكر الملوك وسيرهم**
  - حكاية عن عمر بن الخطاب يطوف مع العسس
  - حكاية لعمر بن عبد العزيز مع خازن لبيت المال
  - حكاية رجل انقطع من قافلة الحج وضل الطريق
  - حكاية عن المأمون وولاته
  - حكاية عن يزدجر بن شهريار
  - حكاية عن أزدشير
  - حكاية عن ملوك العجم
- **الباب الثاني في سياسة الوزارة وسيرة الوزراء**
  - حكاية عن سليمان عليه السلام
- **الباب الثالث في ذكر الكُتَّاب وآدابهم**
  - حكاية لشاهنشاه مع وزرائه
- **الباب الرابع في سمو همم الملوك**
  - حكاية عن الأمير عمارة بن حمزة
  - حكاية لجعفر بن موسى الهادي
  - حكاية لانو شروان مع نديم له
  - حكاية تفاخر عبدين
- **الباب الخامس في ذكر حلم الحكماء**
- **الباب السادس في شرف العقل والعقلاء**
  - حكاية عن الخليفة المنصور
  - حكاية لسليمان عليه السلام
- **الباب السابع في ذكر النساء**
  - حكاية لفاسق مع امرأة عفيفة
  - حكاية للحسن البصري مع رابعة العدوية
  - حكاية لفاطمة الزهراء
  - حكاية لخسرو بن أبرويز

أصول الإيمان

الأصل الأول: قاعدة الاعتقاد الذي هو أصل الإيمان

اعلم أيها السلطان أنك مخلوق ولك خالق، وهو خالق العالم وجميع ما في العالم، وأنه لا شريك له فرد لا مثل له، كان في الأزل وليس لكونه زوال ويكون مع الأبد، وليس لبقائه فناء، وجوده في الأبد والأزل وما للعدم إليه سبيل، وهو موجود بذاته وكل أحد محتاج إليه وليس له إلى أحد احتياج، وجوده به ووجود كل شيء به.

الأصل الثاني: في تنزيه الخالق تعالى

اعلم أن البارئ تعالى ذكره ليس له صورة ولا مثل، وأنه لا ينزل ولا يحل في قالب، وأنه تعالى منزّه عن الكيف والكم وعن لماذا وكم، وأنه لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء، وكلما يخطر في الوهم والخيال والفكر من التخيل والتمثيل والتكيف فانه منزّه عن ذلك، لأن ذلك من صفات المخلوقين وهو خالقها فلا يوصف بها، وأنه تعالى جدّه ليس في مكان ولا على مكان، فإن المكان لا يحصره، وكل ما في العالم فإنه تحت عرشه، وعرشه تحت قدرته وتسخيره، وأنه قبل العرش كان متنزها عن المكان، وليس العرش بحامل له بل العرش وحملته يحملهم لطفه وقدرته.

الأصل الرابع: في العلم

وأنه تعالى عالم بكل معلوم وعلمه محيط بكل شيء، فليس شيء في العلا إلى الثرى إلا قد أحاط به علمه، لأن الأشياء جميعها بعلمه ظهرت وبإرادته خلقها وبقدرته كونها، وأنه تعالى يعلم عدة رمال القفار وقطرات الأمطار وورق الأشجار وغوامض الأفكار وما دارت عليه الرياح والهواء في علمه ظاهر مثل عدد نجوم السماء. وأن جميع ما في العالم بإرادته ومشيئته وليس شيء من قليل أو كثير، صغير أو كبير، خير أو شر، نفع أو ضر، زيادة أو نقصان، راحة أو تعب أو صحة، إلا بحكمه وتدبيره ومشيئته وتقديره. لو اجتمع الأنس والجن والملائكة والشياطين على أن يحرّكوا في العالم ذرة أو يُسكنوها أو يُنقصوا منها أو يزيدوا فيها بغير إرادته وحوله وقوته لعجزوا عن ذلك ولم يقدروا. وما شاء الله كان وما لا يشاء لا يكون ولا تُرد مشيئته، ومهما كان ويكون أو هو كائن فإنه بتدبيره وأمره وتسخيره.

الأصل الخامس والسادس: في أنه سميع بصير

وكما أنه عالم بجميع المعلومات، فإنه سميع لكل مسموع، بصير لكل مُبْصَر، وأنه بسمع واحد وبصر واحد يرى دبيب النملة في الليلة المظلمة، ولا يخفى عن سمعه صوت الدود تحت أطباق الأرض، وأن سمعه ليس بأذن وبصره ليس بعين.

الأصل السابع: في الكلام

وأن أمره تعالى على جميع الخلق نافذ واجب مهما أخبره من وعد ووعيد فانه حق وأمره كلامه. وكما أنه عالم مريد قدير سميع بصير فهو متكلم، وكلامه بغير حلق ولا لسان ولا فم ولا أسنان، والقرآن والتوراة والإنجيل والزبور والكتب المنزَلة على الأنبياء عليهم السلام جميعها كلامه. وكلامه صفته وكل صفاته قديمة، وكما أن الكلام عند الآدمي حرف وصوت فكلام الله منزَه عن الأصوات والحروف.

الأصل الثامن: في أفعاله تعالى

وأن جميع ما في العالم مخلوق له تعالى، وليس معه شريك ولا خالق بل هو الخالق الواحد، ومهما خلقه من تعب ومرض وفقر وعجز وجهل فعدل منه، ولا يمكن الظلم في أفعاله، لأن الظالم هو الذي يتصرف في ملك غيره، والخالق تعالى لا يتصرف إلا في ملكه وليس معه مالك سواه، وكل ما يكون وهو كائن فهو ملك له، وهو المالك بلا شبيه ولا شريك، وليس لأحد عليه اعتراض بلم وكيف ولكن له الحكم والأمر في كل أفعاله، وما لأحد غير التسليم والنظر إلى صُنعه والرضا بقضائه. وكما أن علمه لا يصدر عن فكرة، ففعله بغير آلة وعدة يقول للشيء كن فيكون.

الأصل التاسع: في ذكر الآخرة

وأنه تعالى خلق العالم من نوعين جسد وروح، وجعل الجسد مَنزلاً للروح لتأخذ زاداً لآخرتها من هذا العالم، وجعل لكل روح مدة مقدّرة تكون في الجسد، فآخر تلك المدة هو أجل تلك الروح من غير زيادة ولا نقصان، فإذا جاء الأجل فرّق بين الروح والجسد، وإذا وُضع الميت في قبره أعيدت روحه إلى جسده ليجيب سؤال منكر ونكير، وهما شخصان هائلان عظيمان فيسألانه من ربك ومن نبيك فإن استعجم ولم يُجب عذّباه وملآ قبره حيات وعقارب. ويوم القيامة يوم الحساب والمكافأة والمناقشة والمجازاة، تُردّ الروح إلى الجسد، وتُنشر الصحف وتعرض الأعمال على الخلائق، فينظر كل إنسان في كتابه فيرى أعماله ويشاهد أفعاله ويعلم مقدار طاعته ومعصيته، وتوزن أعماله في ميزان الأعمال، ثم يؤمر بالجواز على الصراط. والصراط أدق من الشعرة وأحدّ من الشفرة، فكل من كان في هذا العالم على الطريقة المستقيمة الصالحة وسلوك المحجة الواضحة عَبَر على الصراط وجازه في راحة واستراحة، وإن لم يكن على السيرة المحمودة والأعمال الصالحة الرشيدة وعصي مولاه واتّبع هواه فإنه لا يجد الطريق على الصراط ولا يهتدي إلى الجواز ويقع في جهنم. والكل يوقفون على الصراط ويُسألون عن أفعالهم فيُسأل الصادقون عن صدقهم، ويمتحن المراؤون والمنافقون ويفضحون، فمن الناس قوم يُدخلون الجنة بغير حساب، وجماعة يُحاسبون بالرفق والمسامحة، وجماعة يُحاسبون بالصعوبة والمناقشة والمحاققة، ثم يسحب الكفار إلى نار جهنم بحيث لا يجدون خلاصاً،

ويدخل أهل الجنة ويؤمر بالعصاة إلى النار، وكل من نالته شفاعة الأنبياء والعلماء والأكابر عُفي عنه، وكل من ليس له شفيع عوقب بمقدار إثمه وعُذب بقدر جرمه، ثم يُدخل الجنة إن كان قد سلم معه إيمانه.

الأصل العاشر: في ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولما قدّر الله تعالى هذا التقدير وجعل الإنسان وأحواله واكتسابه وأعماله منها ما هو سبب لسعادته ومنها ما هو سبب لشقاوته، والإنسان لا يقدر أن يعرف ذلك من تلقاء نفسه، خلق الله تعالى بحكم فضله ورحمته وطوله ومنته ملائكة وبعثهم إلى أشخاص قد حُكم لهم بالسعادة في الأزل وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فأرسلهم إلى الخلق ليوضحوا لهم طرق السعادة والشقاوة لئلا يكون للناس على الله حجة، وأرسل نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم آخراً وجعله بشيراً ونذيراً، فأوصل نبوّته إلى درجة الكمال فلم يبقَ للزيادة فيه مجال، ولهذا جعله خاتم الأنبياء فلا نبي بعده، وأمر الخلائق من الإنس والجن بطاعته واتباعه وجعله سيد الأولين والآخرين، وجعل أصحابه خير أصحاب الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين.

ذكر فروع شجرة الإيمان:

إعلم أيها السلطان أن كل ما كان في قلب الإنسان من معرفة واعتقاد فذلك أصل الإيمان، وما كان جارياً على أعضائه السبعة من الطاعة والعدل فذلك فرع الإيمان. فإذا كان الفرع ذاوياً دلّ على ضعف الأصل، فإنه لا يثبت عند الموت، وعمل البدن عنوان إيمان القلب. والأعمال التي هي فروع الإيمان هي تجنب المحارم وأداء الفرائض وهما قسمان: أحدهما بينك وبين الله تعالى مثل الصوم والصلاة والحج والزكاة واجتناب شرب الشراب والعفة عن الحرام، والأخرى بينك وبين الخلق وهي العدل في الرعية والكف عن الظلم. والأصل في ذلك أن تعمل فيما بينك وبين الخالق تعالى من طاعة أمره والازدجار بزجره وما تختار أن تعتمده عبيدك في حقك، وأن تعمل فيما بينك وبين الناس ما تؤثر أن يُعمل معك. **واعلم أنّ ما كان بينك وبين الخالق سبحانه فإن عفوه قريب، وأما ما يتعلق بمظالم الناس فإنه لا يتجاوز به عنك على كل حال يوم القيامة وخطره عظيم**، ولا يسلم من هذا الخطر أحد من الملوك إلا ملك عمل بالعدل والإنصاف ليعلم كيف يطلب العدل والإنصاف يوم القيامة.

أصول العدل والإنصاف عشرة:

الأصل الأول من ذلك هو أن تعرف أولاً قدر الولاية وتعلم خطرها. فإن الولاية نعمة من نعم الله عز وجل من قام بحقّها نال من السعادة ما لا نهاية له ولا سعادة بعده، ومن قصّر عن النهوض بحقها حصل في شقاوة لا شقاوة بعدها إلا الكفر بالله تعالى. والدليل على عظم قدرها وجلالة خطرها ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

أنه قال: "عدل السلطان يوماً واحداً أحب إلى الله من عبادة سبعين سنة". وقال عليه الصلاة والسلام: "إذا كان يوم القيامة لا يبقى ظل ولا ملجأ إلا ظل الله، ولا يستظل بظله إلا سبعة أناس: سلطان عادل في رعيته، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل يكون في السوق وقلبه في المسجد، ورجلان تحابا في الله، ورجل ذكر الله في خلوته فأذرى دمعه من مقلته، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال ومال إلى نفسها فقال إني أخاف الله، ورجل يتصدق سراً بيمينه ولم تشعر بها شماله". وقال عليه الصلاة والسلام: "أحب الناس إلى الله تعالى وأقربهم إليه السلطان العادل وأبغضهم إليه وأبعدهم منه السلطان الجائر". وقال عليه الصلاة والسلام: "والذي نفس محمد بيده إنه ليرفع للسلطان العادل إلى السماء من العمل مثل عمل جملة الرعية، وكل صلاة يصلّيها تعدل سبعين ألف صلاة". فإذا كان كذلك فلا نِعمة أجلّ من أن يُعطى العبد درجة السلطنة، ويجعل ساعة من عمره بجميع عمر غيره. ومن لم يعرف قدر هذه النعمة واشتغل بظلمه وهواه يُخاف عليه أن يجعله الله من جملة أعدائه. ومما يدلّ على خطر الولاية ما روي عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بعض الأيام فلزم حقه باب الكعبة وكان في البيت نفر من قريش فقال: "يا سادات قريش عاملوا رعاياكم وأتباعكم بثلاثة أشياء: إذا سألوكم الرحمة فارحموهم، وإذا حكَّموكم فاعدلوا فيهم، واعملوا بما تقولون، فمن لم يعمل بهذا فعليه لعنة الله وملائكته، لا يقبل الله منه فرضاً ولا نفلاً". وقال عليه الصلاة والسلام: "من حكم بين إثنين بظلم فلعنة الله على الظالمين"، وقال عليه الصلاة والسلام: "ثلاثة لا ينظر الله إليهم: سلطان جائر كاذب، وشيخ زانٍ، وفقير متكبر" (يعني أنه متكبر للطمع). وقال عليه الصلاة والسلام يوماً للصحابة: "سيأتي عليكم يوم تفتحون فيه جانبي الشرق والغرب ويصير في أيديكم، وكل عمال تلك الأماكن في النار إلا من اتقى الله وسلك سبيل التقوى وأدّى الأمانة". وقال عليه الصلاة والسلام: "ما من عبد ولاّه الله أمر رعية فغشهم ولم ينصح لهم ولم يشفق عليهم الا حرَم الله عليه الجنة". وقال عليه الصلاة والسلام: "من ولِي أمور المسلمين ولم يحفظهم كحفظه أهل بيته فقد تبوأ مقعده من النار". وقال عليه الصلاة والسلام: "رجلان من أمتي يحرمان شفاعتي: ملك ظالم ومبتدع غال في الدين يتعدى الحدود". وقال عليه الصلاة والسلام: "أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة السلطان الظالم". وقال عليه الصلاة والسلام: "خمسة قد غضب الله عليهم إن شاء أمضى غضبه ومقرهم النار، أمير قوم يطيعونه يأخذ حقه منهم ولا ينصفهم من نفسه ولا يرفع الظلم عنهم، ورئيس قوم يطيعونه ولا يساوي بين القوي والضعيف ويحكم بالميل والمحاباة، ورجل لا يأمر أهله وأولاده بطاعة الله ولا يعلمهم أمور الدين ولا يبالي من أين أطعمهم، ورجل استأجر أجيراً فتمم عمله ومنعه أجرته، ورجل ظلم زوجته في صداقها". ويُروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه تبع يوماً جنازة، فتقدم رجل فصلى عن الجنازة فلما دفن الميت وضع ذلك الرجل يده على القبر وقال: "اللهم إن عذبته فبحقك لأنه عصاك، وإن رحمته فإنه فقير إلى رحمتك، وطوبي لك أيها الميت إن لم تكن أميراً أو عريفاً أو كابتاً أوعوانياً[٦٧] أو جابياً". فلما تكلم بهذه الكلمات غاب شخصه عن عيون الناس فأمر عمر بطلبه فلم يوجد، فقال عمر: هذا الخضر عليه السلام. وقال النبي صلى

[67] جاسوس أو عين للسلطة على الناس

الله عليه وسلم: "ويل للأمراء وويل للعرفاء وويل للعوانية فإنهم أقوام يعلقون من السماء بذوائبهم في القيامة ويسحبون على وجوههم إلى النار يودون لو لم يعلموا عملاً قط". وقال عليه الصلاة والسلام: "ما من رجل ولي أمر عشرة من الناس إلا وجيء به يوم القيامة ويداه مغلولتان إلى عنقه، فإن كان عمله صالحاً فُكّ الغل عنه وإن كان عمله سيئاً زيد عليه غل آخره". وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "ويل لقاضي الأرض من قاضي السماء حين يلقاه إلا من عدل وقضى بالحق ولم يحكم بالهوى ولم يمل مع أقاربه ولم يبدل حكماً لخوف أو طمع، لكن يجعل كتاب الله مرآته ونصب عينيه ويحكم بما فيه". وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يؤتى بالولاة يوم القيامة فيقول الله جلّ وعلا: أنتم كنتم رعاة خليقتي وخزنة ملكي في أرضي. ثم يقول لأحدهم: لم ضربت عبادي فوق الحد الذي أمرت به؟ فيقول: يا رب لأنهم عصوك وخالفوك. فيقول جلّ جلاله: لا ينبغي أن يسبق غضبك غضبي. ثم يقول للآخر: لم ضربت عبادي أقل من الحد الذي أمرت به؟ فيقول: يا رب رحمتهم. فيقول تعالى:...[٦٨] قال حذيفة بن اليمان: أنا لا أثني على أحد من الولاة سواء كان صالحاً أو غير صالح لأني سمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول: يؤتي بالولاة العادلين والظالمين يوم القيامة فيوقفون على الصراط، فيوحي الله إلى الصراط أن ينفضهم إلى النار مثل من جار في الحكم أو أخذ رشوة على القضاء أو أعار سمعه لأحد الخصمين دون الآخر، فيسقطون من الصراط فيهوون سبعين سنة في النار حتى يصلوا إلى قرارها". وقد جاء في الخبر أن داود عليه السلام كان يخرج ليلاً متنكراً بحيث لا يعرفه أحد وكان يسأل كل من يلقاه عن حال داود سراً، فجاءه جبريل في صورة رجل فقال له داود: ما تقول في داود؟ فقال: نِعم العبد إلا أنه يأكل من بيت المال ولا يأكل من كدّه وتعب يديه. فعاد داود إلى محرابه باكياً حزيناً وقال: إلهي علمني صنعة آكل بها من كدي وتعب يدي. فعلمه الله تعالى صنعة الزرد[٦٩]. وكان عمر بن الخطاب يخرج كل ليلة يطوف مع العسس حتى يرى خللاً يتداركه، وكان يقول: "لوتركت عنزاً جرباء على جانب ساقية لم تدهن لخشيت أن أُسأل عنها في القيامة". فانظر أيها السلطان إلى عمر مع احتياطه وعدله وما وصل أحد إلى تقواه وصلاته كيف يتفكر ويتخوف من أهوال يوم القيامة، وأنت قد جلست لاهياً عن أحوال رعيتك غافلاً عن أهل ولايتك. قال عبد الله بن عمر وجماعة من أهل بيته: كنا ندعو الله أن يرينا عمر في المنام فرأيته بعد اثني عشر كأنه قد اغتسل وهو متلفع، فقلت: يا أمير المؤمنين كيف وجدت ربك وبأي حسناتك جازاك؟ فقال: يا عبد الله كم لي منذ فارقتك؟ فقلت: إثنتا عشرة سنة. فقال: منذ فارقتكم في الحساب، وخفت أن أهلك إلا أن الله غفور رحيم جواد كريم. فهذا حال عمر ولم يكن له من دنياه شيء من أسباب الولاية سوى درة.

---

[68] ناقصة في أصل الكتاب (المصنف)

[69] صناعة الدروع وعدد الحروب (المعجم العربي الأساسي)

حكاية: أرسل قيصر ملك الروم رسولاً إلى عمر بن الخطاب لينظر أحواله ويشاهد فعاله، فلما دخل المدينة سأل أهلها وقال: أين ملككم؟ قالوا: ليس لنا ملك بل لنا أمير قد خرج إلى ظاهر المدينة. فخرج الرسول في طلبه فوجده نائماً في الشمس على الأرض فوق الرمل الحار وقد وضع درته كالوسادة تحت رأسه والعرق يسقط منه إلى أن بل الأرض، فلما رآه على هذه الحالة وقع الخشوع في قلبه، وقال: رجل تكون جميع ملوك الأرض لا يقر لهم قرار من هيبته وتكون هذه حاله، ولكنك يا عمر عدلت فأمنت فنمت، وملِكُنا يجور، لا جرم أنه لا يزال ساهراً خائفاً. أشهد أن دينكم لدين الحق ولولا أني أتيت رسولاً لأسلمت، ولكن سأعود بعد هذا وأسلم.

أيها السلطان خطر الولاية عظيم وخطبها جسيم والشرح في ذلك طويل، ولا يسلم الوالي الا بمقارنة عملاء الدين ليعلموه طرق العدل ويسهلوا عليه خطر هذا الأمر، وأن يشتاق أبداً إلى رؤية العلماء ويحرص على استماع نصحهم وأن يحذر من علماء السوء الذين يحرصون على الدنيا، فإنهم يثنون عليك ويغرونك ويطلبون رضاك طمعاً فيما في يديك من خبث الحطام ووبيل الحرام ليحصلوا منه شيئاً بالمكر والحيل. والعالِم هو الذي لا يطمع فيما عندك من المال ومنصفك في الوعظ والمقال. كما يُقال أن شقيقاً البلخي دخل على هارون الرشيد فقال له: أنت شقيق الزاهد؟ فقال: أنا شقيق ولست بزاهد. فقال له: أوصني. فقال: إن الله تعالى قد أجلسك مكان الصِدِّيق وأنه يطلب منك مثل صدقه، وأنه أعطاك موضع عمر بن الخطاب الفاروق وأنه يطلب منك الفرق بين الحق والباطل مثله، وأنه أقعدك موضع عثمان بن عفان ذي النورين وهو يطلب منك مثل حيائه وكرمه، وأعطاك موضع علي بن أبي طالب وهو يطلب منك مثل العلم والعدل كما يطلب منه. فقال له: زدني من وصيتك. فقال: نعم، اعلم أنا لله تعالى داراً تعرف بجهنم وأنه قد جعلك بواب تلك الدار وأعطاك ثلاثة أشياء بيت المال والسوط والسيف، وأمرك أن تمنع الخلق من دخول النار بهذه الثلاثة، فمن جاء محتاجاً فلا تمنعه من بيت المال، ومن خالف أمر ربه فأدبه بالسوط، ومن قتل نفساً بغير حق فاقتله بالسيف بإذن ولي المقتول، فإن لم تفعل ما أمرك فأنت الزعيم لأهل النار والمتقدم إلى البوار. فقال له: زدني. فقال: إنما مثلك كمثل معين الماء، وسائر العلماء في العالم كمثل السواقي، فإذا كان المعين صافياً لا يضر كدر السواقي، وإذا كان المعين كدراً لا ينفع صفاء السواقي.

حكاية: خرج هارون الرشيد والعباس ليلاً لزيارة الفضيل بن عياض فلما وصلا إلى بابه وجداه يتلو هذه الآية: {أم حَسِبَ الذين إجتَرحوُا السيئَات أن نجَعلُهُم كالذِينَ آمنَوُا وعَمِلوُا الصَالحِاتِ}، ومعناها: أيظن الذين اكتسبوا الخطايا ويعملون الأعمال المذمومة أن نسوي بينهم في الآخرة وبين الذين يعملون الخيرات وهم مؤمنون، كلا ساء ما يحكمون. فقال هارون: إن كنا جئنا للموعظة فكفى بهذه موعظة. ثم أمر العباس أن يطرق عليه الباب فطرق بابه فقال: افتح الباب لأمير المؤمنين. فقال الفضيل: ما يصنع عندي أمير المؤمنين؟ فقال: أطِع أمير المؤمنين وافتح الباب. وكان ليلاً والمصباح يتقد فأطفأه وفتح الباب، فدخل الرشيد وجعل يَطوف بيده ليصافح بها الفضيل فلما وقعت يده عليه قال: الويل لهذه اليد الناعمة إن لم تنج من العذاب في القيامة. ثم قال له: يا أمير المؤمنين استعد

لجواب الله تعالى فانه يوقفك مع كل واحد مسلم على حدة يطلب منك إنصافك إياه. فبكى هارون الرشيد بكاء شديداً وضمه إلى صدره. فقال له العباس: مهلاً فقد قتلته. فقال الرشيد للعباس: ما جعلك هامان إلا وجعلني فرعون. ثم وضع الرشيد بين يديه ألف دينار وقال له: هذه من وجه حلال من صداق أمي وميراثها. فقال له الفضيل: أنا آمرك أن ترفع يديك عما فيها وتعود إلى خالقك وأنت تُلقيه إليّ. فلم يقبلها وخرج من عنده.

نكتة[٧٠]: سأل عمر بن عبد العزيز محمد بن كعب القرظي فقال: صف لي العدل. فقال: كل مسلم أكبر منك سناً فكن له ولداً، ومن كان أصغر منك فكن له أباً، ومن كان مثلك فكن له أخاً، وعاقب كل مجرم على قدر جُرمه، وإياك أن تضرب مسلماً سوطاً واحداً على حقد منك فإن ذلك يصيرك إلى النار.

نكتة: حضر بعض الزهاد بين يدي خليفة فقال له: عظني فقال: يا أمير المؤمنين إني سافرت الصين وكان ملك الصين قد أصابه الصمم وذهب سمعه فسمعته يقول يوماً وهو يبكي: والله ما أبكي لزوال سمعي وإنما أبكي لمظلوم يقف ببابي يستغيث فلا أسمع استغاثته ولكن الشكر لله إذ بصري سالم. وأمر منادياً ينادي ألا كل من كانت له ظلامة فليلبس ثوباً أحمر. فكان يركب الفيل فكل من رأى عليه ثوباً أحمر دعاه واستمع شكواه وأنصفه من خصمائه. فانظر يا أمير المؤمنين إلى شفقة ذلك الكافر على عباد الله وأنت مؤمن من أهل بيت النبوة فانظر كيف تريد أن تكون شفقتك على رعيتك.

نكتة أخرى: حضر أبو قلابة مجلس عمر بن عبد العزيز فقال له: عظني قال: من عهد آدم إلى وقتنا هذا لم يبق خليفة سواك. فقال: زدني. فقال: أنت أول خليفة يموت. فقال: زدني. فقال: إن كان الله معك فممن تخاف وإن لم يكن معك فإلى من تلتجيء. قال: حسبي ما قلت.

حكمة: كان سليمان بن عبد الملك خليفة فتفكر يوماً وقال: قد تنعمت في الدنيا طويلاً فكيف حالي في الآخرة؟ وأتى إلى أبي حازم وكان عالم أهل زمانه وزاهد أوانه وقال: أنفذ لي شيئاً من قوتك الذي تُفطر عليه. فأنفذ له قليلاً من نخالة وقد شواها فقال: هذا فطوري. فلما رأي سليمان ذلك أفطر الليلة الثالثة على تلك النخالة المشوية، فيقال إنه في تلك الليلة تغشى أهله فكان منها عبد العزيز وجاء منه عمر بن عبد العزيز. وكان واحد زمانه في عدله وإنصافه وزهده وإحسانه وكان على طريقة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقيل أن ذلك ببركة نيته وصيامه وأكله من ذلك الطعام.

[70] مسألة علمية دقيقة أخرجت بدقة النظر (المعجم العربي الأساسي)

نكتة: سُئل عمر بن عبد العزيز: ما كان سبب توبتك؟ قال: كنت أضرب يوماً غلاماً فقال لي: **اذكر الليلة التي تكون صبيحتها القيامة** . فعمل ذلك الكلام في قلبي.

نكتة أخرى: رأى بعض الأكابر هارون الرشيد في عرفات وهو حافٍ حاسر قائم على الرمضاء الحارة وقد رفع يديه وهو يقول: **إلهي أنت أنت وأنا أنا الذي دأبي كل يوم أعود إلى عصيانك ودأبك أن تعود إليّ برحمتك.** فقال بعض الكبراء: انظروا إلى تضرع جبار الأرض بين يديّ جبار السماء.

نكتة أخرى: سأل عمر بن عبد العزيز يوماً أبو حازم الموعظة فقال له أبو حازم: إذا نمت فضع الموت تحت رأسك وكل ما أحببت أن يأتيك الموت وأنت عليه مصرّ فالزمه، وكل مالا تريد أن يأتيك الموت وأنت عليه فاجتنبه فربما كان الموت منك قريباً. فينبغي لصاحب الولاية أن يجعل هذه الحكاية نصب عينيه وأن يقبل المواعظ التي وُعظ بها غيره، فكلما رأى عالماً سأله أن يعظه، وينبغي للعلماء أن يعظوا الملوك بمثل هذه المواعظ ولا يغرّوهم ولا يدّخروا عنهم كلمة الحق، وكل من غرّهم فهو مشارك لهم، والله سبحانه وتعالى أعلم

الأصل الثالث

من ذلك ينبغي أن لا تقنع برفع يدك عن الظلم، لكن تُهذّب غلمانك وأصحابك وعمالك ونوابك فلا ترضى لهم بالظلم فإنك تُسأل عن ظلمهم كما تُسأل عن ظلم نفسك.

نكتة: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى عامله أبي موسى الأشعري: "أما فإن أسعد الولاة من سعدت به رعيته، وإن أشقى الولاة من شقيت به رعيته. فإياك والتبسّط فإن عمالك يقتدون بك. وإنما مثلك كمثل دابة رأت مرعى مخضراً فأكلت كثيراً حتى سمنت فكان سمنها سبب هلاكها لأنها بذلك السمن تُذبح وتُؤكل". وفي التوراة: كل ظلم علِمه السلطان من عماله فسكت عنه كان ذلك الظلم منسوباً إليه وأُخذ به وعوقب عليه. وينبغي للوالي أن يعلم أنه ليس أحدُ أشد غبناً ممن باع دينه وآخرته بدنيا غيره، وأكثر الناس في خدمة شهواتهم، فانهم يستنبطون الحيل ليصلوا إلى مرادهم من الشهوات. وكذلك العمال لأجل نصيبهم من الدنيا يغرون الوالي ويُحَسِنون الظلم عنده فيلقونه في النار ليصلوا إلى أغراضهم. وأي عدو أشد عداوة ممن يسعى في هلاكك وهلاك نفسه لأجل درهم يكتسبه ويحصله. وفي الجملة ينبغي لمن أراد حفظ العدل على الرعية أن يرتّب غلمانه وعماله للعدل ويحفظ أحوال العمار وينظر فيها كما ينظر في أحوال أهله وأولاده ومنزله، ولا يتم له ذلك إلا بحفظ العدل أولاً من باطنه، وذلك أن لا يسلّط شهوته وغضبه على عقله ودينه، ولا يجعل عقله ودينه أسرى شهوته وغضبه، بل يجعل شهوته وغضبه أسرى عقله ودينه. ويجب أن يعلم أن العقل من جوهر الملائكة، ومن جند البارئ جلّت قدرته وأن الشهوة والغضب من جند الشيطان. فمن يجعل جند الله وملائكته أسرى جند الشيطان كيف يعدل في غيرهم. وأول ما تظهر شمس

العدل في الصدر، ثم ينشر نورها في أهل البيت وخواص الملك فيصل شعاعها إلى الرعية، ومن طلب الشعاع في غير الشمس فقد طلب المحال وطمع فيما لا يُنال. واعلم أيها السلطان وتبيّن أن ظهور العدل من كمال العقل، وكمال العقل أن ترى الأشياء على ما هي وتدرك حقائق باطنها ولا تغتر بظاهرها. مثلاً إذا كنت تجور على الناس لأجل الدنيا، فينبغي أن تنظر أي شيء مقصودك من الدنيا، فإن كان مقصودك من الدنيا أكل الطعام الطيب فيجب أن تعلم أن هذه شهوة بهيمة في صورة آدمي لأن الشهوة إلى الأكل من طباع البهائم، وإن كان مقصودك لبس التاج فإنك امرأة في صورة رجل لأن التزين والرعونة من أعمال النساء، وإن كان مقصودك أن تُمضي غضبك على أعدائك فأنت أسد أو سبع في صورة آدمي لأن إحضار الغضب للقلب من طباع السباع، وإن كان مقصودك أن تخدمك الناس فأنت جاهل في صورة عاقل، فإنك لو كنت عاقلاً لعلمت أن الذين يخدمونك إنما هم خدم وغلمان لبطونهم وفروجهم وشهواتهم، وأن خدمتهم وسجودهم لأنفسهم لا لك، وعلامة ذلك أنهم لو سمعوا إرجافاً بأن الولاية تؤخذ منك وتعطى لسواك أعرضوا بأجمعهم عنك، وفي أي موضع علموا الدرهم خدموا وسجدوا لذلك الموضع، فعلى الحقيقة ليست هذه خدمة وإنما هي ضحكة. والعاقل من نظر أرواح الأشياء وحقائقها ولا يغتر بصورها، وحقيقة هذه الأعمال ما ذكرناه وأوضحناه، فكل من لم يتيقن ذلك فليس بعاقل، ومن لم يكن عاقلاً لم يكن عادلاً، ومن لم يكن عادلاً مأواه جهنم فلهذا السبب كان رأس مال السعادات كلها العقل.

الأصل الرابع

إن الوالي في الأغلب يكون متكبراً، ومن التكبر يحدث عليه السخط الداعية إلى الانتقام، والغضب غول العقل وعدوه وآفته، وقد ذكرنا ذلك في كتاب الغضب في ربع المهلكات[٧١]. وإذا كان الغضب غالباً فينبغي أن يميل في الأمور إلى جانب العفو ويتعود الكرم والتجاوز، فإذا صار ذلك عادة لك ماثلت الأنبياء والأولياء، ومتى جعلت إمضاء الغضب عادة ماثلت السباع والدواب.

حكاية: يقال أن أبا جعفر المنصور أمر بقتل رجل والمبارك بن الفضل حاضر فقال: يا أمير المؤمنين اسمع خبراً قبل أن تقتله. روى الحسن البصري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: :إذا كان يوم القيامة وجُمع الخلائق في صعيد واحد، نادي منادٍ من كان له عند الله يد فليقم، فلا يقوم إلا من عفا عن الناس، فقال أطلقوه فإني قد عفوت عنه". وأكثر ما يكون قال عيسى عليه السلام ليحيى بن زكريا عليهما السلام: "إذا ذكرك أحد بشيء وقال فيك صحيحاً فاشكر الله، وإن قال فيك كذباً فازدد من ذكر الشكر، فإنه يزيد في ديوان أعمالك وأنت مستريح"، يعني أن حسناته تكتب لك في ديوانك. وذُكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل، فقيل إن فلاناً رجل قوي شجاع فقال: كيف ذاك فقالوا: يقوى بكل أحد وما صارع أحداً إلا صرعه، فقال عليه الصلاة السلام: "القوي

[71] من كتاب "إحياء علوم الدين"

الشجاع من قهر نفسه لا من صرع غيره". وقال عليه الصلاة والسلام: "ثلاث من كانت فيه فقد كمل إيمانه: من كظم غيظه، وأنصف في حال رضاه وغضبه، وعفا عند المقدرة". وقال عمر ابن الخطاب: "لا تعتمد على خُلِق رجل حتى تجربه عند الغضب".

حكاية: قيل عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه بلغه عن رجل كلام يكرهه، فأخذ طبقاً مملوأً من التمر الجني وحمله بنفسه إلى دار ذلك الرجل، فطرق الباب، فقام الرجل وفتح الباب فنظر إلى الحسين ومعه الطبق فقال: وما هذا يا ابن بنت رسول الله؟ قال: خذه فإنه بلغني عنك أنك أهديت إليّ حسناتك فقابلت بهذا.

حكاية أخرى: خرج زين العابدين علي بن الحسين رضي الله عنهما إلى المسجد فسبّه رجل، فقصده غلمانه ليضربوه ويؤذونه فنهاهم زين العابدين وقال: كفوا أيديكم عنه، ثم التفت إلى ذلك الرجل وقال: يا هذا أنا أكثر مما تقول، وما لا تعرفه مني أكثر مما قد عرفته، فإن كان لك حاجة في ذكره ذكرته لك. فخجل واستحيى فخلع عليه زين العابدين قميصه وأمر له بألف درهم فمضي الرجل وهو يقول: أشهد أن هذا الشاب ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويُروى أن زين العابدين استدعى غلاماً له وناداه مرتين فلم يجبه فقال له زين العابدين: أما سمعت ندائي؟ فقال: بلى قد سمعت. قال: فما حملك على تركك إجابتي عليّ؟ قال: أمنت وعرفت طهارة أخلاقك فتكاسلت. فقال: الحمد لله الذي أمَّن مني عبدي. ويُروى عنه أنه كان له غلام فعمد إلى شاة فكسر رجلها فقال له: لم فعلت هذا؟ قال: فعلته عمداً لأغيظك. قال: ما أنا أغْيَظ من الذي علَّمك، وهو إبليس، أذهب فأنت حر لوجه الله تعالى. ويُروى أن رجلاً سبه فقال له زين العابدين: يا هذا بيني وبين جهنم عقبة، إن أنا أجزتها فما أبالي، وإن أنا لم أجزها فأنا أكثر مما تقول. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قد يبلغ الرجل بحلمه وعفوه درجة الصائم القائم، ويكون رجل يكتب في جريدة الجائرين ولا ولاية له ولا حكم إلا على أهل منزله". ويُروى أن إبليس رأى موسى عليه السلام فقال: يا موسى أعلمك ثلاثة أشياء وتطلب لي من الله حاجة واحدة فقال: وما الثلاثة أشياء فقال يا موسى احذر من الغضب والحرد[٧٢] فإن الحَردان يكون خفيف الرأس وأنا ألعب به كما يلعب الصبيان بالكرة، واحذر من البخل فإني أفسد على البخيل دنياه ودينه، واحذر من النساء فإني ما نصبت للخلق شركاً اعتمد عليه مثل النساء. وقال عليه الصلاة والسلام: "من كظم غيظه وهو قادر على أن لايكظمه ملأ الله قلبه بالإيمان، ومن لم يلبس ثوباً طويلاً خوفاً من التكبر والخيلاء ألبسه الله تعالى حلل الكرامة". وقال عليه الصلاة والسلام: "ويل لمن يغضب وينسى غضب الله". وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: علمني عملاً أدخل به الجنة. فقال: "لا تغضب". قال: ثم ماذا؟ قال: "استغفر الله قبل صلاة العصر سبعين مرة لتكفر عنك ذنوب سبعين سنة". فقال: ما لي ذنوب سبعين سنة. فقال: لأمك. قال: وما لأمي ذنوب سبعين سنة. قال: لأبيك.

[72] الغضب (المعجم الوجيز)

قال: وما لأبي ذنوب سبعين سنة. قال: لأخوتك. قال: نعم. وروى ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقسم يوماً مالاً فقال له رجل: ما هذه القسمة، يعني أنها ليست بإنصاف. فحُكيت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فغضب واحمرّ وجهه ولم يقل شيئاً سوى أن قال: رحم الله أخي موسى فإنه أوذي فصبر على الأذى. فهذه الجملة من الحكايات والأخبار تقنع في نصيحة الولاة إذا كان أصل إيمانهم ثابتاً أثر فيه هذا القدر، فإن لم يؤثر ما ذكرناه فيهم فقد أخلوا قلوبهم من الإيمان وإنه ما بقي من إيمانهم إلا الحديث باللسان.

الأصل الخامس

إنك في كل واقعة تصل إليك وتُعرض عليك تُقدر أنك واحد من جملة الرعية وأن الوالي سواك، فكل ما لا ترضاه لنفسك لا ترضى به لأحد من المسلمين، وإن رضيت لهم بما لا ترضاه لنفسك فقد خُنت رعيتك وغششت أهل ولايتك. رُوي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قاعداً يوم بدر في ظل فهبط الأمين جبريل عليه السلام فقال: يا محمد أتقعد في الظل وأصحابك في الشمس؟ فعوتب بهذا القدر. وقال عليه الصلاة والسلام: "من أحب النجاة من النار والدخول إلى الجنة فينبغي أن يكون بحيث إذا جاءه الموت وجد كلمة الشهادة بلسانه، وكل ما لا يرضى به لنفسه لا يرضى به لأحد من المسلمين". وقال عليه الصلاة والسلام: "من أصبح في قلبه همة سوى الله فليس من الله في شيء، ومن لم يشفق على المسلمين فليس منهم".

الأصل السادس

أن لا تحتقر انتظار أرباب الحوائج ووقوفهم ببابك، وأحذر من هذا الخطر. ومتى كان لأحد من المسلمين إليك حاجة فلا تشتغل عن قضائها بنوافل العبادات فإن قضاء حوائج المسلمين أفضل من نوافل العبادات.

الأصل السابع

أن لا تعود نفسك الاشتغال بالشهوات من لبس الثياب الفاخرة وأكل الأطعمة الطيبة، لكن تستعمل القناعة في جميع الأشياء فلا عدل بلا قناعة.

نكتة: سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعض الصالحين فقال: هل رأيت من حلاي شيئاً تكرهه؟ قال: سمعت أنك وضعن على مائدتك رغيفين وأن لك قميصين أحدهما لليل والآخر للنهار. فقال: غير هذين شيء؟ فقال: لا. قال: والله إن هذين لا يكونان أبداً.

الأصل الثامن

إنك متى أمكنك أن تعمل الأمور بالرفق واللطف فلا تعملها بالشدة والعنف. قال صلى الله عليه وسلم: "كل والٍ لا يرفق برعيته لا يرفق الله به يوم القيامة". ودعا عليه الصلاة والسلام يوماً: "اللهم الطف بكل والٍ يلطف برعيته واعنف على كل والٍ يعنف على رعيته".

نكتة: كان هشام بن عبد الملك من خلفاء بني أمية فسأل يوماً أبا حازم وكان من العلماء: ما التدبير في النجاة من أمور الخلافة؟ قال: أن تأخذ الدرهم الذي تأخذه من وجه حلال وأن تضعه في موضع حق. قال: من يقدر على هذا؟ قال: من يرغب في نعيم الجنان ويرهب من عذاب النيران.

الأصل التاسع

أن تجتهد أن ترضى عنك رعيتك بموافقة الشرع. قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: "خير أمتي الذين يحبونكم وتحبونهم، وشر أمتي الذين يبغضونكم وتبغضونهم ويلعنونكم وتلعنونهم، وينبغي للوالي أن لا يغتر بكل من وصل إليه وأثنى عليه، وأن لا يعتقد أن الرعية مثله راضون عنه، وأن الذي يُثني عليه إنما يفعل ذلك من خوفه منه بل ينبغي ترتيب معتمدين يسألون عن حاله من الرعية ليعلم عيبه من ألسنة الناس".

الأصل العاشر

أن لا يطلب رضا أحد من الناس بمخالفة الشرع، فإن من سخط بخلاف الشرع لا يضر سخطه. كان عمر ابن الخطاب رضي الله عنه يقول: "إني لأصبح ونصف الخلق علي ساخط، ولابد لكل من يؤخذ منه الحق أن يسخط، ولا يمكن أن يرضى الخصمين. وأكثر الناس جهلاً من ترك الحق لأجل رضا الخلق". كتب معاوية إلى عائشة رضي الله عنهما أن عظيني عظة مختصرة. فكتبت إليه تقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من طلب رضا الله تعالى في سخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن طلب رضا الناس بسخط الله تعالى سخط الله عليه وأسخط الخلق عليه، مثل أن لا يأمرهم بالطاعة ولا يعلمهم أمور الدين، ويطعمهم الحرام، ويمنع الأجير أجرته، والمرأة مهرها، سخط الله عليه وأسخط عليه الناس".

بيان العينين اللتين هما مشرب شجرة الإيمان

وإذ قد عرفت أصول شجرة الإيمان وعرفت فروعها فاعلم أن هناك عينين للعلم تستمد الشجرة منهما الماء.

العين الأولى: في معرفة الدنيا ولم أُوجد فيها الإنسان

اعلم يا سلطان العالم أن الدنيا منزلة وليست بدار قرار، والإنسان مسافر فأول منازله بطن أمه وآخر منازله لحد قبره، وإنما وطنه وقراره ومكثه واستقراره بعدها. فكل سنة تنقضي من الإنسان فكالمرحلة، وكل شهر ينقضي منه فكاستراحة المسافر في طريقه، وكل أسبوع فكقرية تلقاه، وكل يوم فكفر[٧٣] سوف يقطعه، وكل نفس كخطوة يخطوها، وبقدر كل نفس يتنفسه يقرب من الآخرة. وهذه الدنيا قنطرة فمن عمر القنطرة واستعجل بعمارتها ففي فيها زمانه، ونسي المنزلة التي هي مصيره ومكانه، وكان جاهلاً غير عاقل. وإنما العاقل الذي لا يشتغل في دنياه إلا لاستعداده لمعاده، ويكتفي منها بقدر الحاجة، ومهما جمعه فوق كفايته كان سماً ناقعاً ويتمنى أن تكون جميع خزائنه وسائر ذخائره رماداً وتراباً لا فضة ولا ذهباً، ولو جمع مهما جمع فإن نصيبه ما يأكله ويلبسه لا سواه، وجميع ما يخلفه يكون عليه حسرة وندامة ويصعب عليه نزعه عند موته، فحلالها حساب وحرامها عذاب، إن كان قد جمع المال من حلال طُلب منه الحساب، وإن كان قد جمع من حرام وجب عليه العذاب. وإن كان إيمانه صحيحاً سالماً لحضرة الديان فلا وجه ليأسه من الرحمة والرضوان، فإن الله جواد كريم غفور رحيم. واعلم أيها السلطان أن راحة الدنيا أيام قلائل، وأكثرها مُنَغص بالتعب مشوب بالنصب، وبسببها تفوت راحة الآخرة التي هي الدائمة الباقية والمُلك الذي لا نهاية له ولا فناء، فيسهل على العاقل أن يصبر في هذه الأيام القلائل لينال راحة دائمة بلا انقضاء.

نكتة: لو كان للإنسان معشوقة وقيل له إن صبرت عنها هذه الليلة سلمت إليك ألف ليلة بلا تعب ولا نصب، وإن كنت تزورها فإنك لا تراها أبداً، فإنه كان عشقه لها عظيماً وصبره عنها أليماً، لكن يهون عليه صبره على البعد عنها ليلة واحدة لينال الآخرة، بل الدنيا ليست بشيء في جنب الآخرة ولا شبه بينهما، لأن الآخرة لا نهاية لها ولا يُدرك بالوهم طولها.

* وقد أفردنا في صفة الدنيا كتاباً لكنا نقتنع الآن بما نورده من حال الدنيا وقد أوضحنا حالها على عشرة أمثلة.

المثال الأول في بيان سحر الدنيا

قد قال صلى الله عليه وسلم: "أحذروا الدنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت، وأول سحرها أنها تريك أنها ساكنة عندك مستقرة معك، وإذا تأملتها خِلتها وهي هاربة منك نافرة عنك على الدوام، وإنما تتسلسل على التدريج ذرة ذرة ونفساً نفساً". ومثل الدنيا مِثل الظل إذا رأيته حسبته ساكناً وهو يمر دائماً، وكذلك عمر الإنسان يمر بالتدريج على الدوام، وينقص كل لحظة. وكذلك الدنيا تودعك وتهرب عنك وأنت غافل لا تخبر، وذاهل لا تشعر. ولذلك قال بعض الشعراء في المعنى:

[73] الكفر: القرية الصغيرة (المعجم الوجيز)

وما الدُنيَا وإن كثُرت وطابَت ** بها اللذاتُ إلا كالسَرابِ

يمُرُ نعيمُها بعدُ اِلتذاذِ ** ويمضِي ذاهباً مرّ السحابِ

المثال الثاني من ذلك: ومن سِحرها أنها تُظهر لك محبة لتعشقها، وتُريك أنها لك مُساعِدة، وأنها لا تنتقل عنك إلى غيرك، ثم تعود عدوة لك على غفلة. ومثلها مثل امرأة فاجرة خداعة للرجال حتى إذا رأوها عشقوها ودعتهم إلى بيتها فاغتالتهم وأهلكتهم.

نكتة: رأى عيسى عليه السلام الدنيا في بعض مكاشفاته وهي على صورة عجوز هرمة فقال لها: كم كان لك من زوج؟ فقالت: لا يحصون كثرة. فقال عيسى: ماتوا أم طلقوك؟ فقالت: بل أنا قتلتهم وأفنيتهم. فقال: يا عجباً ومن دواهيك، هذا صنعك بأهلك، وهم فيك راغبون وعليك يقتتلون وبمن مضى لا يعتبرون.

المثال الثالث من ذلك: ومن سحرها أنها تُزين ظاهرها بمحاسنه وتخفي محنتها وقواتلها في باطنها لتغر الجاهل بما يرى من ظاهرها، ومثلها كمثل عجوز قبيحة المنظر تخفي وجهها وتلبس حسن الثياب وتتزين وتتجمل لتفتن الخلق من بعد، فإذا كشفوا عنها غطاءها وخمارها وألقوا عنها إزارها ندموا على محبتها لما شاهدوه من فضائحها وعاينوه من قبائحها. وقد جاء في الخبر أن الدنيا يؤتى بها يوم القيامة في صورة عجوز قبيحة مشوهة زرقاء العين وحشة الوجه قد كشّرت عن أنيابها فإذا رآها الخلائق قالوا نعوذ بالله من هذه القبيحة المشوهة، فيقال لهم هذه الدنيا التي كنتم عليها تتحاسدون، ولأجلها كنتم تتحاقدون وتسفكون الدماء بغير حق، وتقطعون أرحامكم وتغترون زخرفها، ثم يؤمر بها إلى النار فتقول: إلهي أين أحبابي فيؤمر بهم فيلقون في نار جهنم.

المثال الرابع من ذلك: إن الإنسان يحسب كم كان في الأزل قبل أن يوجد في الدنيا، وكم يكون مدة عدمه بالموت، وكم قدر هذه المدة التي بين الأبد والأزل وهي مدة حياته في الدنيا، فيعلم أن مثال الدنيا كطريق المسافر أوله المهد وآخره اللحد وفيما بينهما منازل معدودة، وأن كل سنة كمنزل، وكل شهر كفرسخ، وكل يوم كميل، وكل نفس كخطوة، وهو يسير دائماً فيبقى لواحد من طريقه فرسخ ولآخر أكثر، وهو قاعد ذاهل وساكن غافل كأنه مقيم لا يبرح، وقد اشتغل بتدبير أعمال لا يحتاج إليها بعد عشر سنين، وربما يحصل بعد عشرة أيام تحت التراب.

المثال الخامس من ذلك: اعلم أن مثل الدنيا تتحف أهلها فيها بشهواتهم ولذاتهم من الأمور الفضائح التي يشاهدونها في الآخرة، كمثل إنسان أكل فوق حاجته من طعام حلو سمين إلى أن هاضت معدته فرأى فضيحته من هلاك معدته ونتونة نفسه وكره برازه وحاجته، فندم بعد ذهاب لذته وبقاء فضيحته من هلاك معدته. وكذلك كلّما ألَف الإنسان لذات الدنيا وتبين له ذلك كانت عاقبته أصعب، ويُبتلى بمثل ذلك عند نزعه خروج روحه، كمن كان

له نِعم كثيرة وذهب وفضة وجوار وغلمان وكروم وبساتين وفارقه، كان ألم فراق روحه عليه أصعب ممن ليس له إلا القليل، فإن ذلك الألم والعذاب لا يزول بالموت بل يزيد، لأن تلك المحبة صفة القلب والقلب بحاله لا يموت.

المثال السادس من ذلك: اعلم أيها السلطان أن أمور الدنيا أول ما تبدو يظنها الإنسان قريبة مختصرة، وأن شُغلها لا يدوم، وربما كان من بعض أشغالها وأحوالها أمر يتسلسل منه أمر وينفق فيه بضاعة العمر، فإن عيسى عليه السلام قال: طالب الدنيا كشارب ماء البحر، كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً ولهباً، فلا يزال يشرب حتى يهلك ولا يروى. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "كما لا يمكن لمن خاض البحر أن لا يناله البلل، كذلك لا يمكن من دخل في أمور الدنيا أن لا يتدنس".

المثال السابع من ذلك: مثل من حصل في الدنيا كمثل ضيف دُعي إلى مائدة، ومن عادة المضيف أن يزين داره للأضياف، ويدعو إليها قوماً بعد قوم وفوجاً بعد فوج، ويضع بين يدي أضيافه طبقاً من ذهب مملوءاً بالجوهر ومجمرة من فضة من عود وبخور ليتطيبوا ويتبخروا وينالهم طيب رائحتها، ثم يعاودون الطبق والمجمرة بحالهما لمالكهما ليدعو غيرهم كما دعاهم. فمن كان عاقلاً عارفاً برسم الدعوات وضع من ذلك البخور على النار وتطيب وانصرف ولم يطمع أن يتناول الطبق والمجمرة وتركهما بطيبة من قلبه وشكر لصاحب البيت وربه. ومن كان أبله أحمق توهم أن ذلك الطبق والمجمرة قد أُعدا له وهم يريدون أن يهبوهما له، فلما همّ بالخروج أخذ الطبق والمجمرة فلم يُمَكَّن من الخروج بهما واستعادوهما منه فضاق صدره وتعب قلبه وطلب الأقالة إذ ظهر ذنبه، فالدنيا كمثل طريق المسافر ودار الضيافة ليتزودوا منها لطريقهم ولا يطمعوا في الدار.

المثال الثامن: مثل أهل الدنيا واشتغالهم بأشغالهم واهتمامهم بأحوالها ونسيان الآخرة وإهمالها كمثل قوم ركبوا مركباً في البحر فعدلوا إلى جزيرة لأجل الطهارة وقضاء الحاجة، فنزلوا إلى الجزيرة والملاّح يناديهم لا تطيلوا المُكث لئلا يفوت الوقت ولا تشتغلوا بغير الوضوء والصلاة فإن المركب سائر، فمضوا وتفرّقوا في الجزيرة وانتشروا في نواحيها فالعقلاء منهم لم يمكثوا وشرعوا في الطهارة وعادوا إلى المركب فأصابوا الأماكن خالية فجلسوا في أطهر الأماكن وأوفقها وأرفعها، ومنهم قوم نظروا إلى عجائب تلك الجزيرة ووقفوا يتنزهون في زهرتها وثمارها وروضاتها وأشجارها ويسمعون طيب ترنّم أطيارها ويتعجبون من حصبائها الملونة وأحجارها فلما عادوا إلى المركب لم يجدوا موضعاً ولا رأوا متسعاً فقعدوا في أضيق مواضعه وأظلمها. ومنهم قوم لم يقنعوا بالنزهة ولم يقتصروا على الفرجة لكنهم جمعوا من تلك الحصباء الملونة ثم حملوها معهم إلى المركب فلم يجدوا مكاناً ولا فرجة فقعدوا في أضيق المواضع وحملوا ما استصحبوا من تلك الأحجار على أعناقهم فلم يمض إلا يوم أو يومان حتى تغيرت ألوان تلك الأحجار واسودت وفاح منها أكره رائحة ولم يجدوا مخلصاً من الزحام ليلقوا ثقلها عن أعناقهم فندموا على ما فعلوا وحصلوا بثقل الأحجار على أعناقهم إذ كانوا بتحصيلها اشتغلوا، ومنهم قوم وقفوا مع عجائب تلك الجزيرة وتنزهوا وفي الرجوع لم

يتفكروا حتى سار المركب فبعدوا عنه وانقطعوا في أماكنهم وتخلفوا إذ لم يصيحوا إلى المنادي ولم يسمعوا فمنهم من أكلته السباع وتهشه الضباع. فالقوم المتقدمون هم القوم المؤمنون المتقون، والقوم المتخلفون الهالكون هم الكفار المشركون الذين نسوا الله ونسوا الآخرة سلموا كليتهم إلى الدنيا وركنوا إليها، كما قال عز من قائل: {ذلك بِأنهم اِستحَبُوا الحَياة الدُنيا على الآخرةِ}، أي ركنوا إليها، وأما الجماعة المتوسطون فهم العصاة الذين حفظوا أصل الإيمان لكنهم لم يكفوا أيديهم عن الدنيا، فمنهم من تمتع بغناه ونعمته ومنهم من تمتع مع فقره وحاجته إلى أن غلبت أوزارهم وكثرت أوساخهم وأوضارهم.

المثال التاسع: كان في زمن عيسى عليه السلام ثلاثة سائرين في طريق فوجدوا كنزاً فقالوا: قد جعنا فليمضِ واحد منا ويبتاع لنا طعاماً. فمضى أحدهم ليأتيهم بطعام فقال: الصواب أن أجعل لهما سماً قاتلاً في الطعام ليأكلا منه فيموتا وانفرد بالكنز دونهما ففعل ذلك وسم الطعام. واتفق الرجلان الآخران أنه إذا وصل إليهما قتلاه وانفردا بالكنز دونه. فلما وصل ومعه الطعام المسموم قتلاه وأكلا من الطعام فماتا. فاجتاز عيسى عليه السلام بذلك الموضع فقال للحواريين: هذه الدنيا كيف قتلت هؤلاء الثلاثة وبقيت من بعدهم ويل لطلاب الدنيا من....

العين الثانية: معرفة النفس الأخير

اعلم يا سلطان العالم أن بني آدم طائفتان: طائفة نظروا إلى شاهد حال الدنيا وتمسكوا بتأميل العمر الطويل. وطائفة عقلاء جعلوا النفس الأخير نصب أعينهم لينظروا إلى ماذا يكون مصيرهم وكيف يخرجون من الدنيا ويفارقونها وإيمانهم سالم، وما الذي ينزل معهم من الدنيا في قبورهم وما الذي يتركونه لأعدائهم من بعدهم ويبقى عليهم وباله ونكاله. وهذه الفكرة واجبة على الخلق، وهي على الملوك وأهل الدنيا أوجب، لأنهم كثيراً أزعجوا قلوب الخلائق وأنفذوا إلى الناس الغلمان بالسيئات وأفزعوا الخليقة وأدخلوا في قلوبهم الرعب، فإن بحضرة الحق تعالى غلاماً اسمه عزرائيل لا مهرب لأحد من مطالبته وتشتيته، وكل موكلي الملوك يأخذون جُعلَهم ذهباً وفضة وطعاماً وصاحب هذا التوكيل لا يأخذ سوى الروح جُعلاً، وسائر موكلي السلاطين تنفع عندهم الشفاعة وهذا الموكل لا تنفع عنده شفاعة شافع، وجميع المُوكلين يمهلون من يوكلون إليه اليوم والليلة والساعة وهذا الموكل لا يمهل نفساً واحداً، وعجائب أحواله كثيرة إلا أنّا نذكر من أحواله خمس حكايات.

الحكاية الأولى: وهو ما رواه وهب بن منبه، وكان من علماء اليهود وأسلم، روى أنه كان ملك عظيم أراد أن يركب يوماً في جملة أهل مملكته ويُرِي الخلق عجائبه وزينته، فأمر أمراءه وحجابه وكبراء دولته رتبة بالركوب ليظهر للناس سلطنته. فأمر بإحضار فاخر الثياب وأمر بعرض خيوله المعروفة وعتاقه الموصوفة فاختار من جملتها جواداً يعرف السبق فركبه بالمركب والطوق المرصع بالجوهر، وجعل يركض الحصان في عسكره ويفتخر بتيهه وتجبره، فجاء إبليس فوضع فمه في منخره ونفخ هواء الكبر في أنف أنفته، فقال في نفسه من في العالم مثلي، وجعل يركض

بالكبرياء ويزهو بالخيلاء ولا ينظر إلى أحد من تيهه وكبره وعجبه وفخره، فوقف بين يديه رجل عليه ثياب رثة فسلم عليه فلم يرد عليه سلامه، فقبض على عنان فرسه فقال له الملك: إرفع يدك فإنك لا تدري بعنان من قد أمسكت. فقال: لي إليك حاجة. فقال: اذكر حاجتك. فقال: إنها سرُ ولا أقولها إلا في أذنك فأصغى إليه بسمعه. فقال: أنا ملك الموت أريد أن أقبض روحك. فقال: أمهلني بقدر ما أعود إلى بيتي وأودّع أولادي وزوجتي. فقال: كلا لا تعود تراهم أبداً فإنك قد فنيت مدة عمرك، وأخذ روحه وهو على ظهر الفرس فخر ميتاً. وعاد ملك الموت من هناك فأتى رجلاً صالحاً قد رضي ربه عليه فسلم عليه فرد عليه السلام، فقال: لي إليك حاجة وهي سر، فقال الصالح: قل حاجتك في أذني، فقال: أنا ملك الموت فقال: مرحباً بك الحمد لله على مجيئك فإني كنت كثير الترقّب لوصولك، ولقد طالت علي غيبتك وكنت مشتاقاً إلى قدومك. فقال له ملك الموت: إن كان لك شغل فاقضِه. فقال: ليس لي شغل أهم عندي من لقاء ربي عز وجل. فقال: كيف تحب أن أقبض روحك؟ قال: إذا أنا سجدت فخذ روحي وأنا ساجد ففعل ملك الموت ما أمره به ونقله الى رحمة ربه جل وعلا.

الحكاية الثانية: رُوي أنه كان ملك كثير المال قد جمع مالاً عظيماً من كل نوع خلقه الله تعالى من متاع الدنيا ليرفّه نفسه ويتفرغ لأكل ما جمعه، فجمع نعماً طائلة وبني قصراً عالياً مرتفعاً سامياً يصلح للملوك والأمراء والأكابر والعظماء، وركّب عليه بابين محكمين وأقام عليه الغلمان الأجلاد والحرسة والأجناد والبوابين كما أراد. وأمر ببعض الأيام أن يُصطنع له من أطيب الطعام، وجمع أهل مملكته وحشمه وأصحابه وخدمه ليأكلوا عنده وينالوا رفده، وجلس على سرير مملكته واتكأ عل وسادته، وقال: يا نفس قد جمعت نعم الدنيا بأسرها، فالآن أفرغي بالك وكلي هذه النعم مهنأة بالعمر الطويل والحظ الجزيل. فلم يفرغ مما حدث به نفسه حتى أتى رجل من ظاهر القصر عليه ثياب رثة خلقة ومخلاته في عنقه معلقة على هيئة سائل يسأل الطعام، فجاء وطرق الباب طرقة عظيمة هائلة بحيث تزعزع القصر وتزلزل وخاف الغلمان ووثبوا إلى الباب وصاحوا بالطارق وقالوا: يا ضعيف ما هذا الحرص وسوء الأدب، اصبر حتى نأكل ونطعمك مما يفضل، فقال لهم: قولوا لصاحبكم ليخرج إلي فلي إليه شغل مهم وأمر ملم. فقالوا تنح أيها الضعيف من أنت حتى تأمر صاحبنا بالخروج إليك؟ فقال: أنتم عرّفوه ما ذكرت. فلما عرّفوه من الطرقة الأولى فنهضوا من أماكنهم بالعصي والسلاح وقصدوه ليحاربوا فصاح بهم صيحة وقال: إلزموا أماكنكم فأنا ملك الموت، فارتعدت فرائضهم وبطلت عن الحركة جوارحهم ورعبت قلوبهم وطاشت عقولهم، فقال الملك: قولوا له ليأخذ بدلاً مني وعوضاً عني. فقال: ما آخذ إلا أنت ولا أتيت إلا لأجلك لأفرق بينك وبين هذه النعم التي خولتها. فقال: لعن الله هذا المال الذي غرني وأضرني ومنعني عن عبادة ربي وكنت أظن أنه ينفعني، فاليوم صار حسرتي وبلائي وخرجت صفر اليدين منه وبقي لأعدائي. فأنطق الله المال حتى قال: لأي شيء تلعنني إلعن نفسك فإن الله تعالى خلقني وإياك من تراب وجعلني في يدك لتتزود بي إلى آخرتك وتتصدّق بي على الفقراء وتتزكي بي على الضعفاء ولتعمر بي الربط والمساجد والجسور والقناطر لأكون لك عوناً في اليوم الآخر، وأنت جمعتني وخزنتني وفي

هواك، أنفقتني ولم تشكر حقي بل كفرتني، فالآن تركتني لأعدائك وأنت بحسرتك وضرائك، فأي ذنب لي حتى تلعنني.

الحكاية الثالثة: قال يزيد الرقاشي: كان في زمن بني إسرائيل جبار من الجبابرة وكان في بعض الأيام جالساً على سرير ملكه فرأى رجلاً قد دخل من باب الدار ذا صورة منكرة وهيئة هائلة فلشدة خوفه من هجومه وهيبة قدومه وثب في وجهه وقال: من أنت أيها الرجل ومن أمرك بالدخول إلى داري؟ فقال: صاحب الدار وأنا الذي لا يحجبني حاجب ولا أحتاج في دخولي على ملك إلى إذن، ولا أرهب من سياسة سلطان ولا يفزعني جبار ولا لأحد من قبضتي فرار. فلما سمع هذا الكلام خر على وجهه ووقعت الرعدة في جسده فقال له: أنت ملك الموت. قال: نعم. قال: أقسم بالله عليك ألا ما أمهلتني يوماً واحداً لأتوب من ذنبي وأطلب العذر من ربي وأرد الأموال التي أودعتها خزانتي فلا أتحمل مشقة عذابها في الآخرة. فقال: كيف أمهلك وأيام عمرك محسوبة وأوقاته مثبوتة مكتوبة؟ فقال: أمهلني ساعة. فقال: إن الساعات في الحساب وقد عبرت وأنت غافل، وقد استوفيت أنفاسك ولم يبق لك نفس واحد. فقال: من يكون عندي إذا نقلتني إلى لحدي قال: لا يكون عندك سوى عملك. فقال: مالي عمل. قال: ثم قبض روحه فخر من سريره ووقع وعلا الضجيج من داخل مملكته وارتفع، ولو علموا ما يصير إليه من سخط ربه لكان بكاؤهم اكثر وعويلهم أوفر.

الحكاية الرابعة: يُقال أن ملك الموت دخل على سليمان بن داود عليهما السلام فجعل يحد نظره ويطيل بصره إلى رجل من ندمائه، فلما خرج قال ذلك الرجل: يا نبي الله من كان ذلك الرجل الذي دخل؟ فقال: ملك الموت. فقال: أخاف أن يريد قبض روحي فخلصني من يده. فقال: كيف أخلصك؟ فقال: تأمر الريح أن تحملني في هذه الساعة إلى بلاد الهند لعله يضل عني ولا يجدني. فأمر سليمان الريح فحملته في الوقت والحال فعاد ملك الموت ودخل على سليمان بن داود عليهما السلام فلما دخل عليه قال له: لأي سبب كنت تطيل النظر إلى ذلك الرجل قال: كنت أتعجب منه لأني أُمرت أن أقبض روحه في أرض الهند وكان بعيداً عنها إلى أن اتفق بحمل الريح له إلى هناك فكان ما قدره الله تعالى.

الحكاية الخامسة: يُروى أن ذا القرنين مر بقوم لا يملكون شيئاً من أسباب الدنيا وقد حفروا قبور موتاهم على أبواب دورهم، وهم كل يوم يتعمّدون تلك القبور يكنّسونها وينظّفونها وينخرونها ويزورونها ويعبدون الله فيها، وما لهم طعام إلا الحشيش ونبات الأرض. فبعث إليهم ذو القرنين رجلاً فدعا ملكهم فلم يجبه، وقال: ما لي وله. فجاء ذو القرنين وقال: كيف حالكم فإني لا أرى لكم شيئاً من ذهب ولا فضة ولا أرى عندكم شيئاً من نعم الدنيا. قال: لأن نعم الدنيا لا يشبع منها أحد قط. وقال: لم حفرتم القبور على أبوابكم؟ فقال: لتكون نصب أعيننا فننظر إليها ويتجدد لنا ذكر الموت ويبرد حب الدنيا في قلوبنا فلا نشتغل بها عن عبادة ربنا. فقال: ولم تأكلون الحشيش فقال:

لأنا كرهنا أن نجعل بطوننا قبوراً للحيوانات ولأن لذة الطعام لا تتجاوز الحلق. ثم مد يده إلى طاقة فاخرج منها قحف رأس آدمي فوضعه بين يديه وقال: يا ذا القرنين أتعرف من كان صاحب هذا؟ قال: كان صاحب هذا القحف ملكا من ملوك الدنيا وكان يظلم رعيته ويجور عليهم وعلى الضعفاء ويستفرغ زمانه في جمع حطام الدنيا فقبض الله روحه وجعل النار مقره وهذا رأسه، ثم مد يده إلى الطاقة وأخرج قحفاً آخر فوضعه بين يديه، وقال له: أتعرف من كان صاحب هذا؟ قال: كان هذا ملكاً عادلاً مشفقاً على رعيته محباً لأهل مملكته فقبض الله روحه وأسكنه جنته ورفع درجته، ثم انه وضع يده على رأس ذي القرنين وقال: ترى أيّ هذين الرأسين يكون هذا الرأس؟ فبكى ذو القرنين بكاء شديداً وضمه إلى صدره فقال: هيهات ما لي رغبة في ذلك. قال: ولم؟ قال: لأن الناس جميعاً أعداؤك بسبب المال والمملكة وكلهم أصدقائي بسبب القناعة والصعلكة فالله تعالى معك.

فالآن يجب أن تعرف حكايات النفس الأخير وتتيقن معرفتها. واعلم أن أهل الغفلة المغتربين لا يحبون استماع حديث الموت لئلا يبرد حب الدنيا في قلوبهم وتتنغص عليهم لذة مأكولهم ومشروبهم. وقد جاء في الخبر أن من أكثر ذكر الموت وظلمة اللحد كان قبره روضة من رياض الجنة، ومن نسي الموت وغفل عن ذكره كان قبره حفرة من النار. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً يصف أجر الشهداء وثواب السعداء الذين قتلوا في معركة حرب الكفار فقالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله هل ينال ثواب الشهداء من لم يمت شهيداً؟ فقال عليه الصلاة والسلام: "من ذكر الموت في كل يوم عشرين مرة كان له مثل أجر الشهداء ودرجتهم". وقال عليه الصلاة والسلام: "أكثر من ذكر الموت فإنه يمحو الذنوب ويبرد الدنيا في القلوب". سئل عليه الصلاة والسلام: من أعقل الناس وأحزمهم؟ فقال: "أعقل الناس أكثرهم للموت ذكراً، وأحزمهم أحسنهم له استعداداً له شرف الدنيا وكرامة الآخرة". فمن عرف الدنيا كما ذكره وكرر في قلبه ذكر النفس الأخير سهلت عليه أمور دنياه وقوي أصل شجرة الإيمان في قلبه وأخذ في النمو والزيادة، ونمت فروع شجرة الإيمان عنده ولقي الله وإيمانه سالم. والله جلت قدرته وعلت كلمته ينّور بصيرة سلطان العالم ليرى الأشياء على ما هي عليه ويجتهد في آخرته ويُحسن إلى عباد الله وبريته فإن في رعيته ألف ألف من الخلائق إذا عدل فيهم كان الكُل شفعاءه، ومن شفع فيه من هؤلاء الخلائق من المؤمنين كان آمناً يوم القيامة من العذاب، وإن ظلمهم كان الكل خصماءه، وعاد أمره عظيم الخطر شديد الغرر، وإذا صار الشفيع خصماً أشكل الأمر.

في ذكر العدل والسياسة وذكر الملوك وسيرهم

اعلم وتيقّن أن الله سبحانه وتعالى اختار من بني آدم طائفتين وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليبينوا للعباد على عبادته الدليل، ويوضحوا لهم إلى معرفته السبيل، واختار الملوك لفض العباد من اعتداء بعضهم على بعض، ومَلَّكهم أزمة الإبرام والنقض فربط بهم مصالح خلقه في معايشهم بحكمته، وأحَلّهم أشرف محل بقدرته، كما يُسمع في

الأخبار: السلطان ظل الله في أرضه. فينبغي أن يُعلم أن من أعطاه الله درجة الملوك وجعله ظله في الأرض فإنه يجب على الخلق محبته ويلزمهم متابعته وطاعته ولا يجوز لهم معصيته ومنازعته. قال الله تعالى:{يا أيُها الذين آمنُوا أطِيعُوا الله وأطِيعُوا الرسُول وأوُلِي الأمرَ مِنكُم}، فينبغي لكل من آتاه الله الدين أن يحب الملوك والسلاطين وأن يطيعهم فيما يأمرون، ويعلم أن الله تعالى يعطي السلطنة والمملكة وأنه يؤتي ملكه من يشاء كما قال في محكم تنزليه: {تُؤتِي الملك مَن تشَاء وتنزَع الملك مِمن تشَاء وتُعِزُ مَن تشَاء وتُذِلُ مَن تشَاء بيدِك الخير إنِك على كُل شيء قَدير}. والسلطان العادل من عدل بين العباد وحذر من الجور والفساد، والسلطان الظالم شؤم لا يبقى ملكه ولا يدوم، لأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم". وفي التواريخ أن المجوس ملكوا العالم أربعة آلاف سنة وكانت المملكة فيهم، وإنما دامت المملكة بعدلهم في الرعية وحفظهم بالسوية، وأنهم ما كانوا يرون الظلم والجور في دينهم وملتهم جائز، وعمروا بعدلهم البلاد وأنصفوا العباد. وقد جاء في الخبر أن الله جلّ ذكره أوحى إلى داود عليه السلام أن أنْهِ قومك عن سب ملوك العجم فإنهم عمروا الدنيا وأوطنوها عبادي. فينبغي أن تعلم أن عمارة الدنيا وخرابها من الملوك، فإذا كان السلطان عادلاً عمرت الدنيا وأمنت الرعايا كما كانت عليه في عهد أزدشير وأفريدون وبهرام كور وكسرى أنو شروان. وإذا كان السلطان جائراً خربت الدنيا كما كانت في عهد الضحاك وافراسيان وبرزدكنها الخاطىء وأمثال هؤلاء وهكذا، إلى أن استولى أهل الإسلام وغلبوا العجم وأزاحوهم عن بلادهم وعن الملك، وقويت دولة دين الإسلام ببركة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام وذلك في عهد خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فأعلم وتيقّن أن هؤلاء الملوك الذين ذكرناهم كانوا أصحاب الدنيا وملوك الأرض، وأنهم بلغوا من الدنيا مرادهم وصرفوا باللذات أوقاتهم، ومضوا وبقيت أسماؤهم وسماتهم كما عددناه من أفعالهم وأوردناه من خصالهم، لتعلم أن الناس إنما هم الحديث الذي يبقي بعدهم، فكل إنسان يذُكر بالذي كان يفعله وينسب إليه ما كان يعمله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر. فيجب على الإنسان أن يزرع بذر الإحسان، وأن يبقى عن نفسه العيوب الفاحشات والخطايا الموبقات، لا سيما الملوك، ليبقى بعدهم حسن الإسم وصالح الرسم لئلا يذكر بالقبيح وقد حل بالضريح، كما قال الشاعر:

اهرُب مِن الذَنبِ وتُب يا فَتَى ** وإن بَدا مِنك فعُد واندم

وانفِ عن نفسِك ما شَانَها ** ومن مساوُي الدهرُ خِف تسَلم

وبُعدُك يُبقِي الذِكرَ لا غَيره ** فكُن حَديثاً حسناً تغنمُ

يقال أن ذِكر الرجال بعدهم حياتهم الثانية في الدنيا، فواجب على العقلاء قراءة أخبار الملوك والنظر في أحوال هذه الدنيا القليل وفاؤها والكثير بلاؤها، وأن لا يعقلوا قلوبهم بأمانيها، فإنها لا يبقى عليها صالح ولا يسلم فيها طالح. وليجتهد العاقل أن لا يكثر خصومه، فإن أمر الخصوم صعب هائل، والبارئ تعالى حاكم عادل لا بد أن ينصف

يوم القيامة بين الخصوم ويأخذ من الظالم للمظلوم، فلا تساوي الدنيا بأسرها أن تجعل الناس خصوماً لأجلها كما جاء في الحكاية.

حكاية: كان أبو علي بن إلياس إسفهسلار نيسابور فحضر يوماً عند الشيخ أبي علي الدقاق رحمه الله وكان زاهداً زمانه وعالم أوانه، فقعد على ركبتيه بين يديه وقال له: عظني. فقال له أبو علي: أيها الأمير أسألك مسألة وأريد الجواب عنها بغير نفاق. فقال: أجل أجيبك. فقال: أيها الأمير أيهما أحب إليك المال أو العدو؟ فقال: المال أحب إليّ من العدو. فقال: كيف تترك ما تحبه بعدك وتصطحب العدو الذي لا تحبه معك. فبكى الأمير ودمعت عيناه وقال: نعم الموعظة هذه.

حكاية: كان موسى عليه السلام يناجي ربه عز وجل على الطور فقال في مناجاته: إلَهي أرني عدلك وإنصافك. فقال له: أنت رجل عجول حاد جريء لا تقدر أن تصبر. فقال: أقدر على الصبر بتوفيقك. فقال: إقصد العين الفلانية واختف بإزائها وانظر إلى قدرتي وعلمي بالغيوب. فمضى موسى وصعد إلى تل بإزاء تلك العين وقعد مختفياً، فوصل إلى العين فارس فنزل عن فرسه وتوضأ من العين وشرب من مائها وحل من وسطه هميان فيه ألف دينار فوضعه إلى جانبه وصلى، ثم ركب ونسي الهميان في موضعه وسار، فجاء صبي صغير فشرب من العين وأخذ الهميان، فجاء بعد الصبي شيخ أعمى فشرب من الماء وتوضأ ووقف في الصلاة، فذكر الفارس الهميان فعاد من طريقه إلى العين فوجد الشيخ فلزمه وقال: إني نسيت هميان فيه ألف دينار في هذا الموضع هذه الساعة وما جاء إلى هذا المكان سواك. فقال الأعمى: تعلم أني رجل أعمى فكيف أبصرت هميانك؟ فغضب الفارس من كلامه وجذب السيف فضرب الأعمى فقتله وفتشه عن الهميان فلم يجده فمضى وتركه. فعند ذلك قال موسى: إلَهي وسيدي قد نفد صبري وأنت عادل فعرّفني كيف هذه الأحوال؟ فهبط جبريل عليه السلام وقال: يا موسى البارئ تعالى يقول: أنا عالم الأسرار أعلم ما لا تعلم. أما الصبي الصغير الذي أخذ الهميان فأخذ حقه وملكه، وذلك أن أبا الصبي كان أجيراً لذلك الفارس فاجتمع عليه بقدر ما في الهميان فالذي أخذه الصبي حقه. وأما ذلك الأعمى فإنه قبل أن يُعمى قتل أبا ذلك الفارس فقد اقتص منه، ووصل كل ذي حق إلى حقه، وعدلنا وإنصافنا دقيق. فلما علم موسى ذلك تحير واستغفر.

وهذه الحكاية أوردناها ليعلم العقلاء ويتصور الألّباء أن الله جلّ ذكره لا يخفي عليه شيء، وأنه ينتصف من الظالم في الدنيا، ولكن نحن غافلون عما جاءنا لا ندري من أين أتانا. سئل ذو القرنين فقيل له: أي شيء أنت به أكثر سروراً فقال: شيئان أحدهما العدل والإنصاف،. والثاني أن أكافىء من أحسن إلي بأكثر من إحسانه. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله تعالى يحب الإحسان في كل شيء حتى إنه يحب إنساناً إذا ذبح شاة أن يمهي لها المدية ليعجل خلاصها من ألم الذبح". وقال موسى عليه السلام: "إن الله تعالى لم يخلق شيئاً في الأرض أفضل من

العدل، والعدل ميزان الله في أرضه من تعلق به أوصله الجنة". وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن للمحسنين في الجنة منازل، حتى المحسن إلى أهله وأتباعه". وقال قتادة في تفسير هذه الآية {ألا تطَغوُا فِي الميزَانِ}، قال: أراد به العدل. وعن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله تعالى لما أهبط آدم إلى الأرض أوحى إليه أربع كلمات، وقال: يا آدم أعلمك وعلم جميع ذريتك هذه الكلمات الأربع، وهي كلمة لي وكلمة لك وكلمة بيني وبينك وبين الناس. أما الكلمة التي لي فهي أن تعبدني لا تشرك بي شيئاً. وأما التي هي لك فأنا أجازيك بعملك. وأما الكلمة التي هي بيني وبينك فمنك الدعاء ومني الإجابة. وأما الكلمة التي بينك وبين الناس فهي أن تعدل فيهم وتنصف بينهم". وقال قتادة: الظلم ثلاثة أضرب: ظلم لا يُغفر لصاحبه، وظلم لا يدوم، وظلم يُغفر لصاحبه. فأما الذي لا يُغفر لصاحبه فهو الشرك بالله تعالى، قال الله تعالى:{إن الشِركَ لظُلمٍ عَظيم}. وأما الظلم الذي لا يدوم فهو ظلم العباد بعضهم لبعض. وأما الظلم الذي يُغفر لصاحبه، فهو ظلم العبد نفسه بارتكاب الذنوب، ثم يرجع إلى ربه، فإن الله يغفر له برحمته ويدخله الجنة بفضله.

نكتة: الدين والملك توأمان مثل أخوين ولدا من بطن واحد، فيجب أن يهتم ويجتنب الهوى والبدعة والمنكر والشبهة وكل ما يرجع بنقصان الشرع، وإن علم أن في ولايته من يُتهم بدينه ومذهبه أمر بإحضاره وتهديده وزجره ووعيده، فإن تاب وإلا أوقع عليه العقاب ونفاه عن ولايته ليطهر الولاية من إغوائه وبدعته وتخلو من أهل الأهواء، ويُعِز الإسلام، ويستديم عمارة الثغور بإنفاذ العساكر والحماة إليها، ويجتهد في إعزاز الحق وإعادة رونق السنة النبوية والسيرة المرضية لتُحمد عند الله طريقته، وتُعظَّم في الخلق هيبته، وتُخاف سطوته أعداوه، ويعلو قدره وبهاؤه ومنزلته، ويكبر في عين أضداده، ويَعْظُم عند أنداده. ويجب أن يعلم أن صلاح الناس في حسن سيرة الملك، فينبغي للملك أن ينظر في أمور الرعية ويقف على قليلها وكثيرها وعظيمها وحقيرها، ولا يشارك رعيته في الأشياء المذمومة والأفعال المشؤومة. ويجب عليه احترام الصالحين، وأن يثيب على الفعل الجميل ويمنع من الفعل الرديء الوبيل، ويعاقب على ارتكاب القبيح، ولا يحابي من أصر على المعصية ليرغب الناس في الخيرات ويحذروا من السيئات. ومتى كان السلطان بلا سياسة، وكان لا ينهي المفسد عن فساده ويتركه على مراده، أفسد في سائر بلاده. وقالت الحكماء أن طباع الرعية نتيجة طباع الملوك، لأن العامة إنما ينتحلون ويركبون الفساد وتضيق أعينهم اقتداء بالكبراء، فإنهم يتعلمون منهم ويلزمون طباعهم. ألا ترى أنه قد ذكر في التواريخ أن الوليد بن عبد الملك من بني أمية كان مصروف الهمة إلى العمارة وإلى الزراعة.وكان سليمان بن عبد الملك همته في كثرة الأكل وطيب المطعم وقضاء الأوطار والمهمات وبلوغ الشهوات. وكانت همة عمر بن عبد العزيز في العبادة والزهادة. قال محمد بن علي بن الفضل: ما كنت أعلم أن طباع الرعية تجري على عادة ملوكها حتى رأيت الناس في أيام الوليد قد اشتغلوا بعمارة الكروم والبساتين واهتموا ببناء الدور وعمارة القصور، ورأيتهم في زمن سليمان ابن عبد الملك قد اهتموا بكثرة الأكل وطيب المطعم حتى كان الرجل يسأل صاحبه أي لون اصطنعت وما الذي أكلت، ورأيتهم في أيام عمر بن عبد العزيز قد اشتغلوا بالعبادة وتفرغوا لتلاوة القرآن وأعمال الخيرات وإعطاء الصدقات.

حكاية: ذكروا أن في زمن الملك العادل كسرى انو شروان ابتاع رجل من رجل أرضاً فوجد فيها كنزاً فمضى سريعاً إلى البائع وأخبره بذلك، فقال: إنما بعتك ولم أعلم ما فيها والكنز الذي وجدته فهو لك ومبارك عليك. فقال: لا أريده ولا أطمع في أموال الناس. فترافعا بهذه الدعوى إلى الملك العادل انو شروان، ففرح انو شروان بذلك وقال هل لكما أولاد؟ فقال أحدهما لي ابن، وقال الآخر لي بنت. فقال انو شروان أحب أن يكون بينكما قرابة وصلة، وأن تزوجا الولد بالبنت وتنفقا هذا الكنز في جهازهما ليكون لكما ولولديكما. ففعلا ما أمر به وتراضيا ما رسم لهما. ولو أن الرجلين كانا في زمن سلطان جائر لقال كل واحد منهما الكنز لي، ولكنهما لما علما أن ملكهما عادل طلباً الحق وآثرا الصدق. وقالت الحكماء الملك كالسوق، فكل أحد يحمل إلى السوق ما يعلم أنه فيه نافق، وما يعلم أنه كاسد لا يحمله إلى ذلك السوق. والرجلان اللذان وجدا الكنز وترافعا إلى السلطان علما أن الزهد والعدل والصدق يعز عند الملك وأن الحق عنده نفاق، فلذلك حملاه إليه وعرضاه عليه. وأما الآن في هذا الزمان فكل ما يجري على يد أمرائنا وألسنة ولاتنا فهو جزاؤنا واستحقاقنا، كما أننا رديئو الأعمال قبيحو الأفعال ذوو خيانة وقلة أمانة، فأمراؤنا ظلمة جائرون وغشمة معتدون. "كما تكونوا يول عليكم"، فقد صح بهذا الحديث أن أفعال الخلق عائدة إلى أفعال الملك، أما ترى أنه إذا وُصف بعض البلاد بالعمارة وأن أهله في أمان وراحة ودِعة وغِبطة فإن ذلك دليل على عدل الملك وعقله وسداده وحسن نيته في رعيته ومع أهل ولايته، وأن ليس ذلك من الرعية، فقد صح ما قالته الحكماء (الناس بملوكهم أشبه منهم بزمانهم). وقد جاء في الخبر أيضاً "الناس على دين ملوكهم". وكان من سياسة انو شروان أن لو أن رجلاً ألقى في مكان حملاً من ذهب وبقي مهما بقي في موضعه لم يقدر أحد على إزالته من مكانه إلا صاحبه، وكان يونان وزير انو شروان متقدماً عنده فقال له يوماً: أيها الملك لا تركن للأشرار فتخرب ولايتك وتفقر رعيتك فيصير حينئذ ملكك إلى الخراب وسلطانك إلى الفقر ويقبح إسمك في الدنيا. فكتب انو شروان إلى عماله: إن أُخبرت أنه قد بقي في جميع مملكتي أرض خراب سوى أرض سبخة لا تقبل الزرع صلبت عامل تلك الأرض. وخراب الأرض من شيئين: أحدهما عجز الملك، والثاني جوره. وكان الملوك في ذلك الزمان يتفاخرون بالعمارة ويتحاسدون على إجتماع المملكة.

حكاية: سأل أنو شروان العادل يوماً وزيره يونان وقال أريد أن تخبرني بسيرة الملوك المتقدمين. فقال له يونان تريد أن أمدحهم بثلاثة أشياء أم بشيئين أم بشيء واحد؟ فقال أنو شروان أمدحهم بالثلاثة. فقال يونان: ما وجدت لهم في شغل من الأشغال ولا عمل من الأعمال قط كذباً، ولا رأيت لهم بشيء جهلاً، ولا رأيت لهم في حال من الأحوال غضباً. فقال أنوشروان أمدحهم بالشيئين. فقال يونان: كانوا دائماً يسارعون إلى الخير وعمله، وكانوا دائماً يحذرون من أعمال الشر. فقال أمدحهم بشيء واحد. فقال: كانت سلطنتهم وجرأتهم على أنفسهم أكثر مما كانت على غيرهم. فطلب أنو شروان الكأس وقال ولهذا سرور بالكرام الذين يأتون بعدنا ويملكون تاجنا وتختنا ويذكروننا كما نذكر نحن من تقدمنا. وأشقى الناس من إغتر بملكه وعمر الدنيا وهو لا يدري كيف ينبغي أن يعيش فيها فيعبر

دنياه بالتعب ويحصل في آخراه بالندم السرمد والعذاب المؤبد. وإنما كان قصد أولئك الملوك وإجتهادهم في عمارة الدنيا ليبقى فيها بعدهم طيب الذكر مدى الأيام والدهر.

حكاية: كان لأنو شروان كرم يعرف بمزاركام فإجتمع يوماً فيه قيصر ملك الروم ويعفورجين ملك هندوستان في ضيافة أنو شروان فتكلم كل واحد منهم بكلمة حكمة. فقال قيصر الروم ليس شيء في هذه الدنيا أجود من فعل الخير والإسم الصالح والذكر الطيب فإنه يذكر به صاحبه دائماً فيقال بعده لم لا نكون نحن مثله. فقال أنو شروان تعالوا حتى نفعل الخير ونتفكر في الخير. فقال قيصر إذا تفكرت في الخير عملت الخير، وإذا عملت الخير نلت المراد. فقال يعفورجين أعاذنا الله من فكرة إن نحن أظهرناها استحييناها، وإن ذكرناها خجلنا، وإن أخفيناها ندمنا. فقال قيصر لأنو شروان أي شيء أحب إليك؟ قال أحب الأشياء إلى أن أقضي حاجة من رآني أهلاً لقضاء حاجته. فقال قيصر بل أنا أحب أن لا أذنب حتى لا أخاف ملوكاً كان هذا كلامهم.

أنظر كيف كانت سيرتهم مع رعيتهم يا سلطان الإسلام فيجب أن تسمع أقوال هؤلاء وتنظر أعمالهم وتقرأ حكاياتهم من الكتب، وما يُنظر فيها من نعت عدلهم وإنصافهم وحسن سيرتهم وطيب خبرهم وذكرهم الجاري على ألسنة الخلق إلى يوم القيامة.

كان لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه من العدل والسياسة إلى حد أقام فيه الحد والعقاب على ولده حتى مات. وكان إذا أنفذ عمالاً إلى أعمال قال لهم إشتروا دوابكم وأسلحتكم من أرزاقكم، ولا تمدوا أيديكم إلى بيت مال المسلمين، ولا تغلقوا أبوابكم دون أرباب الحوائج. قال عبد الرحمن ابن عوف دعاني عمر بن الخطاب ذات ليلة وقال قد نزل بباب المدينة قافلة وأخاف عليهم إذا ناموا أن يُسرق شيء من متاعهم، فمضيت معه، فلما وصلنا قال لي نم أنت ثم جعل يحرس القافلة طول ليلته. وقال عمر رضي الله عنه يجب علي أن أسافر لأقضي حوائج الناس في أقطار الأرض لأن بها ضعفاء لا يقدرن على قصدي في حوائجهم لبعد المكان، فينبغي أن أطوف البلاد لأشاهد أحوال العمال وأسير سيرتهم وأقضي حوائج المسلمين فلا يكون في سنيّ عمر أبرك من هذه السنة.

حكاية: قال زيد بن أسلم رأيت ليلة عمر بن الخطاب يطوف مع العسس فتبعته وقلت أتأذن لي أن أصاحبك، قال نعم. فلما خرجنا من المدينة رأينا ناراً من بعد، فقلنا ربما يكون قد نزل هناك مسافر، فقصدنا النار فرأينا إمرأة أرملة ومعها ثلاثة أطفال وهم يبكون وقد وضعت لهم قدراً على النار وهي تقول: الهَي أنصفني من عمر وخذ لي منه بالحق فإنه شبعان ونحن جياع. فلما سمع عمر بن الخطاب ذلك تقدم وسلم عليها وقال أتأذنين أن أدنو إليك فقالت إن دنوت بخير فبسم الله. فتقدم وسألها عن حالها وحال جياع وقد بلغ مني ومنهم الجهد والجوع وقد منعهم عن الهجوع. فقال عمر وأي شيء في هذه القدر؟ فقالت: تركت فيها ماء لأشاغلهم به ليظنوا أنه طعام فيصبروا.

قال زياد فعاد أمير المؤمنين وقصد دكان الدسم فإبتاع منه دسماً ومضى إلى دكان الدقيق فإبتاع منه ملء جراب ثم وضع الجميع على كاهله ومضى به يطلب المرأة والأطفال. فقلت يا أمير المؤمنين ناولنيه لأحمله عنك، فقال إن حملته عني فمن يحمل عني ذنوبي ومن يحول بيني وبين دعاء تلك المرأة والأطفال عليّ؟ وجعل يسعى وهو يبكي إلى أن وصلنا إلى المرأة فقالت المرأة: جزاك الله عنا خير الجزاء. فأخذ عمر جزأ من الدقيق وشيئاً من الدسم فوضعهما في القدر وجعل يوقد النار، وكلما أرادت أن تخمد نفخها والرماد يسقط على وجهه ومحاسنه إلى أن إنطبخت القدر فوضع الطبيخ في القصعة، وقال للمرأة كلي فأكلت المرأة والأطفال. فقال عمر: أيتها المرأة لا تدعين على عمر فإنه لم يكن عنده منك ولا من أطفالك خبر. وأول من دُعي بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فإن أبا بكر رضي الله عنه دعوه بخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما وصل الأمر إلى عمر كانوا يقولون يا خليفة خليفة رسول الله فكان يطول ذلك، فقال يا أيها المؤمنون سموني أميراً فإني أميركم، وإن دعوتموني أمير المؤمنين فأنا ذلك عمر بن الخطاب.

حكاية: سئل خازن بيت المال هل إنبسط عمر في بيت المال؟ فقال كان في أول الأمر إذا لم يكن له شيء يتقوت به أخذ قليلاً برسم القوت فإذا حصل عنده شيء أعاده إلى بيت المال. وخطب يوماً فقال أيها الناس قد كان الوحي ينزل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فكنا نعرف به ظاهر الناس وباطنهم وجيدهم ورديئهم، والآن قد إنقطع الوحي عنا فنحن ننظر من كل أحد إلى علانيته والله أعلم بسريرته، وأنا على الجهد وعمالي أن لا نأخذ شيئاً بغير حق ولا نعطي شيئاً بغير حق. فإن شئت أن تعلم أن عدل السلطان وتقيته سبب لجميل ذكره ونيل فخره فإنظر في أخبار عمر بن عبد العزيز فإنه لم يكن لأحد من بني أمية وبني مروان مثل مدحه ومحمدته ولا يدعى إلا له ولا يثني إلا عليه لأنه كان عادلاً تقياً كريماً حسن السيرة تقي السريرة.

حكاية: كان في زمن عمر بن عبد العزيز قحط عظيم، فوفد عليه قوم من العرب فاختاروا منهم رجلاً لخطابه فقال ذلك الرجل يا أمير المؤمنين إنا أتيناك من ضرورة عظيمة وقد يبست جلودنا على أجسادنا لفقد الطعام، وراحتنا في بيت المال. وهذا المال لا يخلو من ثلاثة أقسام: إما أن يكون لله أو لعباد الله أو لك. فإن كان لله فالله غني عنه، وإن كان لعباد الله فآتهم إياه، وإن كان لك فتصدق به علينا إن الله يجزي المتصدقين. فتغرغرت عينا عمر ابن عبد العزيز بالدموع وقال هو كما ذكرت، وأمر بحوائجهم فقضيت من بيت المال. فهم الأعرابي بالخروج فقال له عمر أيها الإنسان الحر، كما أوصلت إلي حوائج عباد الله وأسمعتني كلامهم، فأوصل كلامي وارفع حاجتي إلى الله تعالى. فحول الأعرابي وجهه قبل السماء وقال: إلَهي أصنع مع عمر ابن عبد العزيز كصنيعه في عبادك.

حكاية: يقال أن عمر بن عبد العزيز كان ينظر ليلاً فيقصص الرعية وروزناتهم في ضوء السراج، فجاء غلام له فحدثه في سبب كان يتعلق ببيته فقال له عمر: أطفيء السراج وحدثني فإن هذا الدهن من بيت مال المسلمين فلا يجوز إستعماله إلا في أشغال المسلمين. كذا يكون حذر السلطان وتوقيه إذا كان عادلاً كما جاء في الحكاية.

حكاية: كان لعمر بن عبد العزيز غلام وكان خازناً لبيت المال، وكان لعمر بنات جئنه يوم عرفة وقلن له غداً العيد ونساء الرعية وبناتهم يلمننا وقلن أنتن بنات أمير المؤمنين ونراكن عريانات، لا أقل من ثياب بيضاء تلبسنها، وبكين عنده، فضاق صدر عمر فدعا غلامه الخازن وقال له أعطني مشاهرتي لشهر واحد. فقال الخازن: يا أمير المؤمنين تأخذ المشاهرة من بيت المال سلفاً، أتظن أن لك عمر شهر فتأخذ مشاهرة شهر، فتحير عمر وقال: نِعم ما قلت أيها الغلام بارك الله فيك، ثم التفت إلى بناته وقال: اكظمن شهواتكن فإن الجنة لا يدخلها أحد إلا بمشقة.

حكمة: لما كان الأمراء كذلك كان حواشيهم وخدعهم على قاعدتهم. والعدل التام هو أن تساوي بين المجهول الذي لا يُعرف وبين المحتشم صاحب الجاه المعروف في مقام واحد في الدعاوي، وتنظر أيضاً بعين واحدة ولا تفضل أحدهما على الآخر لأجل أن أحدهما فقير والآخر غني، فإن الجوهر والخزف في الآخرة بسعر واحد، ولا يحرق عاقل نفسه بالنار لحشمة الأغيار. وإذا كان لرجل ضعيف على سلطان من السلاطين دعوى فينبغي أن يقوم من صدر مملكته ويعمل بحكم الله تعالى وينصف ذلك العبد الضعيف ويرضيه ولا يحيف عليه، ولا يستحي من الحق ويعمل بقول الله {إن الله يأمُر بِالعَدَلِ والإحسَان}. وحقيقة ذلك إن كان للملك على آخر حق أن يسامحه ويمن به عليه ويأمر عماله الثقات أن يقتدوا بمثاله ويعملوا بسيرته لئلا يُسئل عنه يوم القيامة. فقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كل راع يسئل عن غنمه وكل إنسان يسئل عن رعيته والحال على هذه الصفة والمآل.

حكاية: يقال أن إسماعيل بن أحمد أمير خراسان نزل بمرو وكان رسمه في كل موضع ينزله أن يأمر المنادي أن ينادي في العسكر إن الجند ما لهم في الرعية شغل. فمضى رجل من الخزنبدية ودخل مطبخة قوم فتناول من البطيخ قدراً يسيراً فجاءوا إلى باب الملك واستغاثوا فأمر بإحضاره فأُحضر بين يديه، فقال له ما حملك على أن آذيت رعيتي؟ قال: أخطأت. قال: لا أقدر لأجل خطئك على دخول النار، ثم أمر به فقطعت يده.

حكاية: يُحكى عن إسماعيل الساماني في كتاب سير الملوك أنه كان ينزل بحذاء موليان، وكان يصل كل وقت إلى مدينة كغد ويأمر المنادي أن ينادي في الناس، وكان يرفع الحجاب ويزيح البواب ليجيء كل من له ظلامة ويقف على جانب البساط ويخاطبه ويعود مقضي الحاجة. وكان يقضي بين الخصوم مثل الحكام إلى أن تفي الدعاوي، ثم يقوم من موضعه ويقبض على محاسنه ويوجه وجهه نحو السماء ويقول: إلهي هذا جهدي وطاقتي قد بذلتهما وأنت عالم الأسرار، تعلم نيتي ولا أعلم على أي عبد من عبادك حفت ولا لأيهم ظلمت، وما أنصفت أنا واحداً من أصحابي، فأغفر لي يا إلهي من ذلك ما لا أعلم. فلما كان نقي النية جميل الطوية لا جرم علا أمره وارتفع قدره

وكان عسكره ألف فارس معتدين بالسلاح مقنعين بالحديد. وببركة ذلك العدل والأنصاف ظفره الله تعالى بعمرو بن ليث حتى قبض عليه وفتح خراسان. ثم إن عمرو ابن ليث أنفذ إليه من السجن فقال: لي بخراسان أموال كثيرة وكنوز موفورة، وأنا أسلم الجميع إليك وأطلقني من السجن، فلما سمع إسماعيل ذلك ضحك وقال إلى الآن لم يستقم معي عمرو ابن ليث، يريد أن يجعل المظالم التي احتقبها، والمآثم التي ارتكبها في عنقي ويتخلص من ثقل أوزارها في القيامة، قولوا له مالي في مالك حاجة. ثم أنه أخرجه من السجن وأنفذه رسولاً إلى بغداد فنال من أمير المؤمنين الخلع والتشريق. وجلس إسماعيل في مملكته بخراسان آمناً فارغ البال حسن الحال. وبقيت المملكة في عنصر السامانية مائة وثلاثين سنة. فلما إنتقل الأمر إلى أصاغرهم وصبيانهم ظلموا الخلق وتعدوا الحق فزال ملكهم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عدل السلطان يوماً واحداً خير من عبادة سبعين سنة". وقال عليه الصلاة والسلام: "من سل سيف الجور سُل عليه سيف الغلبة ولازمه الغم" كما قال الشاعر: فَقُل لِلنَاسِ ما تهوَى إستماَعاً ولا تقتل إن اختَرتُ البقاءِ. جاء في الخبر أن داود عليه السلام كان ينظر يوماً فرأى شيئاً ينزل من السماء مثل النخالة فقال: إلَهي ما هذا؟ قال هذه لعنتي أُنزلها على بيوت الجائرين.

نصيحة وموعظة: دخل شبيب بن شيبة يوماً على المهدى فقال يا أمير المؤمنين إن الله قد أعطاك الدنيا فأعط رعيتك قسطاً من طيب عيشك. فقال المهدي وما الذي ينبغي أن تُعطى الرعية؟ فقال: العدل، فإنه إذا نامت الرعية في أمن منك نمت آمناً في قبرك. وقال: احذر يا أمير المؤمنين من يوم لا ليلة بعده، ومن ليلة لا يوم بعدها، وأعدل ما استطعت، فإنك تُجازَي بالعدل، فحلِ نفَسك بِالتقَوى وزينَها فلن يُعارَ تقيُ في النَاسِ من رجلِ، وليسُ تبلى يدُ المعروفِ، فاحظ بها تربح كثيراً ورأسُ المالِ لم يزَل.

حكمة: سئل أرسطاطاليس هل يجوز أن يُدعي أحد ملكاً غير الله تعالى؟ فقال: من وُجدت فيه هذه الخصال وإن كانت عارية[٧٤]: العلم والعدل والسخاء والحلم والرقة وما ناسبها، لأن الملوك إنما كانوا ملوكاً بالظل الإلَهي وضياء الحس وطهارة النفس وتزايد العقل والعلم وقِدم الدولة وشرف الأصل والدولة التي كانت في محتدهم وأصولهم فبذلك كانوا ملوكاً وسلاطين. ومعنى قولهم [فرابرذي] وهو الظل الإلَهي يظهر في ستة عشر شيئاً، العقل والعلم وحدة الذكاء وتدارك الأشياء والصور التامة والألمعية والفروسية والشجاعة والإقدام والتأني وحسن الخلق وإنصاف الضعيف ومحبة الرعية وإظهار الزعامة والإحتمال والمدارة في مكانها والرأى والتدبير في الأمور والإكثار من قراءة الأخبار وحفظ سير الملوك والفحص عن الأحوال والأعمال التي اعتمدوها الملوك وعملوا بها، لأن هذه الدنيا بقية دول المتقدمين الذين تملكوها ثم مضوا وانقضوا وصاروا تذكاراً للناس يُذكر كل إنسان بفعله. وللآخرة كنز وللدنيا كنز، كنز هذه الدنيا حسن الثناء وطيب الذكر، وكنز الآخرة العمل الصالح واكتساب الأجر.

[74] ما تعطيه لغيرك على أن يعيده إليك (المعجم الوجيز)

حكمة: كان الاسكندر في بعض الأيام قد ركب في مركب مملكته، فقال رجل من مقدمي عسكره إن الله تعالى أعطاك ملكاً عظيماً فاستكثر من النساء لتكثر أولادك فتُذكر بهم بعدك. فقال: ليس ذكر الرجال بعدهم بكثرة الأولاد لكن بحسن السيرة وعدل النية، ورجل غلب رجال الدنيا لا يجوز أن تغلبه النساء.

حكمة: سأل الإسكندر أرسطاطاليس أيهما أفضل للملوك الشجاعة أم العدل؟ فقال أرسطاطاليس: إذا عدل السلطان لم يحتج إلى شجاعة.

حكاية: عزل الإسكندر عاملاً من عماله من عمل كثير خطير وولاه أمر عمل خفيف حقير، فجاء في بعض الأيام ذلك الرجل إلى الدركاه، فقال له الاسكندر كيف تجد عملك؟ فقال أطال الله بقاء الملك، الرجال لا تُشرف بالأعمال بل الأعمال تُشرف بالرجال، وذلك بحسن السيرة والإنصاف والعدل وتجنب الإسراف. فأحسن الأسكندر مقاله وأعاد إليه أعماله.

حكمة: قال سقراط: العالم مركب من العدل فإذا جاء الجور لا يثبت ولا يستقر.

حكمة أخرى: سئل بزرجمهر فقيل بأي شيء يظهر عز الملك. فقال بثلاثة أشياء: حفظ الأطراف مع دفع العدو عن الحوزة، وإكرام العلماء وإعزازهم، وحب أهل الفضل. لأنه كلما جار السلطان خاف أهل الأطراف، وإن كانت نعمهم كثيرة فإنها مع الخوف لا تنساغ، وإن كانت النعم قليلة إنساغت مع الأمن كما جاء في الحكاية.

حكاية: يقال أنه إنقطع رجل من قافلة الحج وضل الطريق ووقع في الوحل، فجعل يسير إلى أن وصل إلى خيمة فرأى إمراة عجوزاً ورأى على باب الخيمة كلباً نائماً، فسلم الحاج على العجوز وطلب منها طعاماً، فقالت العجوز امض إلى ذلك الوادى واصطد من الحيات بقدر كفايتك لأشوي لك منها وأطعمك. فقال الرجل: أنا لا أجسر أن أصطاد الحيات. فقالت العجوز أنا أتصيد معك. فلما مضت وإياه وتبعهما الكلب، فأخذا من الحيات بقدر كفايتهما، فأتت العجوز وجعلت تشوي له الحيات فلم ير الحاج من الأكل بداً وخاف أن يهلك من الجوع والهزال فأكل، ثم أنه عطش وطلب منها الماء ليشرب، فقالت له دونك والعين فأشرب. فمضى إلى العين فوجد ماء مالحاً مراً ولم يجد من شربه بداً فشرب، وعاد إلى العجوز وقال أعجب منك أيتها العجوز ومن مقامك في هذا الموضع. فقالت كيف تكون بلادكم فقال يكون في بلادنا الدور الرحيبة الواسعة والفواكه اللذيذة اليانعة والمياه العذبة والأطعمة الطيبة واللحوم السمينة والغنم الكثيرة والعيون الغزيرة. فقالت العجوز قد سمعت هذا كله، فقل لي هل تكونون تحت يد سلطان يجور عليكم، وإذا كان لكم ذنب أخذ أموالكم واستأصل أحوالكم وأخرجكم عن مسرتكم؟ فقال قد يكون ذلك. فقالت إذاً يعود ذلك الطعام اللطيف والعيش الظريف والنعم اللذيذة مع الجور والظلم سماً ناقعاً، وتعود أطعمتنا مع الأمن دریاقاً نافعاً، أو ما سمعت أن أجل النعم بعد نعمة الإسلام الصحة

والأمن. والأمن إنما يكون مع سياسة السلطان، فيجب على السلطان أن يعمل بالسياسة، وأن يكون مع السياسة عادلاً، لأن السلطان خليفة الله، ويجب أن تكون هيبته بحيث إذا رأته الرعية خافوا ولو كانوا بعيداً. وسلطان هذا الزمان ينبغي أن يكون له أوعى سياسة وأتم هيبة، إن أناس هذا الزمان ليسوا كالمتقدمين، فإن زماننا هذا زمان ذوي الوقاحة والسفهاء وأهل القسوة والشحناء. وإذا كان السلطان منهم ضعيفاً أو كان غير ذي سياسة وهَيبة فلا شك أن ذلك يكون سبب خراب البلاد، وأن الخلل يعود إلى الدين والدنيا. وفي الأمثال جور السلطان مائة عام ولا جور الرعية بعضهم على بعض سنة واحدة. وإذا جارت الرعية سلط الله عليها سلطاناً جائراً وملكاً قاهراً كما جاء في الحكاية.

حكاية: أُعطي الحجاج بن يوسف الثقفي في بعض الأيام قصة مكتوب فيها اتق الله ولا تجر على عباد الله كل هذا الجور. فرقى الحجاج المنبر وكان فصيحاً فقال: أيها الناس إن الله سلطني عليكم بأعمالكم، فإن أنا مت فلا تخلصون من الجور مع هذه الأعمال السيئة، فإن الله تعالى خلق أمثالي كثيراً وإذا لم أكن أنا كان من هو أكثر مني.

قال الشاعر:

وما مِن يدٍ إلا يدُ اللهِ فوقَها ** ولا ظالمٌ إلا سيُبلى بأظلمِ

حكمة: سئل بزرجمهر أي الملوك أطهر، فقال من أمنه الطاهرون وخاف منه الخطاؤون. وأما السلطان الذي لا سياسة له فليس له في أعين الناس خطر ولا محل بل يكون الخلق عليه ساخطين ثم يذكرونه كل وقت بالقبيح. ألا ترى أن الإنسان إذا كان من عوام الولاية وتولى عليها وأراد أن يطلب الحساب من الرعية أول ما يكلمهم بالهيبة ويظهر جاهه بالسياسة لعلمه أن الرعية إنما ينظرونه بالعين الأولى. وفي هذا الباب حكاية عجيبة. كان لأبي سفيان بن الحارث ولد وكان يدعى زياد بن أبيه، وكان قد ولد في أيام الجاهلية ونفاه وتبرأ منه وقال ما هو لي بولد. فلما وصل الأمر إلى معاوية قربه وأدناه وولاه ولاية العراق. فلما وصل إلى العراق وجد أهل العراق قوماً عابثين يفسدون ويسرقون فقصد زيارة المسجد الجامع ورقى المنبر وخطب خطبة، ثم قال بعد خطبته: والله لئن خرج أحد بعد العشاء الآخرة لآخذن رأسه عن جسده فليعلم الشاهد الغائب. ثم أمر منادياً بذلك ثلاثة أيام. فلما كان في الليلة الرابعة خرج زياد وقد مضى من الليل ثلثه فركب وجعل يطوف محال البلد فرأى إعرابياً ومعه غنم له وهو قائم، فسأله زياد ما تصنع هاهنا؟ فقال أتيت مساء ولم أجد موضعاً أستقر فيه فنزلت مكاني إلى أن أصبح وأبيع غنمي. فقال له زياد أنا أعلم إنك صادق وإن أطلقتك خفت أن يذيع الخبر عني أن زياداً يقول ما لا يفعل فتفسد سياستي وتنكسر هيبتي، والجنة خير لك مما هنا ثم ضرب عنقه، وجعل يسير فكل من رآه ضرب عنقه وحز رأسه. فلما أصبح من الغد كان قد أخذ رؤوس ألف وخمسمائة رجل ثم جعلها على باب داره مثل البيدر، فتهوله الناس وجزعوا لما رأوا من فعله. فلما كان الليل خرج وطاف فلقي ثلاثمائة رجل فأخذ رؤوسهم، فلم يقدر أحد بعد ذلك أن يخرج من منزله

بعد العشاء الآخرة. فلما كان يوم الجمعة رقى المنبر وقال: أيها الناس لا يغلق أحد منكم دكانه بالليل ومهما سُرق منكم كان غرامته علي، فلم يجسر أحد منهم أن يغلق دكانه تلك الليلة، فلما كان من الغد أتاه رجل صيرفي وقال قد سُرق مني البارحة أربعمائة دينار، فقال له زياد تقدر أن تحلف على صحة قولك؟ فقال نعم، فحلفه وغرم له أربعمائة دينار، وقال له اكتم هذا الأمر ولا تشعر به أحداً. فلما كان في الجمعة الثانية اجتمع الناس لصلاة الجمعة وصعد زياد المنبر وقال: اعلموا أنه قد سرق من دكان الصيرفي أربعمائة ديناراً وأنتم كلكم حاضرون، فإن رددتم ذلك فقد عاد إلى الرجل ماله، وإن لم تردوا ذلك فقد أمرت أن لا يمكن أحد منكم أن يخرج من الجامع وأمرت بقتلكم في هذه الساعة. ففي الحال لوموا من كان يتهمونه بالسرقه وقدموه بين يديه، فرد الذهب الذي كان سرقه فأمر بصلبه في الحال. ثم إنه سأل بعد ذلك أي محلة في البصرة ليس فيها أمن، فقيل محلة بني الأزد، فأمر أن يترك فيها ثوب ديباح له قيمة ثقيلة ليلاً بحيث لا يراه أحد، فبقي أياماً ملقى بحاله ولم يكن لأحد جسارة أن يقربه ولا يرفعه من مكانه. فقال له أقاربه بعد ذلك أن السياسة خير الأشياء إلا أنك لم ترحم المسلمين، أولاً أهلكت خلقاً كثيراً، فقال قد أخذت عليهم الحجة قبل ذلك بثلاثة أيام، ومن شؤم مخالفتهم لم ينتهوا والذي أصابهم كان من شؤم أعمالهم.

فصل: ولا ينبغي للسلطان أن يشتغل دائماً بلعب الشطرنج والنرد وشرب الخمر وضرب الكرة والصولجان والصيد لأن ذلك يمنعه ويشغله عن أمور الرعية، فإن لكل عمل وقتاً، فإذا فات الوقت عاد الربح خسراناً. فإن الملوك القدماء قسموا النهار أربعة أقسام، قسم منها لطاعة الله وعبادته، وقسم للنظر في الرعية وإنصاف المظلومين والجلوس بين العلماء والعقلاء ولتدبير الأمور وسياسة الجمهور وتنفيذ المراسم والأوامر وكتابة الكتب وإرسال الرسل، وقسم للأكل والشرب والتزود من الدنيا وأخذ الحظوظ من الفرح والسرور، وقسم للصيد ولعب الشطرنج والكرة.

حكمة: يقال أن بهرام كور قسم نهاره قسمين وجعله شطرين. ففي النصف الأول كان يقضي حوائج الناس، وفي النصف الثاني كان يطلب الراحة. ويقال أنه في جميع عمره ما أشتغل يوماً تاماً بعمل واحد. وكان أنو شروان العادل يأمر أصحابه الثقات أن يصعدوا إلى أعلى مكان في البلد فينظروا إلى بيوت الناس، فكل بيت لا يخرج منه دخان نزلوا وسألوا عن حال أولئك القوم وما خطبهم، فإن كانوا في غم أعلموا الملك، فكان يحمل ويزيل هموهم. ويجب على السلطان أن لا يرضى لغلمانه أن يتناولوا شيئاً من الرعية بغير حق.

حكاية: يقال أن المأمون ولى يوماً أربعة نفر ولايات فأعطى لواحد منهم منشور خراسان خلع عليه ثلاثة آلاف دينار، وولى الآخر ولاية مصر وخلع عليه خلعة مثلها، وولى الآخر ولاية ارمينية وأعطاه خلعة مثلها، ثم استدعى يومئذ موبذان وقال يا دهقان هل كان لملوك العجم مثل هذه الخلع؟ فإنه بلغني أن خلعهم ما كانت تبلغ أكثر من أربعة آلاف درهم. فقال الموبذان: أطال الله بقاء أمير المؤمنين كان لملوك العجم ثلاثة ليست لكم، (أحدها) أنهم

كانوا يأخذون ما يأخذونه من الرعية بقدر ويعطونه بقدر. (والثاني) أنهم كانوا يأخذون من موضع يجوز الأخذ منه ويعطون لمن ينبغي أن يُعطى. (والثالث) أنهم ما كان يخافهم إلا أهل الريب. فقال المأمون صدقت ولم يعد عليه جواباً. ولأجل هذا لما كشف المأمون تربة كسرى أنو شروان وفتح تابوته وفتشه وجد صورته وهي بمائها ما بليت، والثياب بجدتها ما تغيرت ولا خلقت، والخاتم في يده ياقوت أحمر كثير الثمن ما رأى المأمون قبله فصاً مثله وكان على فصه مكتوب به مه نه مه به. ومعنى ذلك الأجود أكبر وليس الأجود أكبر. فأمر أن يغطى بثوب نسج من الذهب. وكان مع المأمون خادم فأخذ الخاتم من أصبع كسرى ولم يشعر المأمون، فلما علم به أعاده وأمر بإهلاك الخادم، وقال كاد يفضحني بحيث يقال عني إلى يوم القيامة إن المأمون كان نباشاً، وأنه فتح تربة كسرى وأخذ خاتمه من أصبعه.

حكاية: سأل الاسكندر يوماً حكيماً من حكمائه وكان قد عزم على سفر، فقال أوضحوا لي من الحكمة سبيلاً أُحكم فيه أشغالي وأُتقن فيه أعمالي. فقال كبير الحكماء: أيها الملك لا تُدخل قلبك حب شيء ولا بغضه لأن القلب خاصته كإسمه، وإنما سُميَ قلباً لتقلبه، واعمل الفكر واتخذه وزيراً، واجعل العقل صاحباً ومشيراً، واجهد أن تكون متيقظاً ولا تشرع في عمل أمر بغير مشورة، وتجنب الميل والمحابة في وقت العدل والإنصاف، فإذا فعلت ذلك جرت الأشياء على آثارك وتصرفت فيها بإختيارك، وينبغي أن يكون الملك وقوراً حليماً وأن لا يكون طائشاً عجولاً. قالت الحكماء ثلاثة أشياء قبيحة، وهي في ثلاثة أقبح: الحدة في الملوك والحرص في العلماء والبخل في الأغنياء.

حكاية: كتب الوزير يونان إلى الملك العادل أنو شروان وصايا ومواعظ. فقال: ينبغي يا ملك العالم أن يكون معك أربعة أشياء دائمة: العقل والعدل والصبر والحياء. وينبغي يا ملك الزمان أن تنفي عنك الحسد والكبر وضيق الصدر ويريد به البخل والعداوة. واعلم يا ملك الزمان أن الذين كانوا قبلك من الملوك مضوا والذين يأتون من بعدك لم يصلوا فاحتهد أن يكون جميع ملوك الزمان محييك ومشتاقيك.

حكاية: يقال أن أنو شروان ركب يوماً من أيام الربيع على سبيل الفرجة، فجعل يسير في الرياض المخضرة ويشاهد الأشجار المثمرة وينظر إلى الكروم العامرة، فنزل عن فرسه وسجد شكراً لربه وخر ساجداً ووضع خده على التراب زماناً طويلاً، فلما رفع رأسه قال لأصحابه: إن خصب السنين من عدل السلاطين وحسن نيتهم إلى رعيتهم. فالمنة لله تعالى الذي أظهر حسن نيتنا في سائر الأشياء. وإنما قال ذلك لأنه جربه في الأوقات.

حكاية: يقال أن أنو شروان الملك العادل خرج يوماً إلى الصيد فإنفرد من عسكره خلف الصيد فرأى ضيعة بالقرب منه، وكان قد عطش فقصد الضيعة وأتى باب دار قوم وطلب ماء ليشرب، فخرجت صبية فأبصرته ثم عادت إلى البيت فدقت قصبة واحدة من قصب السكر ومزجت ما عصرته منها بالماء ووضعته في القدح، فرأى فيه تراباً وقذى

فشرب منه قليلاً قليلاً حتى انتهى لآخره، وقال للصبية (سادناس) أي نعم الماء لولا قذى كدره، فقالت (يا شرهيك) أنا عمداً ألقيت فيه القذى. فقال: ولم فعلت ذاك؟ فقالت: رأيتك شديد العطش، ولو لم يكن فيه القذى لشربته نوبة واحدة وقد يضرك شربه. فتعجب أنو شروان من كلامها وعلم أنها قالته عن ذكاء وفطنة. ثم قال لها من كم عصرت ذلك الماء؟ فقالت من قصبة واحدة. فتعجب أنو شروان وأضمر في نفسه أنه إذا عاد يأمر بزيادة الخراج على تلك الناحية. ثم عاد إلى تلك الناحية بعد وقت آخر واجتاز على ذلك الباب منفرداً وطلب ماء فخرجت إليه تلك الصبية بعينها فعرفته، ثم عادت لتخرج الماء فأبطأت عليه فاستعجلها أنو شروان وقال لأي شيء أبطأت؟ قالت: لأنه لم يخرج من قصبة واحدة قدر حاجتك وقد دققت ثلاث قصبات ولم يخرج منها قدر ما كان يخرج من قصبة واحدة. فقال أنو شروان وما سبب ذلك العجز؟ فقالت سببه تغير نية السلطان، فقد قيل أنه إذا تغيرت نية السلطان على قوم طارت بركتهم وقلت خيراتهم؟ فضحك أنو شروان وعجب من قول الصبية وأزال من نفسه ما كان أضمره لهم وتزوج الصبية لحسن ذكائها وفصاحة كلامها.

إشارة لطيفة: لما تولى الأمر عمر بن عبد العزيز كتب إلى الحسن البصري أن أعِنّي بأصحابك، فكتب إليه الحسن البصري: أما طالب الدنيا فلا ينصح لك، وأما طالب الآخرة فلا يرغب فيك، ولا يجوز للسلطان أن يسلم وزارته ولا عملاً من أعماله إلى من ليس بأهل، فإن سلم الأعمال إلى ذلك الرجل فقد أفسد ملكه وظهر له الخلل الوافر من كل وجه ومن كل جانب، كما قال الشاعر: البيتُ إذا ما حانَ خَرَابه ظهَر التخلخُلُ مِن أساسِ الحائطِ، وإذا تولىَ المِلكُ غير رِجالهُ ولُوا الأمورَ لكُلِ فدم ساقطِ. وينبغي لمن خدم الملوك أن يكون كما قال الشاعر: إذا خدمَت الملوكَ فالبس مِن التوقِي أعزَ ملبس وأدخُل إذا ما دخلَت أعمى واخرُج إذا ما خرجَت أخرسَ. وأما من تبسط مع السلطان فقد ظلم نفسه ولو كان ولد السلطان، فليس للانبساط معهم في خدمتهم وجه، كقول الشاعر: ومثل من تبسط مع السلطان كمثل الحواء الذي يكون دهره مع الحيات يأكل معها وينام معها، أو كرجل في البحر بين التماسيح التي تبلع الناس فلا يزال مخاطراً.

حكمة: قيل ويل لمن ابتلى بصحبة السلاطين، فإنهم ليس لهم صديق ولا قرابة ولا خادم ولا ولد ولا احترام إلا من كانوا محتاجين إليه لعلمه أو لشجاعته، فإذا أخذوا حاجتهم منه لم يبق لهم عنده مودة ولم يبق له عندهم وفاء ولا حياء، وأكثر أشغالهم رياء، يستصغرون كبار ذنوبهم ويستعظمون صغار ذنوب غيرهم. قال سفيان لا تصحب السلطان وإياك وخدمته لأنك إن كنت له مطيعاً أتعبك وإن خالفته قتلك وأعطيك.

حكاية: يقال أن يزدجر بن شهريار دخل على والده في وقت لم يكن لأحد إذن في الدخول، فقال شهريار لبهرام أمض وأضرب الحاجب الفلاني ثلاثنين خشبة واطرده عن الدركاه وأقم عِوضه فلانا الحر. وكان عمر يزدجرد يومئذ ثلاث عشرة سنة. فعُزل ذلك الحاجب الأول عن الباب، فعاد يزدجرد في بعض الأيام وأراد أن يدخل على والده

شهريار فجعل الحاجب يده في صدره ورده على عقبه، وقال إن عدت ورأيتك ههنا ضربتك ستين خشبة ثلاثين لأجل الحاجب المعزول وثلاثين لئلا تعود تدخل على الملك في غير وقت الآذن وإن كنت ولده لئلا تجلب إلي الضرب والهوان والطرد. وأصلح الأشياء للملك أن لا يباشر الأسباب بنفسه ويحفظ ناموسه، لأن كثيراً من الأرواح يتعلق بروحه وصلاح الرعية في حياته. وكذا ينبغي أن لا يجور على نفسه ولا يجور على الناس. ولا ينبغي للملك أن يجازف في الأشغال ولا يتساهل فيها. ويجب عليه أن ينيم على فراشه كل ليلة غيره ويتحول بنفسه عن ذلك الموضع، حتى إذا قصده عدو لاتلاف نفسه وجد في مكانه غيره فلا تصل يد عدوه إليه كما جاء في الحكاية.

حكاية: يقال أنه انهزم خسروبن ابرويز من بهرام جور وقال خربت، وإن كان هربي عيباً لأخلص بهربي أرواح جماعة من أصحابي لأني إن هلِكت هلَكت بسببي ألوف من الخلائق. والمقصود من المقال أن زماننا هذا غير موافق والناس فيه بين قبيح الفعل وعاقل الملوك مشغولون بالدنيا وحب المال، ولا يجوز الإهمال والتغافل بين أناس السوء. في أمثال العرب (العبد يقرع بالعصا والحر تكفيه الإشارة)، وهذا المثل يضرب في من له أصل ومن لا أصل له، وقد كان للناس وقت وزمان يؤمِّن فيه رجل واحد جميع أهل الدنيا ويسخرهم بدرة كان يحملها على عاتقه، وهو عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والفضل في ذلك الزمان للوقت والرعية مشغولون، ولو عوملوا بتلك المعاملة لم يحتملوا ولبدا فيها الفساد. لكن ينبغي للسلطان في هذا الوقت أن يكون له أتم سياسة وهيبة ليشتغل كل إنسان بشغله ويأمن الناس بعضهم من بعض. ونحن الآن نورد خبراً يستفيد به القارىء والسامع: سئل أمير المؤمنين على بن أبي طالب كرم الله وجهه لأي شيء لا تنفع الموعظة هؤلاء الخلق؟ فقال الخبر المعروف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أوصى عند وفاته أشار بأصابعه الثلاث وقال لا تسألوني عن حال أولئك. فقال قوم من الصحابة أشار إلى ثلاثة أشهر وقال قوم إلى ثلاث سنين وقال قوم إلى ثلاثين سنة وقال قوم ثلاثمائة سنة، يعني إذا مضت ثلاثمائة سنة فلا تسألوني عن حال أولئك الرجال. فإذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لا تسألوني عن حال أولئك فكيف ينفع الوعظ فيهم. وسئل عن هذا السؤال فقال كان الناس في ذلك الوقت نياماً وكان العلماء أيقاظاً، واليوم العلماء نيام والخلق موتى، فأي نفع لكلام النائم مع الميت. أما زماننا هذا فهو الزمان الذي هلك فيه الخلائق جميعهم وقد خبثت أعمال الناس ونياتهم. وإذا لم يكن فيه للسلطان سياسة على الخلائق ولا هيبة لم يثبتوا على الطاعة والصلاح. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم العدل من الدين وفيه صلاح السلطان وقوة الخاص والعام وفيه يكون خير الرعية وأمنهم وعافيتهم وكل الأعمال توزن بميزان العدل. وقال عز وجل في موضع آخر:{الذي أنزلَ الكِتَابَ بِالحقِ والميزانِ}. وأحق الناس بالجاه والمملكة من كان في قلبه مكان للعدل، وبيته مقر ذوي الدين والفضل، ورأيه من أرباب الدين والعقل، وصحبته مع العقلاء ومشورته، يدُه خِزَانة جُودِه، والقلبُ خازنُ قصدهِ، قد رتَّبت أبوابهَ أبداً لطلبِ عدلهِ. قال الحسن البصرى: كل ملك عظَّم أمرُ الدين كان عند رعيته مهيباً عظيم القدر والأمر، ومن عرف الله تعالى تعرَّف الخلق به واختاروا أن يكونوا معارفه. كما قال الشاعر:

الغزالي

من عرفَ اللهُ تعالىَ اسْمَهِ ** آثرَ كُلُ الخلق عرفاتَه

طُوبي لمن أول ما حازهُ ** معرفة الخالق سُبحانه

قال بزر جمهر ينبغي للملك أن لا يكون في مملكته أقل من البستاني في حفظ بستانه، إذا زرع الريحان ونبت بينه الحشيش استعجل في قلع الحشيش كيلاً يضبط أماكن الريحان. قال أفلاطون علامة السلطان أن يكون قوياً في نفسه، لازماً لصمته، مفكراً في رأيه وتدبيره بقلبه، وأن يكون عاقلاً في ملكه، شريفاً في نفسه، حلواً في قلوب الرعية، رفيقاً في سائر أعماله، مجرباً لعهد من تقدمه، خبيراً بأعمال من هو أقدم منه، صلباً في دينه وعزمه. وكل ملك تجمعت فيه هذه الخلال وحصلت له هذه الخصال كان في عين عدوه مهيباً، ولا يجد العائب له معيباً إذا كان الملك يرى أن حوله وقوته بالله جلت قدرته، وإن كان عدوه قوياً فإنه يظفر به وينتصر عليه مثاله قول الله عز وجل {كم مِن فئةٍ قليلةٍ غلبَت فئةً كثيرة بإذنِ الله}.

نكتة: قال سقراط الحكيم علامة السلطان الذي يدوم ملكه أن يكون الدين والعقل منه حيين في قلبه ليكون في قلوب الرعية محبوباً، وأن يكون العقل قريباً، وأن يكون طالباً للعلم ليعلم مَن العلماء، وأن يكون فضله غزيراً وبيته كبيراً ليَعْظُم عند الفضلاء، ويربي الأدباء ليتفرع عنه الأدباء، وأن يبعد عن مملكته متطلبي العيوب لتبعد عنه العيوب. وكل ملك لم يكن له مثل هذه الخصال لا يفرح بمملكته، وتسرع إليه دواعي هلكته، ويتلف أقرباؤه على يده وجلساؤه لأن القيل يظهر من عدم العقل.

إشارة وحكمة: سأل معاوية الأحنف بن قيس فقال: يا أبا يحيى كيف الزمان؟ فقال: الزمان أنك إن صلحت صلح الزمان وإن فسدت فسد الزمان. وقال الأحنف بن قيس أن الدنيا عمرت بالعدل فكذلك تخرب بالجور، لأن العدل يصفو نوره وتلوح تباشيره من مسيرة ألف فرسخ، والجور يتراكم ظلامه ويسود قتامه من مسيرة ألف فرسخ. وقال الفضيل بن عياض: لو كان دعائي مستجاباً لم أدع به لغير السلطان العادل، لأن السلطان العادل صلاح العباد وزينة البلاد، وقد جاء في الخبر عن سيد البشر صلوات الله وسلامه عليه: "المقسطون على منابر اللؤلؤ يوم القيامة".

حكاية: كان الاسكندر يوماً على تخت مملكته وقد رُفع الحجاب، فقدم بين يديه لص فقال أيها الملك سرقت ولم يكن لي شهوة السرقة ولم يطلبها قلبي. فقال له الاسكندر لا جرم تُصلب، ولا يطلب قلبك الصلب ولا يريده. فواجب على السلطان أن يعدل وينظر غاية النظر فيما يأمر به من السياسة لينفذ ذلك في أصحابه مثل وزيره

وحاجبه ونائبه وعامله، لأن كثيراً من سياسة السلطان وعدله ونظره وحسن تأمله يُغطى عليه بالبراطيل[٧٥] ويغرب وقته، وذلك من تغافل الملك وتهاونه. فينبغي أن يجتهد غاية الاجتهاد في تدارك ذلك كما جاء في الحكاية.

حكاية: كان للملك كستاشب وزير اسمه راشت روش وبهذا الاسم كان يظن كستاشب أنه تقي صالح وما كان يسمع فيه كلام أحد يقدح فيه. ولم يكن يخبر حاله فقال راشت روش لخليفة الملك أن الرعية قد بطرت الآن من كثرة عدلنا فيهم وقلة تأديبنا لهم، وقد قيل إذا عدل السلطان جارت الرعية. والآن قد قامت منهم رائحة الفساد ويجب علينا أن نؤدبهم ونزجرهم ونبعد المعتدين ونقرب الصالحين. ثم إنه كان كل من ألزمه الخليفة أن يؤدبه ارتشى منه راشت روش وأطلقه، إلى أن ضعفت الرعية وضاقت بها الأحوال وخلت الخزائن من الأموال. فظهر لكستاشب عدو فاعتبر خزائنه فلم يجد فيها شيئاً يصلح به أمور عسكره. فركب يوماً في شغل عليه وسار في البرية فرأى من بعد قطيع غنم فقصده، فرأى خيمة مضروبة والأغنام نيام ورأى كلباً مصلوباً، فلما قرب من الخيمة خرج إليه شاب فسلم عليه وسأله النزول فأكرمه وقدم بين يديه ما حضر كما وجب. فقال كستاشب أخبرنا عن حال هذا الكلب وصلبه. قال يا مولانا كان هذا الكلب أميناً لي على أغنامي فصادف ذئبة فكان ينام معها ويقوم معها، والذئبة كل يوم تأتي من الغنم رأساً بعد رأس، فجاء في بعض الأيام صاحب الموضع وطلب مني حق المرعى فقعدت أتفكر وأحسب حساب الغنم وهي تنقص في الحساب، ورأيت ذئباً أخذ شاة والكلب ساكت مكانه فعلمت أنه كان سبب تلف الغنم وأنه كان يخون أمانته فلزمته وصلبته. فاعتبر كستاشب وجعل يتفكر في نفسه، وقال رعيتنا أغنامنا فيجب أن نسأل نحن أيضاً عنها لنصل إلى حقيقة أمرها. فرجع إلى دراه فجعل ينظر في الوزمجات فإذا جميعها شفاعات راشت روش، فضرب مثلاً وقال من اغتر بالاسم من ذوي الفساد بقي بغير زاد، ومن خان في الزاد بقي بلا روح، ثم أمر بصلب الوزير.

حكاية: يقال أنه كان لعمرو بن ليث نسيب يعرف بأبي جعفر بن زيدويه، وكان عمرو به حفياً ومن جملة محبته له أنه كان يصله من هراة في كل سنة مائة جمل حمر الوبر على كل جمل حمل من الحوائج، فأنفذ عمرو من كل حاجة حملاً إلى دار أبي جعفر بن زيدويه، وقال ليُوسع عليه في مطبخه. فقيل لعمرو بن ليث أن أبا جعفر قد بطح غلاماً له وقد ضربه عشرين خشبة، فأمر أن يُحضر ثم أمر بكل سيف في خزائنه، فقال يا أبا جعفر اختر من هذه السيوف أجودها واعزله ناحية، فجعل أبو جعفر يتخير وينتقي إلى أن أفرد منها مائة سيف. فقال اختر الآن منها سيفين فاختار أبوجعفر منها سيفين أجودها. فقال عمرو ارسم الآن أن يجعلا في قراب واحد. فقال أبو جعفر أيها الأمير كيف يمكن أن يكون سيفان في قراب واحد؟ فقال عمرو بن ليث فكيف يمكن أن يكون أميران في بلد واحد. فعلم أبو جعفر أنه أخطأ فقبل الأرض والتمس العفو والإقالة. فقال عمرو بن ليث لولا حق القرابة ما جئت بيتك، فخل عن هذا الأمر لنا فقد عفونا هذه النوبة عنك.

[75] الرشاوى (المعجم الوجيز)

حكمة: قال ازدشير إذا كان الملك عاجزاً عن إصلاح خواصه ومنعهم عن الظلم، فكيف يقدر على رد العوام الى الصلاح. قال الله تعالى:{وأنذر عشيرتك الأقربين}. فالعرب تقول أنه ليس شيء أضيع للمُلك وأفسد للرعية من تعذر الإذن في الدخول وتكاثر الحجاب وصعوبة الحِجاب. وإذا كان الملك سهل الحجاب لم يكن للعمال أن يجوروا على الرعايا، وخافت الرعية من جور بعضهم على بعض، ومن سهولة الحجاب يكون للملك على سائر العمال اطلاع. لا يجوز للسلطان أن يكون غافلاً لتكون الهيبة من ناموس المملكة باقية، ويستريح من الهموم الحادثة عن الغفلة.

حكمة: قال أرسطاطاليس خير الملوك من كان في حدة نظره على مثال العُقاب[٧٦] وكان الذين حوله كعقبان لا كالجيف، يعني إذا كان السلطان جيد النظر ذا يقظة بالأمور ذا فكرة في العاقبة وكان المقربون منه وخواص دولته بهذه الصفة، انتظمت أحوال مملكته واستقامت أمور أهل ولايته.

حكمة: قال أبرويز ثلاثة لا يجوز للملك التجاوز عنهم ولا يصفح عن ذنوبهم: من قدح في ملكه، أو أفسد حرمه، أو أفشى سره. قال سفيان الثوري خير الملوك من جالس أهل العلم، ويقال أن جميع الأشياء تتجمل بالناس، والناس يتجملون بالعلم وتعلو أقدراهم بالعقل، وليس شيء خيراً من العقل والعلم، فإن العلم بقاء العز ودوامه والعقل بقاء السرور ونظامه، ومن اجتمع العلم والعقل فيه فقد اجتمعت فيه اثنتا عشرة خصلة: العفة والأدب والتقى والأمانة والصحة والحياء والرحمة وحسن الخلق والوفاء والصبر والحلم والمدارة في مكانها، وهذه من خواص آداب الملك. وينبغي أن يكون مع العقل العلم، كما أن مع النعمة الشكر، ومع الصباحة الحلاوة، ومع الاجتهاد الدولة، فإذا جاءت الدولة حصل المراد جميعه.

حكاية: قال عبد الله بن ظاهر أن يعقوب بن ليث علا أمره وارتفع قدره وظهر اسمه وذِكره وملك كرمان وفارس وخورستان وقصر الواق. وكان الخليفة في ذلك الزمان المعتمد فكتب إليه المعتمد أنك كنت رجلاً صفاراً فمن أين تعلمت تدبير الملك؟ فكتب إليه يعقوب جواباً وقال إن المولى الذي آتاني الدولة آتاني التدبير.

حكمة: قال عبد الله بن طاهر يوماً لأبيه كم تبقى هذه الدولة فينا وتبقى في بيتنا؟ قال مادام بساط العدل والإنصاف مبسوطاً في هذه الإيوان.

حكاية: أن مروان آخر خلفاء بني أمية عرض العسكر فكان ثلاثمائة ألف رجل بالعدد الكاملة، فقال وزيره إن هذا لمن أعظم الجيوش. فقال له مروان: اسكت فإنه إذا انقضت المدة لم تنفع العدة، وإذا نزل القضاء السماوي وإن

[76] طائر من كواسر الطير قوي المخالب حاد البصر (المعجم الوجيز)

كان العسكر عظيماً كثيراً بان قليلاً حقيراً، ولو ملكنا الدنيا بأسرها فلا بد أن تُنزع منا، ولمن وفت الدنيا حتى تفي لنا.

حكمة: قال أبو الحسن الاهوازي في كتاب الفرائد والقلائد: الدنيا لا تصفو لشارب ولا تبقى لصاحب، فخذ زاداً من يومك لغدك، فلا يبقى يوم عليك ولا غد. ويقال أنه كان على قبر يعقوب بن ليث مكتوباً هذه الأبيات عملها قبل موته وأمر أن تكتب على قبره وهي هذه: سَلامُ عَلىَ أهلِ القُبُورِ الدوارِس، كأنُهم لم يجلِسُوا فِي المجَالِسِ. ولم يشَربُوا مِن بارِدِ الماءِ شربة، ولم يأكلُوا ما بين رطبٍ ويابِسِ. فقد جاءنِي الموتُ المهولُ بِسكرةٍ فلم تَغن عنِي ألف آلافِ فارِسِ. فياَ زائرُ القبرِ اتعظ واعتبر بِنا ولا تك فِي الدُنيا هُدِيتَ بآنسِ خُرَاسان نحويها وأطرافُ فارسِ. وما كُنتَ عن مُلكِ العِراقِ بآيسِ سَلامُ علىَ الدُنيا وطِيبِ نعِيمِها كأن لم يكُن يعقُوبُ فِيها بِجالسِ.

سؤال وجواب: سئل ملك كان قد زال عنه الملك فقيل لأي سبب انتقلت الدولة عنك وسُلمت إلى غيرك وسُلبت منك؟ فقال لاغتراري بالدولة والقوة، ورضاي برأيي وعلمي وغفلتي عن المشورة، وتوليتي لآصاغر العمال على أكابر الأعمال، وتضييعي الحيلة في وقتها، وقلة تفكري في الحيلة وإعمالها وقت الحاجة إليها، والتباطؤ والوقفة في مكان العجلة والفرصة، والاشتغال عن قضاء الحوائج. وقيل أي الاشرار أكثر شراً فقال: الرسل الخونة الذين يخونون في الرسالة لأجل أطماعهم فكل خراب المملكة منهم ،كما قال ازدشير في حقهم، كم سفكوا من الدماء وكم هزموا من الجيوش، وكم هتكوا من أستار ذوي الحرمات الأحرار، وكم من يمين كذبوها بخيانتهم، وكم من عهود نقضوها بقلة أمانهم، وكم اجتاحوا من الأموال. وكان ملوك العجم يتحرزن وما كانوا ينفذون رسولاً إلا بعد أن يجربوه ويمتحنوه.

فصل: يجب على السلطان أنه متى وقعت رعيته في ضائقة أو حصلوا في شدة وفاقه أن يعينهم لا سيما في أوقات القحط وغلاء الأسعار، حيث يُحجزون عن التعيش ولا يقدرون على الاكتساب، فينبغي حينئذ للسلطان أن يعينهم بالطعام ويساعدهم من خزائنه بالمال، ولا يمكِّن أحداً من حشمه وخدعه وأتباعه أن يجور على رعيته لئلا يضعف الناس وينتقلوا إلى غير ولايته ويتحولوا إلى سوى مملكته، فينكسر إرتفاع السلطان، ويقل حاصل الديوان، وتعود المنفعة على ذوي الاحتكار الذين يسرون بغلاء الأسعار، ويقبح ذِكر الملك، ويدعى عليه. ولأجل هذا كان الملوك المتقدون يحذرون من هذا غاية الحذر ويراعون الرعايا من خزائنهم ويساعدونهم من ذخائرهم ودفائنهم.

الباب الثاني في سياسة الوزارة وسيرة الوزراء

اعلم أن السلطان يرتفع ذكره ويعلو قدره بالوزير إذا كان صالحاً كافياً عادلاً، لأنه لا يمكن لأحد من الملوك أن يصرف زمانه ويدير سلطانه بغير وزير، ومن انفرد برأيه زل من غير شك. ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم مع

جلالة قدره وعظم درجته وفصاحته أمره الله تعالى بالمشاورة لأصحابه العقلاء العلماء فقال عز من قائل:{وشَاوِرهُم في الأمرِ}. وأخبر في موضع آخر عن موسى عليه السلام:{واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي اشدد به أزري واشركه في أمري}. وإذا لم يستغن الأنبياء عليهم السلام عن الوزراء واحتاجوا اليهم كان غيرهم من الناس أحوج. سئل ازدشير بن بابك أي الأصحاب أصلح للملك فقال الوزير العاقل المتقن الأمين الصالح التدبير، ليدبر معه أمره ويشير اليه بما في نفسه. وعلى السلطان أن يعامل الوزير بثلاثة أشياء. أحدها: إذا ظهرت منه زلة وجدت منه هفوة لا يعاجله بالعقوبة، الثاني: إذا استغنى في خدمته وأينع ظله في دولته لا يطمع في ماله وثروته، الثالث: إذا سأله حاجة لا يتوقف في قضاء حاجته. وينبغي أن لا يمنعه من ثلاثة أشياء وهي متى أحب أن يراه لا يمنعه من رؤيته، وأن لا يسمع في حقه كلام مفسد، ولا يكتم عنه شيئاً من سره، لأن الوزير الصالح حافظ سر السلطان ومدبر أحوال المملكة وعمارة الولايات والخزائن، وزينة المملكة وشدة الهيبة والقدرة، وله الكلام على الأعمال واستماع الأجوبة، وبه يكون سرور الملك وقمع أعدائه، وهو أحق الناس بالاستماع له وتفخيم القدر وتعظيم الأمر. وقال لقمان لابنه: أكرم وزيرك لأنه إذا رآك على أمر لا يجوز أن يوافقك عليه. وينبغي للوزير أن يكون مائلاً في الأمور إلى الخير متوقياً من الشر، وإذا كان سلطانه حسن الاعتقاد مشفقاً على العباد كان له عوناً على ذلك وأمره بالازدياد، وإذا كان سلطانه ذا حنق أو كان غير ذي سياسة كان على الوزير أن يرشده قليلاً قليلاً بألطف وجه ويهديه إلى الطريق المحمودة. وينبغي أن يُعلم أن دوام الملك بالوزير، وأن دوام الدنيا بالملك. وينبغي أن يُعلم أنه لا يجوز له أن يهتم بغير الخير ويعلم أنه أول إنسان يحتاج إليه السلطان. وسئل بهرام جور إلى كم يحتاج السلطان حتى تتم سلطنته وتتكامل بالسرور دولته؟ فقال إلى ستة من الأصحاب: الوزير الصالح ليظهر إليه سره ويدبر معه رأيه ويسوس أمره، والفرس الجواد لينجيه يوم الحاجة إلى النجاة، والسيف القاطع والسلاح الحصين والمال الكثير الذي يخف حمله ويثقل ثمنه كالجوهر واللؤلؤ والياقوت، والزوجة الحسناء لتكون مؤنسة لقلبه مزيلة لكربه، والطباخ الخبير الذي إذا أمسك شيئاً دبره بلطفه.

حكمة: قال ازدشير: حقيق على الملك أن يكون طالباً لأربعة فإذا وجدهم احتفظ بهم: الوزير الأمين والكاتب العالم والحاجب المشفق. وإذا كان الكاتب عالماً دل على عقل الملك ورزانته، وإذا كان الحاجب مشفقاً دل على رضا الملك عن رعيته ولم يغضب على أهل مملكته، وإذا كان النديم صالحاً دل على انتظام الأمر وصلاحه.

حكمة: قال موبذان في عهد أنو شروان أنه لا يمكن حفظ السلطنة إلا بالأصحاب الناصحين المساعدين، ولا ينفع خير الأصحاب إلا إذا كان الملك تقياً، فإنه ينبغي أن يكون الأصل جيداً ثم الفرع، ومعنى تقوى السلطان وصدقه وصحته أن يكون صحيحاً في سائر الأمور، يأمر بالصحة بأقواله وأفعاله ليصح بصحته سائر حشمه ورعيته، وأن يكون واثقاً بالله تعالى، وأن يرى أن قوته وقدرته وظفره بأعدائه ونصرته ووصوله إلى مرداه من الله تعالى، وأن لا يعجب بنفسه فإن أعجب خُشي عليه الهلاك.

حكاية: يقال أن سليمان عليه السلام كان جالساً على سرير ملكه وقد حملته الريح في الجو فنظر سليمان إلى مملكته وطاعة الإنس والجن وانقيادهم لعظيم هيبته وسياسته فاضطرب السرير وهم بالانقلاب، فقال سليمان للسرير استقم، فنطق السرير وقال: استقم أنت حتى نستقيم نحن، كما قال عز من قائل:{إن اللهَ لا يُغير ما بقومٍ حتى يُغيروُا ما بأنفسِهمِ}. وقال أبو عبيدة في أمثاله (من سلك منهج الجد أمن العثار). ويجب أن يكون الوزير عالماً عاقلاً شيخاً، لأن الشاب وإن كان عاقلاً لا يكون في التجربة كالشيخ، والذي يتعلمه الناس من تجارب الأيام لا يُتعلم إلا من المشايخ، والوزير زين السلطان، والزين يجب أن يكون صالحاً طاهراً من الشين. ويحتاج الوزير إلى خمسة أشياء لتُحمد خبرته وتحسن سيرته: التيقظ ليظهر في كل أمر يدخل فيه له وجه المخرج منه، والعلم حتى تتضح له الأمور الحقيقية، والشجاعة حتى لا يخاف من شيء في غير موضع الخوف، والصدق لئلا يعمل مع أحد غير الصحيح، وكتمان سر السلطان إلى أن يدركه الموت. قال أزدشير بابك يجب أن يكون الوزير ساكناً متمهلاً شجاعاً واسع الصدر حسن المقال مليح الوجه، مستحيياً صامتاً حيث يحسن الصمت، ومتكلماً إذا حسن الكلام، ومع ذلك يجب أن يكون تقياً حسن المذهب ليطهر نفسه وينفي عنها كل ما لا يليق، ولا بد من حسن الاعتقاد، وينبغي أن يكون ذا تجارب ليسهل الأمور على الملك، متيقظاً لينظر عواقب الأمور، ويخاف عليه من تصاريف الدهور، ويتحفظ أن يصيبه عيب الزمان. وكل ملك كان وزيره له محباً وعليه مشفقاً كان ذلك الوزير كثير الأعداء وكان أعداؤه أكثر من أصدقائه، ولا يجوز للسلطان أن يسمع في وزيره كلام المحرضين عليه الساعين به إليه، ليحسده أصدقاؤه وتنكبت أعداؤه. ويجب أن يكون الوزير محمود الطريقة، حتى إذا رأى في الملك خلة مذمومة غير رشيدة رده إلى العادة المستقيمة الحميدة من غير غلظة شديدة، لأن الملك إذا كان على ما لا يريده وسمع ما يكرهه منه من التقريع عمل شراً من ذلك. والدليل على ذلك أن البارىء تعالى لما أرسل موسى إلى فرعون بأمره قال عز من قائل: {فقُولا لهُ قولاً ليناً}، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى أمر نبيه عليه السلام أن يقول لعدوه قولاً ليناً فالناس أجدر أن يلينوا أقوالهم، وإن كان السلطان يُخشن كلامه فلا يجوز للوزير أن يحقد بما يريد. وإذا كان الوزير محباً للملك صحيح المقال حسن الفِعال كان له عوناً على ذلك، وأمره بالملازمة لذلك. ولا يجوز أن يعلم الوزير وسائر خاصة الملك أنهم مهما فعلوه من حسن فإن ذلك بإقبال الملك وببركة ظله انفعل، فالمنة حينئذ تصلح أن تكون له على الناس. وأعظم فساد ينشأ في دولة الملك يكون من أمرين أحدهما من الوزير الخائن والثاني من نية الملك الرديئة الفاسدة. قال أنو شروان: شر الوزراء من جرأ السلطان على الحرب وجرأه على القتال في موضع يمكن أن ينصلح الحال بغير حرب، لأن الحرب في سائر الأحوال تفني ذخائر الأموال وفيها تبذل كرائم النفوس ومصونات الأرواح.

حكمة: في كتاب وصايا أرسطاطاليس: كل أمر ينقضي على يد غيرك بلا حرب ولا خشونة فهو خير مما تقضيه بيدك. وترتيب الوزراء أنهم متى أمكنهم أن يحاربوا بالكتب فليحاربوا، وان لم تتأت الأمور بالاحتيال والتدبير فليحتالوا في تأتيها بعطاء الأموال وبذل الصلات والنوال، ومتى انهزم عسكر عفوا عن جنود الجند ولا يستعجلوا بقتلهم لأنه قد يمكن قتل الأحياء ولا يمكن إحياء القتلى، فإن الرجل يصير رجلاً في أربعين سنة، وفي مائة رجل

يكون رجل يصلح لخدمة الملوك، وإن أُسر أحد من الجند من أصحاب الملك كان على الوزير أن يفكه ويفديه ويخلصه ويشتريه ليسمع الجند بصنيعه فتقوى قلوبهم إذا باشروا حروبهم. وعلى الوزير أن يحفظ أرزاق الجند كل إنسان على قدره، وأن يدرب الرجال الشجعان بآلات الحرب ، وأن يخاطبهم بأحسن كلام ويلين لهم في الخطاب ويلطف بهم في الجواب، فإن الجند قد قتلوا كثيراً من الوزراء في قديم الأيام وسالف الأعوام. ومن سعادة السلطان ويمن طالعه وتوحده أن يُسهّل الله له وزيراً صالحاً ومشيراً ناصحاً. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أراد الله بأمير خيراً قيض له وزيراً نصيحاً صادقاً صبيحاً إن نسي ذكره وإن إستعان به أعانه".

قال مؤلف الكتاب إن الله سبحانه وتعالى يظهر قدرته في كل حين وزمان ووقت وأوان. ومن عجائب الزمان حديث البرامكة الذين لم يوجد لهم في الدنيا نظير في الكرم والعطاء وبذل المعروف والسخاء،. وكان تحت حكمهم الولايات الوافرة المرتفعات. وبعد انقراضهم فسدت أحوال الوزراء، ولم يبق لخدمة الملوك رونق ولا نضارة إلى أن أوجد الله تعالى بركات آل سلجوق وظل دولتهم إلى النظام وأوصلهم إلى درجة الوزراء المتقدمين وأرفع بحيث أنه لم يبق أحد في الدنيا من أهل الفضل والأدباء وأبناء السبيل الغرباء من شريف ووضيع إلا هو مشمول بإحسانهم مغمور بامتنانهم ولم يكن أحد من خيرهم محروماً وإنما ذكرنا هذا ليعلم من يقرأ كتابنا هذا الفرق بين الصالح وغير الصالح.

حكمة: قال بزرجمهر: لا تقاس الأشياء بعضها، ببعض لأن جوهر الناس أجل من كل جوهر. وإنما زينة الدنيا جميعها بالناس، والبارئ تعالى لا يُنسب إلى الخطأ، وهو واهب الصلاح لمن يشاء، وأنه يؤتي كل أحد ما يصلح له ويليق به. فينبغي أن يكون وزراء الملوك ومدبرو دولتهم على هذه الصفة، وأن يحفظوا رسوم المتقدمين وطرائقهم، وأن يلتمسوا الأموال التي تؤخذ من الرعية في أوقاتها وأحيانها وعند وجوبها وإتيانها، وليعرفوا الرسم ويحملوا الرعية بحسب طاقتها وقدرتها، وأن يكونوا في تصيدهم كصائد الكركي لا قاتل العصفور، ولا يجوز أن يحرصوا على تناول أموال المواريث مادام الوارث موجوداً فالطمع في ذلك مشؤوم غير جائز، ويجب عليهم استمالة قلوب الرعية والحشم بهبات الفوائد والنعم ليعلموا أن كفايتهم وسمو مرتبتهم وصلاحهم منوط بصلاح الرعية، ليحسن ذكرهم في الدنيا وينالوا جزيل الثواب في العقبى.

الباب الثالث في ذكر الكُتاب وآدابهم

قالت العلماء ليس شيء أفضل من القلم لأنه به يمكن إعادة السالف والماضي. ومن فضل القلم وشرفه أن الله تعالى أقسم به فقال عز من قائل:{ن والقَلَم وما يسطرَون}. وقال تعالى:{اِقرَأ ورُبكَ الأكَرمُ الذِي عَلَمَ بِالقَلمِ عَلَمَ الإنسانِ ما لم يعَلم}. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أول ما خلق الله تعالى القلم فجرى بما هو سائر إلى

يوم القيامة"، الحديث. قال عبد الله بن عباس في تفسير هذه الآية حكاية عن يوسف عليه السلام:{اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم}، قال: معناه كاتب حاسب. وقال إن القلم صائغ الكلام.

حكمة: قال ابن المعتز: القلم معدن والعقل جوهر، والقلم صائغ والخط صناعة. قال جالينوس: القلم طبيب الكلام. قال بلياس: القلم طلسم كبير. قال اسكندر" الدنيا تحت شيئين، السيف والقلم، والسيف تحت القلم، والقلم أدب المتعملين وبضاعتهم، وبه يُعرف رأي كل إنسان من قريب وبعيد، ومهما كان الرجل مجرباً للزمان فانه ما لم ينظر في الكتب لا يكون كامل العقل، لأن مدة عمر الإنسان معلومة، ومعلوم أيضاً أن في هذه المدة القريبة والعمر قصير كم يمكنه أن يدرك بتجربته، ومعلوم أيضاً كم يمكنه أن يحفظ بقلبه. السيف والقلم حاكمان في جميع الأشياء، ولولا السيف والقلم ما قدمت الدنيا. وأما الكُتاب فلا يجوز لهم أن يعرفوا أكثر من حدود الكتابة ليصلحوا لخدمة الاكابر. وقالت الحكماء والملوك القدماء: ينبغي أن يكون الكاتب عالماً بعشرة أشياء. الأول بُعد الماء وقربه تحت الأرض، ومعرفة استخراج الإفتاء، ومعرفة زيادة الليل والنهار ونقصانهما في الصيف والشتاء، وسير الشمس والقمر والنجوم، ومعرفة الاجتماع والاستقبال، والحساب بالأصابع، وحساب الهندسة والتقويم واختيارات الأيام وما يصلح للمزارعين، ومعرفة الطب والأدوية، ومعرفة ريح الجنوب والشمال، وعلم الشعر والقوافي. ومع هذا كله ينبغي أن يكون الكاتب خفيف الروح طيب اللقاء، عالماً ببراية القلم وتدبيره وقطه ورفعه وخطه، ومهما كان في قلبه أظهره بسنان قلمه، وأن يحرس نفسه أن يكون مجتمعاً متصلاً. وأن يكون الخط مبنياً، ويعطي كل حرف حقه، كما يحكى أنه كان لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عامل فكتب إلى عمرو بن العاص كتاباً لم يظهر سين بسم الله الرحمن الرحيم، فاستدعاه عمرو وقال له اظهر أولاً سين بسم الله ثم توجه بعد ذلك إلى عملك. وأول ما ينبغي للكاتب أن يعلم براية القلم فإن الإنسان إذا كان يحسن الخط ويعرف أن يبري قلمه، فإن الخط على كل حال يجيء صالحاً.

حكاية: كان لشاهنشاه عشرة من الوزراء وكان في جملتهم الصاحب إسماعيل بن عباد، فاجتمع الوزراء على تنكيسه واتفقوا على التضريب عليه، وقالوا إن الصاحب لا يقدر أن يبري قلمه. فلما علم بذلك شاهنشاه جمعهم وقال الصاحب أي أدب فيكم ليس لي مثله حتى تتجاسروا أن تتحدثوا عني بحضرة شاهنشاه، وأن أبي علمني الوزارة ولم يعلمني التجارة، أقل أدبي براية القلم، وهل فيكم من يقدر أن يكتب كتاباً تاماً بقلم مكسور الرأس؟ فعجز الجماعة عن ذلك. فقال له شاهنشاه اكتب أنت. فأخذ الصاحب قلماً وكسر رأسه وكتب به درجاً تاماً فأقر الجماعة بفضله واعترفوا بسداده ونبله. وأجود الأقلام ما كان مستقيماً أصفر اللون رقيق الوسط. والقلم المحرف من جانبه الأيمن يصلح للخط العربي والفارسي والعبري، واللسان الدري يجب أن يكون قلمه محرفاً من الجانب الأيسر، وخير الأقلام ما وصفه يحيى بن جعفر البرمكي في كتاب كتبه إلى يحيى بن ليث قلم لا غليظ ولا رقيق، وسطه دقيق، يجب أن تكون السكين التي يبرى بها الأقلام في غاية الحدة، وأن تكون براية القلم على شكل منقار الكركي محرفاً من

الجانب الأيمن، وينبغي أن يكون المقط الذي يقط عليه في غاية الصلابة، ويجب أن تكون الأنقاش فارسية خفيفة الوزن والكاغد صقيلاً متساوياً وأن يجوز مده لأنه يتوحش بذلك الخط، وأن تكون صور الحروف يشبه بعضها بعضاً، ولا يقدر ذلك إلا حكيم عاقل أو من تعودت بذلك أنامله. وكان عبد الله بن رافع كاتباً لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فقال كنت أكتب يوماً فقال لي أمير المؤمنين ألق دواتك وأطل جلفة قلمك ووسع ما بين السطور واجمع ما بين الحروف. وكان عبد الله بن جبلة كاتباً محسناً فقال لغلمانه لتكون أقلامكم بحرية فإن لم تكن بحرية فلتكن صفراً، واقطعوا عقد الأقلام لئلا تنعقد الأمور، ولا يجوز إنفاذ كتاب بغير ختم فإن كرم الكتاب ختمه. وقال عبد الله بن عباس في تفسير قوله تعالى: {أَنِي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ}، أي مختوم. وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يُكتب كتاباً إلى العجم، وقال إنهم لا يريدون كتاباً بغير ختم، فختمه بخاتمه المبارك، وكان عليه ثلاثة أسطر محمد رسول الله.

خبر: روى صخر بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كتب كتاباً إلى النجاشي رماه على التراب ثم أنفذه فلا جرم أنه أسلم. ولما كتب كتاباً إلى كسرى أنوشروان لم يلقه على التراب، لا جرم أنه لم يسلم. وقال صلى الله عليه وسلم تربوا كتبكم فإنه أنجح لحوائجكم. وقال تربوا الكتاب فإن التراب مبارك، وإذا كُتب الكتاب فليُقرأ قبل طيه، فإن رأى فيه خطأ تداركه وأصلحه. وينبغي أن يجتهد الكاتب أن يكون الكلام قصيراً والمعنى طويلاً، وأن لا يكرر كلمة يكتبها، وأن يحترز من الألفاظ الثقيلة الغثة ليكون كاتبها محموداً. وفي باب الكتابة كلام طويل كثير ان ذكرناه طال الكتاب ونقتنع منه بهذا القدر فقد قيل خير الكلام ما قل ودل وجل ولم يمل.

الباب الرابع في سمو همم الملوك

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: اجتهد أن لا تكون دنيء الهمة، فاني ما رأيت أسقط لقدم الإنسان من تداني همته. وقال عمرو بن العاص: المرء حيث وضع نفسه. يريد إن أعز نفسه علا أمره وإن أذلها ذل وهان قدره. وتفسير معنى الهمة أن يرفع نفسه، فإن أنفة القلب من همم الاكابر لأنهم يعرفون قدر أنفسهم فيعزونها، ولا يُرفع قدر أحد حتى يكون هو الرافع لقدر نفسه. وإعزاز المرء نفسه أن لا يختلط بالأراذل ولا يشرع في عمل ما لا يجوز لمثله أن يعمله ولا ما يُعاب به. والهمة والأنفة للملوك لأن الله ركب فيهم الخصلة ليتعلمها منهم الوزراء والندماء كما جاء في الحكاية.

حكاية: أمر أبو الدوانيق لرجل بخمسمائة درهم، فقال أحمد بن الخصيب لا يجوز للملك أن يهب ما دون الألف من الأعداد. وكان هارون الرشيد يوماً راكباً في موكبه فسقط فرس رجل من عسكره فقال هارون ليعط خمسمائة درهم، فأشار إليه يحيى بعينه وقال هذا خطأ، فلما نزلوا قال الرشيد أي خطأ بدا مني حتى أشرت إلي بعينك؟ فقال: لا يجوز أن يجري على لسان أحد من الملوك أقل من الألف من الأعداد. فقال الرشيد فإن اتفق أمر لا يجوز أن

يعطى فيه أكثر من خمسمائة درهم مثل هذا فكيف يقال؟ قال: قل ليعطى فرساً، فيدفع إليه فرس على جاري العادة والرسم، وتكون قد نزهت همتك عن ذكر الحقير. ولهذا خلع المأمون ولده من ولاية عهده، وذلك أن المأمون اجتاز بحجرة العباس فسمعه يقول لغلامه: يا غلام قد رأيت بباب الرصافة بقلاً حسناً فخذ نصف درهم وصل إلى باب الرصافة وائتني بشيء منه. فناداه المأمون من الآن علمت أن للدرهم نصفاً فأنت لا تصلح لولاية العهد وتدبير المملكة ولا يأتي منك صلاح ولا فلاح.

حكمة: في وصية نامة أزدشير لولده إذا أردت أن تهب لأحد من ولدك شيئاً فاجتهد أن لا يكون عطاؤك أقل من دخل ولاية أو قرية أو قيمة بلد أو رستاق يستغني به الشخص الذي تهبه، تزول حاجته ويستغني أعقابه به وأولاده ما عاشوا، فيحصل بذلك في حساب الأحياء لا في حساب الأموات. **واجتهد أنك لا ترغب في التجارة بوجه من الوجود فإن ذلك يدل على دناءة همة الملك.**

حكمة: يقال أنه كان للملك هرمز بن سابور وزير فكتب إليه كتاباً يذكر فيه أنه وصل من جانب البحر تجار معهم اللؤلؤ والياقوت والجواهر النفيسة القيمة، وأنني ابتعت منهم برسم الخزانة بمبلغ ألف دينار، والآن قد حضر فلان التاجر وهو يطلب الجوهر بربح كثير فإن رغب مولانا فليرسم بما يرى. فكتب هرمز جوابه وقال: مائة ألف ومائة ألف مثلها وأمثالها ليس لها في أعيننا خطر، ولا ترغب فيها بوجه من الوجوه لنفسك، ولا تعد لمثل هذا الكلام ولا تخلط في أموالنا درهماً واحداً ولا دانقاً فرداً من أرباح التجارة، فإن ذلك يسقط قيمة الملك، ويزري بحسن إسمه، ويعود بقبح قاعدته ورسمه، ويضر بصيته في حال حياته وبعد وفاته.

حكاية: حُكي أن الأمير عمارة بن حمزة كان في بعض الأيام جالساً في مجلس الخليفة المنصور وكان يوم نظره في المظالم، فنهض رجل على قدميه وقال أنا مظلوم. فقال: من ظلمك؟ فقال: عمارة بن حمزة اغتصب ضياعي وابتز ملكي وعقاري. فأمره المنصور أن يقوم من مقامه ويساوي خصمه للمحاكمة. فقال عمارة: يا أمير المؤمنين إن كانت الضياع له فما أنازعه فيها، وإن كانت لي فقد وهبتها له، ومالي حاجة في محاكمته، وما أبيع مكاني الذي أكرمني به أمير بضياع ولا غيرها. فتعجب الأكابر الحاضرون من علو همته وشرف نفسه ومروءته. الهمة والنهمة على شكل واحد، وكل إنسان له منهما نصيب، فواحد بالسخاء وإطعام الطعام، وآخر بالعلم، وآخر بالعبادة والقناعة والزهادة وترك الدنيا وطلب العقبى، وآخر بطلب الزيادة. وأما الهمة بالسخاء وبذل المال واسداء النوال فينبغي أن تكون كما جاء في الحكاية.

حكاية: يقال أن يحيى بن خالد خرج يوماً من دار الخلافة راكباً إلى داره فرأى على باب الدار رجلاً، فلما قرب نهض قائماً وسلم عليه وقال: يا أبا جعفر أنا محتاج إلى ما في يدك، وقد جعلت الله وسيلتي اليك. فأمر يحيى أن يفرد له موضع في داره، وأن يحمل إليه في كل يوم ألف درهم، وأن يكون طعامه من طعامه المختص به. فبقي على

ذلك شهراً كاملاً، فلما انقضى الشهر كان قد وصل إليه ثلاثون ألف درهم، فأخذ الرجل الدراهم وانصرف. فقيل ليحيى في ذلك، فقال: والله لو أقام مدة عمره وطول دهره ما منعته صلتي ولا قطعت عنه ضيافتي.

حكاية: يقال إنه كان لأنو شروان نديم وكان في مجلس الشراب جام من ذهب مرصع باللؤلؤ والجواهر النفيسة، فسرقه النديم ونظر اليه أنو شروان فرآه وهو يخفيه، فجاء الشرابي وطلب الجام، فلم يجده فنادى يا أهل المجلس قد ضاع لنا جام مرصع بالجواهر فلا يخرجن أحد حتى يرد الجام. فقال أنو شروان مكنهم من الخروج فإن الذي سرق الجام لا يرده، والذي رآه لا يقر عليه. فأين كان السخاء وعلو الهمة كانت الراحة والخير، ولكن من ينكر الإحسان ويجحد الامتنان لا أصل له.

حكمة: قال بعض الحكماء اجلال الأكابر من الكرم وحسن الخلال، واحتقار الناس من لؤم الأصل وقبح الخلال.

الباب الخامس في ذكر حلم الحكماء

أما الحكمة فإنها عطاء من الله جلت قدرته يؤتيها من يشاء من عباده. قال سقراط: مثل من أعطاه الله الحكمة وهو يعرف قدرها وهو بحرصه يعمل للدنيا وللمال الكثير كمثل من يكون في صحة وسلامة فيبيعها بالتعب والنصب، فإن ثمرة الحكمة الراحة والعلاء وثمرة المال التعب والبلاء. قال ابن المقفع كان لملوك الهند كتب كثيرة بحيث كانت تُحمل على الفيلة، فأمروا حكماءهم أن يختصروها فاتفق العلماء في اختصارها، فاختصروها على أربعة كلمات أحدها للملوك وهي العدل، والثانية للرعية وهي الطاعة، والثالثة للنفس وهي الامساك عن الطعام إلى وقت الجوع، والرابعة للإنسان وهي أن لا ينظر الى غير نفسه.

حكمة: قال بعض الحكماء الناس أربعة: رجل يدري، ويدري أنه يدري فذلك عالم فاتبعوه، ورجل يدري ولا يدري وذلك ناس فذكِّروه، ورجل لا يدري أنه لا يدري فذلك مسترشد فأرشدوه، ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فذلك جاهل فاحذروه.

حكمة: سئل بعض الحكماء أي شي أقرب؟ فقال الأجل. فقيل أي شيء أبعد؟ قال الأمل.

حكمة: قال لقمان الحكيم لولده: شيئان إذا حفظتهما لا تبالي بما ضيعت بعدهما، درهمك لمعاشك ودينك لمعادك.

حكمة: سأل أنو شروان بزر جمهر لأي شيء يمكن أن يُجعل العدو صديقاً، قال لأن تخريب العامر أسهل من عمارة الخراب، وكسر الزجاج إذا كان صحيحاً أسهل من تصحيحه إذا كان مكسوراً. وقال صحة الجسم خير من

شرب الأدوية، **وترك الذنب خير من الاستغفار**، وكظم الشهوات خير من كظم الحزن، **ومخالفة الهوى في الاستكبار خير من دخول النار**.

حكمة: كان رجل من الحكماء المتقدمين يطوف البلاد عدة سنين وكان يُعلم الناس هذه الكلمات الست وهي: من ليس له علم فليس له عز في الدنيا ولا في الآخرة، ومن ليس له صبر فما له سلامة في دينه، ومن كان جاهلاً لم ينتفع بعمله، ومن لا تقوى له فما له عند الله كرامة، ومن لا سخاء له فما له من ماله نصيب، ومن لا طاعة له فما له عند الله حجة.

حكمة: سئل بزر جمهر أي عز يكون بالذل متصلاً، فقال: العز في خدمة السلطان، والعز مع الحرص، والعز مع السفه.

حكمة: سئل بزر جمهر بماذا يؤدب البُلَّه، فقال بأن يؤمروا بكثرة الأعمال ويستخدموا في مشقات الأشغال بحيث لا يُجعل لهم إلى الفضول طريقاً ولا فراغاً. قيل وبماذا يؤدب الأخساء، فقال: بإهانتهم واحتقارهم ليعرفوا وضاعة أقدارهم. قيل فبماذا يؤدب الأحرار، قال بالتوقف في قضاء حوائجهم. وسئل أيضاً من الكريم؟ فقال الذي يهب ولا يَذكر أنه وهب.

حكمة: قيل له أيكون شيء أعز من الروح بحيث تُعطي الناس فيه أرواحهم ولا يبالون. فقال: ثلاثة هي أعز من الروح، الدين والعقل والخلاص من الشدائد. وسئل أيضاً في أي شيء يكون العلم والكرم والشجاعة، فقال: زينة العلم الصدق، وزينة الكرم البِشر، وزينة الشجاعة العفو عند القدرة.

حكمة: قال يونان الوزير أربعة أشياء من عظيم البلاء: كثرة العيال مع قلة المال، والجار المسيء الجوار، والمرأة التي لا تقية لها ولا وقار. واتفق أهل الدنيا على أن أعمال الخلائق كلها خمسة وعشرون وجهاً: خمسة منها بالقضاء والقدر وهي طلب الزوجة والولد والمال والمِلك والحياة، وخمسة منها بالكسب والاجتهاد وهي العلم والكتابة والفروسية ودخول الجنة والنجاة من النار، وخمسة منها بالطبع وهي الوفاء والمداراة والتواضع والسخاء، وخمسة منها بالعادة وهي المشي في الطريق والأكل والنوم والجماع والبول والتغوط، وخمسة منها بالإرث وهي الجمال وطِيب الخلق وعلو الهمة والتكبر والدناءة.

حكمة: ستة أشياء تساوي الدنيا: الطعام السائغ، والولد السليم الأعضاء، والصاحب الموافق، والأمير المشفق، والكلام الصحيح النظام، والعقل التام.

حكمة:قال الحكيم خمسة أشياء ضائعة: السراج في الشمس، والمطر في السباخ المالحة، والمرأة الحسناء عند الأعمى، والطعام الطيب يقدم بين يدي الشبعان، وكلام الله سبحانه في صدر الظالم.

حكمة: سئل الاسكندر لم تكرم معلمك فوق كرامة أبيك فقال ان أبي سبب حياتي الفانية ومعلمي سبب حياتي الباقية.

حكمة: سأل قوم من الحكماء بزر جمهر فقالوا عرفنا من أبواب الحكمة ما ينفع أرواحنا وأشباحنا لنجتهد فيه، وما يضرنا فيه وما يضرنا للبعد عنه، فقال اعلموا وتيقنوا أن أربعة من الأشياء تزيد في نور العين وتحد النظر وأربعة تُنقص نورها، وأربعة تُسمن الجسم وتخصبه وأربعة تضعفه وتهزله، وأربعة أشياء تحيي القلب وأربعة تميتهن، وأربعة يصح بها الجسم دائماً وأربعة تكسر البدن. أما الأربعة التي تزيد في نور العين فهي الخضرة والماء الجاري والشراب الصافي والنظر الي وجوه الأحباب،. وأما الأربعة التي تنقصه فهي أكل المالح واللحم القديد وصب الماء على الرأس والنظر الدائم في عين الشمس ورؤية العدو. وأما الأربعة التي تسمن الجسم وتخصبه فهي الثوب الناعم وخلو البال من الأحزان والرائحة الزكية والنوم في المكان الساخن، وأما الأربعة التي تضعفه وتهزله فأكل اللحم القديد وكثرة الجماع وطول المكث في الحمام ونوم العشايا. وأما الأربعة التي يصح بها الجسم فأكل الطعام في وقته وحفظ مقادير الأشياء ومجانبة الأعمال الشاقة وترك الحزن على غير موجب، وأما الأربعة التي تكسر البدن دائماً فسلوك الطريق الصعب وركوب الفرس الحرون والمشي على التعب ومجامعة العجائز. وأما الأربعة التي تحيي القلب فالعقل النافع والأستاذ العالم والشريك الأمين والزوجة الموافقة والصديق المساعد، وأما الأربعة التي تميته فبرد الزمهرير وحر السموم والدخان الكريه ومخافة العدو.

حكمة: قال سقراط خمسة أشياء لا يشبع منها خمس: عين من نظر، وأنثى من ذكر، وأذن من خبر، ونار من حطب، وعالم من علم.

حكمة: سئل حكيم ما أمر الأشياء في الدنيا وما أحلاها.فقال أمر الأشياء استماع الحسن ممن لا قيمة له، والدين الفادح، وضائقة اليد، وأحلى الأشياء الولد والكلام الطيب واليسار.

حكمة: سئل حكيم ما الغنى فقال القناعة والرضا، فقيل ما العشق فقال مرض الروح وموت في حسرة.

حكمة: سئل أسطاطاليس أي صديق أوثق وأي صاحب أشفق.فقال: الصديق الأصيل أوثق، والصاحب القديم أشفق، وتدبير العقلاء أفضل.

حكمة: قال أبو القاسم الحكيم فتن الدنيا تنشأ من ثلاثة نفر: من قائل الأخبار وطالب استماع الأخبار ومتلقي الأخبار، وهؤلاء الثلاثة لا يخلصون من الندامة.

حكمة: قيل ثلاثة أشياء لا تجتمع مع ثلاثة: أكل الحلال مع اتباع الشهوات، والشفقة مع ارتكاب الغضب، وصدق المقال مع كثرة الكلام.

حكمة: قال الحكيم ينبغي أن لا يكون الانسان لقلبه خادماً، وبقلبه متقدماً، وبعادته أبله أي يتجاوز عن الجيد والرديء، وينبغي أن يسمع كلام الحكمة من غير حكيم فإنه قد يصيب الغرض حكمة. وقال الأحنف بن قيس: لا صديق لملول، ولا وفاء لكذوب، ولا راحة لحسود، ولا مروءة لدنيء، ولا زعامة لسيء الخلق.

حكمة: قال بزر جمهر: العوافي أربعة وهي عافية الدين وعافية المال عافية الجسم وعافية الأهل. فأما عافية الدين ففي ثلاثة أشياء: أن لا تابع الهوى، وأن تعمل بأوامر الشرع، وأن لا تحسد أحداً. وعافية المال في ثلاثة أشياء: إنعام النظر، وأداء الأمانة، وإخراج الحق من المال. وعافية الجسم في ثلاثة: قلة الكلام، والإقلال من الكلام، والإقلال من النوم. وعافية الأهل في ثلاثة: القناعة، وحسن العشرة، وحفظ طاعة الله تعالى. وسئل حاتم الأصم لأي شيء لا نجد ما وجده المتقدمون فقال: لأنكم فاتكم خمسة أشياء: المعلم الناصح، والصاحب الموافق، والجهد الدائم، والكسب الحلال ،والزمان المساعد.

حكمة: قال أبو القاسم الحكيم هلاك العبد في شيئين المعصية والانفراد بالرأي.

حكمة: قال الحكيم بلاء الخلق من ثلاثة: العلماء المضلين، والقراء البله، والعوام الحسدة. وقيل لا تطلب صحبة من طامع، ولا تطلب وفاء من خسيس الأصل. وقال الحكيم شيئان غريبان في هذا الزمان الدين والفقر.

حكمة: قال الحكيم أربعة أحوال إن حفظتها كنت من جملة الرجال: أحدها سرك يجب أن يكون بحيث إذا علمه الناس رضيت، والثاني علانيتك يجب أن تكون بحيث لو اقتدى بك الناس جاز لك، والثالث أن تعامل الناس بما لو عاملوك به اخترته لنفسك، والرابع أن تكون حالتك للناس بحيث لو كانت لك رضيت بها.

حكمة: قال الحكيم ينبغي أن تنظر ثلاثة أشياء بعين ثلاثة: وهي أن تنظر الفقراء بعين التواضع لا بعين التكبر، وأن تنظر الأغنياء بعين النصح لا بعين الحسد، وأن تنظر النساء بعين الشفقة لا بعين الشهوة.

حكمة: قال وهب بن منبه: في التوراة مكتوب أن أم المعاصي ثلاثة الكِبْر والحرص والحسد، وأنها نتيجة خمسة أشياء، الأكل والنوم وراحة الجسم وحب الدنيا ومدح الناس. وقال من خلص من ثلاثة أشياء فمأواه الجنة وهي: المنة والمؤونة والملامة، إذا أحسن لم يمن باحسانه، وأن يخفف مؤونته عن الناس، وإذا رأى في أحد عيباً لم يلمه.

حكمة: يقال أن ابن القرية دخل على الحجاج وكان من أكابر أهل زمانه فطنة وعلماً، فسأله الحجاج وقال له: ما الكفر؟ قال: البطر بالنعمة والإياس من الرحمة. فقال ما الرضى؟ قال: الثقة بقضاء الله والصبر على المكاره. فقال ما الحلم؟ قال: إظهار الرحمة عند القدرة والرضى عند الغضب. فقال ما الصبر؟ قال: كظم الغيظ والاحتمال لما يراد. فقال ما الكرم؟ قال: حفظ الصديق وقضاء الحقوق. قال ما القناعة؟ قال الصبر على الجوع والعري عن اللباس. قال ما الغنى؟ قال: استعظام الصغير واستكثار القليل. فقال ما الرفق؟ قال: إصابة الأشياء الكبيرة بالآلة الصغيرة الحقيرة. فقال ما الحمية؟ قال: الوقوف على رأس من هو دونك. قال ما الشجاعة؟ قال الحملة في وجوه الأعداء والكفار والثبات في موضع الفرار. فقال ما العقل؟ قال: صدق المقال وإرضاء الرجال. فقال ما العدل؟ قال: ترك المراد وصحة السيرة والاعتقاد. فقال ما الإنصاف؟ قال: المساواة عند الدعاوي بين الناس. فقال ما الذل؟ قال: المرض من خلو اليد والانكسار من قلة الرزق. فقال ما الحرص؟ قال: حدة الشهوة عند الرجال. فقال ما الأمانة؟ قال قضاء الواجب. فقال: ما الخيانة؟ قال التراخي مع القدرة. قال فما الفهم؟ قال التفكر وإدراك الأشياء على حقائقها.

حكمة: قال الحكيم: ثمانية تجلب الذل على أصحابها وهي: جلوس الرجل على مائدة لم يُدع اليها، ومن تأمر على صاحب البيت، والطامع في الاحسان من أعدائه، والمصغي الى حديث اثنين لم يدخلاه بينهما، ومحتقر السلطان، ومن جلس فوق مرتبته، ومن تكلم عند من لا يستمع، ومن صادق من ليس بأهل.

حكمة: قال الحكيم: خمسة يفرحون بخمس ثم يندمون بعدها:الكسلان إذا فاتته الأمور، والمنقطع عن إخوانه إذا نالته شدة، ومن أمكنته فرصة على أدائه ثم عجز عن انتهازها، ومن ابتلى حكمة. سئل بزر جمهر هل يقلب المال قلوب العلماء من الرجال فقال من قلب المال قلبه فليس بعالم.

حكمة: قال الحكيم: العتاب الظاهر خير من الحقد الباطن.

حكمة: قال الحكيم: الحزن مرض الروح كما أن الوجع مرض الجسد، والفرح غذاء الروح كما أن الطعام غذاء الجسد. وطلب حكيم من رجل أن يدينه ديناراً فلم يفعل، فقال الحكيم لم يكن من منْعِك إياي الا أن احمر وجهي من الحياء مرة واحدة، ولوأعطيتني لم يصفر وجهي من مطالبتك مرة بل ألف مرة.

حكمة: قال الحكيم: تجنب أربعة أشياء تخلص من أربعة أشياء: تجنب الحسد لتخلص من الحزن، ولا تجالس جليس السوء وقد تخلصت من الملامة، ولا ترتكب المعاصي وقد خلصت من النار، ولا تجمع المال وقد خلصت من العداوة.

الباب السادس في شرف العقل والعقلاء

إن الله سبحانه وتعالى خلق العقل على أحسن صورة، وقال له أقبِل فأقبَل، ثم قال له أدبِر فأدبَر، فقال وعزتي وجلالي ما خلقت في خلقي شيئاً أحسن منك، بك آخذ، وبك أعطي، وبك أحاسب، وبك أعاقب. والدليل على صحة هذا أن لله تعالى على العباد شيئين وكلاهما موقوفان على العقل، وهما الأمر والنهي، كما جاء في محكم التنزيل قوله جل ذكره:{فاتقوا الله يا أولي الألباب}، وهم ذوو العقول. واشتقاق العقل من العقال، والمعقل المنيع القلعة على رأس الجبل لا يصل إليها يد أحد لامتناعها وقوتها وإحكامها. سئل حكيم الفرس لم سمي العاقل عاقلاً فقال للعاقل أربع علامات يعرف بها، وهي أن يتجاوز عن ذنب من ظلمه، وأن يتواضع لمن دونه، وأن يسابق الى فعل الخير لمن هو أعلى منه، وأن يذكر ربه دائماً، وأن يتكلم عن العلم ويعرف منفعة الكلام في موضعه، وإذا وقع في شدة التجأ الى الله تعالى. وكذلك الجاهل له علامات وهو أن يجور على الناس ويظلمهم، ويعسف بمن دونه، وأن يتكبر على الزعماء والمتقدمين، وأن يتكلم بغير علم، وأن يسكت عن خطأ، وإذا وقع في شدة أهلك نفسه، وإذا رأى أعمال الخير لفت عنها وجهه.

حكمة: قال سعيد بن جبير: ما رأيت للإنسان لباساً أشرف من العقل، إن انكسر صححه، وإن وقع أقامه، وإن ذل أعزه، وإن سقط في هوة جذبه بضبعه منها واستنقذه منها، وإن افتقر أغناه وأول شيء يحتاج إليه البليغ العلم الممتزج بالعقل كما جاء في الحكاية.

حكاية: يقال إنه ما كان في خلفاء بني العباس أعلم من المأمون في جميع العلوم، فكان له في كل أسبوع يومان يجلس فيهما لمناظرة الفقهاء. وكان يجتمع عنده الفقهاء والمناظرون والعلماء والمتكلمون، فدخل في بعض الأيام الى مجلسه رجل غريب عليه ثياب بياض رثة فجلس في أواخر الناس وقعد من وراء الفقهاء في مكان مجهول، فلما ابتدأوا في المسائل وكان رسمهم يديرون المسألة على جماعة أهل المجلس، فكل من وجد زيادة لطيفة أو نكتة غريبة ذكرها. فدارت المسألة إلى أن وصلت الى ذلك الرجل الغريب فتكلم بكلام عجيب، فاستحسنه المأمون فأمر أن يرفع الى أعلى من تلك المرتبة. فلما وصلت الثالثة أجاب بجواب أحسن من أجوبة الفقهاء كلهم، فأمر أن يرفع الى أعلى من تلك المرتبة. فلما وصلت الثالثة أجاب بجواب أحسن وأصوب من الجوابيين الأولين، فأمر المأمون أن يجلس قريباً منه. فلما انقضت المناظرة أُحضر الماء وغسلوا أيديهم، ثم أُحضر الطعام فأكلوا، ثم نهض الفقهاء وخرجوا، وقرب المأمون ذلك الرجل وأدناه وطيب قلبه ووعده بالاحسان إليه والإنعام عليه. **ثم عبي مجلس الشراب**

ونضد وحضر الندماء الملاح ودارت الراح. فلما وصل الدور الى الرجل نهض قائماً وقال إن أذن أمير المؤمنين تكلمت بكلمة واحدة، فقال: قل ما تشاء. فقال: قد علم الرأي العالي زاده الله علواً أن العبد كان في مجلس الشريف من مجاهيل الناس ووضعاء الجلاس، وأن أمير المؤمنين بقدر يسير من العقل الذي أبداه جعله مرفوعاً على درجة غيره وبلغ به الغاية التي لم تسم اليها همته، وإن العبد إذا شرب الشراب تباعد عنه العقل وقرب منه الجهل وسُلب أدبه فعاد الى تلك الدرجة، ووقع في أعين الناس كما كان ذليلاً، فإن رأى الرأي العالي أن لا يفرق بينه وبين ذلك القدر اليسير من العقل الذي أعزه بعد الذلة، وكثره بعد القلة بمنه وفضله وكرمه وسيادته وحسن شيمه فعل متطولاً وأنعم متفضلاً. فلما سمع المأمون منه ذلك **مدحه وشكره وأجلسه في رتبته**[77] ووفره وأمر له بمائة ألف درهم وحمله على فرس وأعطاه ثياب تجمل وكان كل مجلس يرفعه على جماعة الفقهاء حتى صار أرفع منهم درجة وأعلى منزلة. وإنما أوردنا هذه الحكاية لأجل نعت العقل لأن العقل يوصل صاحبه الى درجة عالية ومرتبة سامية وإن الجهل يحط صاحبه عن درجته ويهبط به من علو مكانته.

حكمة: قال لقمان الحكيم: مهما كان الرجل عالماً فانه لا ينتفع بعلمه ما لم يكن العقل لعلمه مصاحباً.

حكمة: قالت العلماء: العقل أمير وله جنود، وجنوده التمييز والحفظ والفهم. وسرور الروح العقل لأن به ثبات الجسم، والروح سراج نوره العقل ثم ينبسط في جميع الجسد، والعاقل لا يغتم أبداً لأنه لا يفعل ما يوجب الاغتمام ولا يشرع في أمر لا يجوز لمثله الاهتمام به.

حكمة: سئل الحكيم ما العقل؟ فقال: سداد وعقد بين ثلاثة وعشرين شيئاً، فلولا هذه العقود لاختلط الجيد بالردىء. أولاً هو عقد بين التوحيد والشرك، وبين الإيمان والكفر، وبين الحقد والتهور، وبين الإسلام والغفلة، وبين اليقين والشك، وبين العاقبة والبلاء، وبين الكرم والبخل، وبين حسن الخلق والقباحة، وبين التواضع والتكبر، وبين الصداقة والعداوة، وبين العلم والجهل، وبين الحياء والوقاحة، وبين الحق والباطل، وبين الرزانة والخفة، وبين الظلمة والضياء، وبين الكرامة والزلة، وبين الطاعة والمعصية، وبين ذكر الله تعالى والغفلة، وبين النصيحة والحسد، وبين السنة والبدعة، وبين الرحمة والقساوة، وبين الحلم والحمق. وقال صاحب الكتاب رحمه الله تعالى جميع محاسن الدنيا في العقل وسائر العلوم والأعمال مرجعها الى العقل كما جاء في الحكاية.

حكاية: روي أن الريح حملت كرسي سليمان بن داود عليهما السلام وجعلت تسير به فلاح لسليمان بلد فأمر الريح أن تحطه، فنزل على باب ذلك البلد فرأى على بابه مكتوباً: أجرة اجتهاد يوم واحد درهم، والحسن والجمال أجرتهما في يوم مائتا مثقال، وعلم ساعة واحدة لا تُحصى قيمته، وجميع الأشياء منوط بالعلم، والعلم أسير، والتدبير

[77] هذا هو كل رد فعل "أمير المؤمنين" على كلام الرجل العاقل، ولا حول ولا قوة إلا بالله (المصنف)

مع العقل توأمان، ومن أتاه الله العقل فقد أتاه خيراً كثيراً. لتعلم أيها الأخ كنه العقل ونفاسته وعلو قيمته فيجب عليك أيها العاقل الحمد والشكر لواهب الشكر البارئ جلت قدرته .

الباب السابع في ذكر النساء

خير النساء وأبركهن الحسناء الولود الخفيفة المهر. قال عليه الصلاة والسلام: "عليكم بالمرأة الحرة فإنها أطهر وأبرك". وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "التجئوا الى الله عز وجل من شرار النساء واحذورا خيارهن". قال صاحب الكتاب من أراد صلاحه وتدبيره ولم يجد المرأة الحسناء يلهو بها فعليه بالمرأة الدينة فذات الدين خير وأبرك، وإذا جاءت الديانة أتى المال وكان أبرك، لأن المرأة التي لا دين لها فما لها أصل ولا معها بركة، وببركة الديانة يوجد كل خير. كما في حكاية: كان بمدينة مرو رجل اسمه نوح بن مريم وكان رئيس مرو وقاضيها وكان له نعمة كبيرة وحال موفورة، وكانت له ابنة ذات حسن وجمال وبهاء وكمال قد خطبها جماعة من الأكابر والرؤساء وذوي النعمة والثروة، فلم ينعم بها لأحد منهم وتحير في أمرها ولم يدر لأيهم يزوجها، وقال إن زوجتها لفلان أسخطت فلاناً. وكان له غلام هندي تقي اسمه مبارك، وكان له كرم عامر الأشجار والفاكهة والثمار، فقال للغلام أريد أن تمضي وتحفظ الكرم. وذهب لينظره فقال له يا مبارك ناولني عنقود عنب، فناوله عنقوداً من العنب فوجده حامضاً، فقال له سيده أعطني غير هذا فناوله عنقوداً حامضاً، فقال له سيده ما السبب في أنك لا تناولني من هذا الكثير غير الحامض؟ فقال لأني لا أعلم أحامض هو أم حلو. فقال له سيده: سبحان الله لك في هذا الكرم شهر كامل ما تعرف الحامض من الحلو؟ فقال وحقك أيها السيد أنني ما ذقته ولم أعلم أحامض أم حلو. فقال له لم لا أكلت منه؟ فقال: لأنك أمرتني بحفظه ولم تأمرني بأكله فما كنت أخونك. فعجب القاضي منه فقال له حفظ الله عليك أمانتك. وعلم القاضي أن الغلام غزير العقل، فقال له القاضي أيها الغلام قد وقع لي رغبة فيك وينبغي أن تفعل ما آمرك به. فقال الغلام أنا مطيع لله ولك. فقال القاضي: إعلم أن لي بنتاً جميلة وقد خطبها كثير من الرؤساء والمتقدمين، ولا أعلم لمن أزوجها فأشر علي بما ترى. فقال الغلام: إن الكفار في زمن الجاهلية كانوا يريدون الأصل والنسب والبيت والحسب، واليهود والنصارى يطلبون الحسن والجمال، وفي عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان الناس يطلبون الدين والتقى، أما وفي زماننا هذا فالناس يطلبون المال، فاختر من هذه الأربعة ما تريد. فقال القاضي قد اخترت الدين والأمانة وجربت منك العفة والصيانة. فقال الغلام أيها السيد أنا عبد رقيق هندي أسود أبتعتني بمالك كيف تزوجني بإبنتك وترضاني؟ فقال له القاضي قم بنا إلى البيت لندبر هذا الأمر، فلما صارا الى المنزل قال القاضي لزوجته اعلمي أن هذا الغلام الهندي ديّنُ تقي وقد رغبت في صلاحه وأريد أن أزوجه ابنتي فما تقولين؟ فقالت الأمر إليك، ولكن أمضي الى الصبية وأخبرها وأعيد عليك جوابها. فجاءت المرأة الى الصبية وأدت إليها رسالة أبيها فقالت: مهما أمرتماني به فعلته ولا أخرج من تحت حكمكما ولا أعاندكما بالمخالفة بل أبركما. فزوج

القاضي ابنته بالمبارك واعطاهما مالاً عظيماً، فأولدها المبارك ولداً وسماه عبد الله، وهو معروف في جميع العالم وهو **عبد الله بن المبارك صاحب العلم، والزاهد، وراوية الأحاديث، فما دامت الدنيا تحدث عنه تروى.**

نعم أيها الأخ إذا تزوجت فاطلب ذات الدين ولا تطلب ذات الصيت والمال، فإن المال يعود وبالاً ولا تعطيكه المرأة. وإذا أردت أن تطلب زوجة فلا تطلبها وتخطبها لأجل بلوغ الشهوة، وارغب فيها بنية أنها دَيِّنة وصالحة لتكون في خدرك وطاعتك وتكون لك ستراً من النار.

حكاية: نزل بعبد الله بن المبارك في بعض الأيام عشرة من العلماء ولم يكن عنده ما يضيفهم به وما كان يملك سوى فرس يحج عليها سنة ويغزو سنة، فذبح ذلك الفرس وطبخ منه وقدمه بين يدي أضيافه، فقالت له زوجته: سبحان الله ما كنت تملك سوى هذا الفرس من الدنيا فلم ذبحته؟ فدخل سريعاً الى بيته وأخرج من متاع بيته بقدر مهرها وطلقها في وقته وساعته، وقال: امرأة تبغض الأضياف لا تصلح لنا. فأتاه بعد ذلك بأيام رجل وقال له يا إمام المسلمين لي بنت وقد توفيت أمها وهي في كل يوم تمزق دست ثياب حزناً وغماً واليوم تريد أن تقصد مجلسك، فقل في تسليتها شيئاً لعل قلبها يرق. فلما جلس على المنبر ذكر من هذا الباب ما تسلت به الصبية عن أمها فلما عادت الى البيت قالت: يا أبت قد تبت ولا أعود أسخط الله تعالى، ولكن لي اليك حاجة. قال: وما حاجتك؟ قالت: أنت تقول دائماً أرباب الأحوال وأبناء الدنيا يطلبونك ويخطبونك فناشدك الله لاتزوجني لغير عبد الله بن المبارك، فإن كان ماله دنيا فإن لنا دنيا، فزوجها أبوها بعبد الله بن المبارك وحمل اليه جهازاً كثيراً ومالاً كبيراً وأنفذ اليه عشرة أفراس ليجاهد عليها في سبيل الله. فرأى عبد الله في بعض الليالي في منامه قائلاً يقول: إن كنت طلقت من أجلنا عجوزاً فقد أعطيناك صبية بكراً، وان كنت ذبحت فرساً واحداً فقد أعطيناك عشرة أفراس وعِوضها لتعلم أن الحسنة بعشر أمثالها عندنا ولا يضيع عندنا أجر المحسنين وما عاملنا أحد فخسر.

فصل: واعلم أن ديانة المرأة وسترها نعمة من نعم الله تعالى على عباده، وهيهات أن يقدر على المرأة العفيفة طامع كما جاء في الحكاية.

حكاية: يقال أنه أراد رجل فاسق أن يكابر امرأة عفيفة فقال لها امضي وأغلقي أبواب الدار جميعها وأحكمي اغلاقها. فمضت المرأة ثم عادت فقالت: قد أغلقت سائر الأبواب وأوثقت إغلاقها سوى باب واحد، فقال: أي الأبواب ذلك الباب؟ فقالت: تلك الأبواب التي بيننا وبين الخلق قد أغلقتها، وقد بقي الباب الذي بيني وبين الخالق جلت عظمته ما قدرت عليه ولا استطعت أن أغلقه وهو بحاله مفتوح. فوقع في نفس هذا لرجل من هذا الكلام الهيبة فاخلص لله التوبة وأقلع عن ذنبه وعاد الى طاعة ربه الأعلى.

حكاية مثلها: يقال أنه كان رجل علوي بسمرقند في بعض الأيام قائماً على باب داره فاجتازت عليه امرأة ذات حسن وجمال، وكان الدرب خالياً فقبض العلوي على زند المرأة وجذبها إلى داخل الدار وهم أن يفسد معها، فقالت له المرأة أسألك مسألة أجبني عنها وافعل ما بدا لك، فقال أذكري ما تريدين. فقالت: إذا أنت وطئتني حراماً وحبلت منك وولدت ولداً هل يكون ذلك الولد علوياً أو خبيثاً عامياً؟ فقال إنه يكون علوياً. فقالت المرأة لا شك أنك أنت من خبيثي العلويين، ولو لم تكن خبيثاً لم تفعل مثل هذا. فخجل العلوي في الحال ورفع يده عنها ونذر على نفسه لله نذراً أنه لا يعود ينظر إلى امرأة محرمة عليه نظرة فساد. وينبغي أن يكون الرجل صاحب حمية وغيرة على حرمه وناسه، فإن الحمية من الدين إلى حد أنه لا يجوز للرجل الأجنبي أن يسمع دق المرأة الأجنبية بالهاون، وإذا دق رجل أجنبي باب الدار فلا يحل للمرأة أن تجيبه بلين وسهولة لأن قلوب الرجال تتعلق بأقل الأشياء وأكثرها، وإن كان لابد للمرأة أن تجيبه فلتضع أصبعها في فمها ولتجبه ليصير صوتها شبيهاً بصوت العجائز، ولايجوز للنساء أن ينظرن الى الرجال الأجانب ولو كان المنظور أعمى. وجاء في الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دخل الى بيت عائشة رضي الله عنها فرأى عبد الله بن أم مكتوم قاعداً النساء، فقال: "يا عائشة لا يحل للمرأة أن تقعد عند غير ذي محرم". فقالت يا رسول الله إنه أعمى. فقال: "**إن كان لا يراك فإنك تَرِيه**".

حكاية: يقال أن الحسن البصري رحمة الله عليه قصد زيارة رابعة العدوية رضي الله عنها في جماعة من أصحابه، فلما وصلوا الباب قالوا اتأذنين لنا في الدخول؟ فقالت: تمهلوا ساعة وجعلت الكساء بينها وبينهم ستراً وأذنت لهم، فدخلوا وسلموا عليها فأجابتهم من وراء الستر، فقالوا: لم علقت بيننا وبينك ستراً؟ فقالت: أُمرت بذلك في قوله تعالى: {فَاسأَلُوهُنِ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ}. وواجب على الرجل أن لا ينظر الى امرأة أجنبية بحال فإنه قبل أن يجازي به في الآخرة يجازي به في الدنيا كما جاء في الحكاية.

حكاية: كانت فاطمة رضي الله عنها تطحن الجاروشة الى أن أدمت أناملها، فشكت ذلك في بعض الأيام الى بعلها علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فقال: قولي لأبيك يبتع لك خادمة. فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت: يا رسول الله إني مفتقرة الى خادمة تعينني على أشغالي وتحمل عني بعض أثقالي. فقال عليه الصلاة والسلام ألا أعلمك ما هو خير لك من خادم وأعز من سبع سموات وسبع أرضين؟ فقالت يا رسول الله علمني. فقال صلى الله عليه وسلم: "اذا أردت فقولي قبل منامك ثلاث مرات سبحان الله والحمد لله ولا إله الا الله والله اكبر". وفي الأخبار أنهم لم يكن لهم في البيت إلا كساء كانوا إذا غطوا به رؤوسهم انكشفت أرجلهم. وفي الليلة التي كانت فاطمة عروساً وزفت إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان تحتها جلد شاة وكانا ينامان عليه. وما كان لفاطمة من متاع البيت سوى كساء ومخدة من أدم حشوها ليف. لاجرم ينادي لها يوم القيامة يا أهل الموقف غضوا أبصاركم حتى سيدة النساء فاطمة الزهراء.

والمرأة تُعز عند زوجها وتنول محبتها في قلبه بإكرامها له وطاعتها لأمره وقت خلوته ومجامعته لها، وبحفظها منافعه واجتنابها مضاره وتربيتها ولده واكتنافها في بيته وقلة خروجها من خدرها، وأن تكون عنده كاتمة للسر محتملة للأمر، وأن تحفظ وقت طعامه ومهما علمت أن يشتهيه اصطنعته بطلاقة وجه وبشر، وأن لا تكلفه حاجة ثقيلة، وأن لا تكون لجوجة، وأن تستر نفسها عند منامها، وأن تحفظ سر زوجها في غيبته وحضوره. قال صاحب الكتاب وواجب على الرجال أن يؤدوا حق النساء العورات، وأن يتحفظوا بهن من وجه الرحم والإحسان والمدارة، ومن أحب أن يكون مشفقاً على زوجته رحيماً لها فليذكر عشرة أشياء من أحوالها لينصفها بها. أولها أن المرأة لا تقدر أن تطلقه بغير إذن وهو قادر على ذلك متى شاء، وأنها لا تقدر أن تأخذ شيئاً بغير إذنه وهو يقدر على ذلك، وأنها ما دامت في حباله لا تقدر على زوج سواه وهو يقدر على الزواج عليها، وأنها لا يجوز لها أن تخرج من البيت بغير إذنه وهو يجوز له ذلك، وأنها لا يمكنها أن تعزي وهو يمكنه ذلك، وأنها تخاف منه وهو لا يخافها، وأنها تفارق أمها وأباها وجميع أقاربها وأنها تخدمه دائماً وهو لايخدمها دائماً، وأنها تتلف نفسها إذا كان مريضاً وهو لايغتم لو ماتت. فلهذه الوجوه التي ذكرناها يجب على العقلاء أن يكونوا رحماء على النساء ولا يظلمونهن ولا يجوروا عليهن، فإن المرأة أسير الرجل. ويجب على الرجال مداراة النساء لنقص عقولهن، وبسبب نقص عقولهن لا يجوز لأحد أن يتدبر برأيهن ولا يتلفت إلى أقوالهن، ومن اعتمد على آرائهن ودبر نفسه بمشورتهن كان كما جاء في الحكاية.

حكاية: يقال أن خسرو بن أبرويز كان يحب أكل السمك، فكان يوماً جالساً وشيرين معه فجاء الصياد ومعه سمكة كبيرة فأهداها لخسرو ووضعها بين يديه فأعجبته فأمر له بأربعة آلاف درهم، فقالت شيرين بئس ما فعلت. فقال ولم؟ فقالت لأنك إذا أعطيت أحداً من حشمك بعد هذا مثل هذه العطية احتقرها، وقال أعطاني مثل ما أعطى الصياد. فقال الملك لقد صدقت، ولكن يقبح بالملك استرجاع ما وهبه، وقد فات ذلك الأمر. فقالت شيرين أنا أدبر هذا الحال. فقال: وكيف ذاك؟ فقالت: تدعو الصياد وتقول له هذه السمكة ذكر أم أنثى، فإن قال أنثى فقل إنما أردت ذكراً، وإن قال ذكر فقل إنما أردت أنثى. فنودي الصياد وكان ذا ذكاء وفطنة، فقال خسرو هذه السمكة ذكر أم أنثى؟ فقبل الصياد الأرض وقال أدام الله إقبال الملك، هذه السمكة خنثى لا ذكر ولا أنثى. فضحك خسرو من كلامه وأمر له بأربعة آلاف درهم أخرى، فمضى الصياد إلى الخازن وقبض منه ثمانية آلاف درهم، ووضعها في جراب كان معه وحملها على كاهله وهم بالخروج فوقع من الجراب درهم واحد، فوضع الصياد الجراب عن كاهله وانحنى على الدرهم والملك وشيرين ينظران إليه، فقالت شيرين لخسروا أرأيت إلى خسة هذا الصياد وسفالته، سقط منه درهم واحد فألقى عن عنقه ثمانية آلاف درهم وانحنى على ذلك الدرهم فأخذه ولم يسهل عليه أن يتركه فكان يأخذه بعض غلمان الملك. فحرد خسرو من ذلك ثم أعاد الصياد إليه وقال له يا ساقط الهمة ألست بإنسان وضعت مثل هذا المال عن عنقك لأجل درهم واحد وأسفت أن تتركه فكان يتبلغ به بعض الصعاليك. فقبل الصياد الأرض وقال أطال الله إقبال الملك لم أرفع ذلك الدرهم لخطره عندي، وإنما رفعته عن الأرض لأن على أحد وجهيه اسم الملك وعلى وجهه الآخر صورته، فخشيت أن يجيء أحد بغير علم فيضع قدمه

عليه فيكون ذلك استخفافاً باسم الملك وصورته فأكون أنا المأخوذ بهذا الذنب. فعجب خسرو من كلامه وأمر له بأربعة آلاف درهم أخرى فعاد الصياد ومعه اثنا عشر ألف درهم، وأمر خسرو منادياً ينادي: لا يتدبر أحد برأي النساء، فإن من تدبر بآرائهن أو ائتمر بمشورتهن خسر درهمه درهمين. قال صاحب الكتاب رضي الله عنه عمارة الدنيا وتناسل بني آدم بالنساء والعمارة لا تصح بغير رأي وتدبير، وقيل شاورهن وخالفوهن، ويجب على الرجل الفاضل المتيقظ أن يحتاط في خطبة النساء وطلبهن، وليزوج البنت لا سيما إذا بلغت لئلا يقع في الغدر والعيب ومرض الروح وتعب القلب. وعلى الحقيقة كلما ينال الرجل من البلاء الهلاك والمحن فبسبب النساء، كما قال الشاعر:

مِن فِتنَةِ النِسوانِ قَد يَعصِى الَفتَى ** الرحَمَنَ أو يَخشَى مِن السُلطَانِ

اللصُ لولاهِن لَم يك بَائِعاً ** لِلُروحِ مِنه بِأرخَصِ الأيمَانِ

مِنُهن قَرَعَ آدَمُ معَ يُوسِفُ ** فِي مُحكَمِ التَنزِيلِ بِالعُصَيانِ

وكذاَك هَارُوت بِبَابِلِ مُنَكَسُ ** ومُعلَقُ بِالشِعرِ فِي جَذعَانِ

مَجنُونُ عَامِرِ هَامَ مِن أجلِ النِسَا ** فِي السِندِبَاد عَجَائبُ النِسوانِ

كُل البلا منِهُن يأتِي والوفَا ** مِنهُن لا يأتِي مَدى الأزمَانِ

المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وءاله وصحبه الطاهرين وسلّم وبعد، فقد قال الله تعالى:{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} (سورة الشورى/١١)، وقال تعالى:{وَلِلهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} (سورة الأعراف/١٨٠)، وقال:{قُلِ ادْعُواْ اللهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى} (سورة الإسراء/١١٠)، وروى البخاريُّ ومسلمٌ عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنه قالَ: "إن لله تعالى تسعةً وتسعينَ اسمًا، مائةً إلا واحدًا، من أحصاها دَخَلَ الجنةَ". وقد فَسَّرَ بعضُ أهلِ العِلمِ بأنَّ المرادَ أن يكونَ مُستَظهِرًا لها مع اعتقادِ معانيها، وروى الترمذي في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن لله تسعة وتسعين اسمًا، مائةً إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر، هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمنُ، الرحيمُ، المِلكُ، القُدُّوسُ، السلامُ، المؤمِنُ، المهَيمِنُ، العزيزُ، الجَبَّارُ، المتَكَبّرُ، الخَالِقُ، البارىءُ، المصوّرُ، الغَفَّارُ، القَهَّارُ، الوهَّابُ، الرزّاقُ، الفتّاحُ، العليمُ، القابِضُ، البَاسِطُ، الخافِضُ، الرافِعُ، المعِزُّ، المذِلُّ، السميعُ، البصيرُ، الحَكَمُ، العَدْلُ، اللطيفُ، الخَبِيرُ، الحَلِيمُ، العظيمُ، الغفورُ، الشكورُ، العلي، الكبيرُ، الحَفِيظُ، المقِيتُ، الحَسِيبُ، الجليلُ، الكَرِيمُ، الرقيبُ، المجيبُ، الواسعُ، الحكيمُ، الودودُ، المجِيدُ، البَاعِثُ، الشهيدُ، الحقُّ، الوَكيلُ، القويُّ، المتينُ، الوليُّ، الحميدُ، المحْصي، المبدىءُ، المعيدُ، المحيي، المميتُ، الحيُّ، القيُّومُ، الواجدُ، الماجدُ، الواحدُ، الصَّمَدُ، القادِرُ، المقتدِرُ، المقَدِّمُ، المؤخّرُ، الأولُ، الآخِرُ، الظاهرُ، الباطنُ، الوالي، المتعالي، البرُّ، التوابُ، المنتقمُ، العَفوُّ، الرءوفُ، مالكُ المُلكِ ذو الجلالِ والإكرام، المقْسِطُ، الجامعُ، الغنيُّ، المغني، المانعُ، الضارُّ، النافعُ، النورُ، الهادي، البديعُ، الباقي، الوارثُ، الرشيدُ، الصَّبورُ، الكافي" لفظ حديث الفريابي، وفي رواية الحسن بن سفيان: "الرافع" بدل "المانع"، وقيل: في رواية النصيبي: "المغيث" بدل "المقيت". فنذكُرُها مع مراعاةِ روايةِ التّرمذيّ ورمزُه (ت)، وابنِ ماجه ورمزُه (جه)، والحاكمِ ورمزُه (كم)؛ مع ذكرِ بعضِ ما وَرَدَ في كتابِ اشتقاقِ أسماءِ الله الحسنى للزّجاجي ورمزُه (زج)، وكتابِ المنهاجِ للحليميّ ورمزُه (حل)، طلبًا للأجرِ والخيرِ والبركةِ بذكرِ أسماءِ الله الحسنى.

شرح أسماء الله الحسنى

١ ـ الله: أي من له الأُلوهِيَّةُ وهو أنه تعالى مُستَحِقٌّ للعبادةِ وهي نهايةُ الخشوعِ والخضوعِ، قال الله تعالى:{اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ} (سورة الزمر/٦٢). ت

٢ . الرّحمنُ: وهو من الأسماءِ الخاصَّةِ بالله، أي أن الله شَمِلَت رحمتُه المؤمنَ والكافرَ في الدنيا، وهو الذي يرحم المؤمنين فقط في الآخرة قال تعالى:{الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ} (سورة الفاتحة/٣). ت

٣ . الرحيمُ: أي الذي يرحَم المؤمنينَ فقط في الآخرة، قالَ تعالى:{وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} (سورة الأحزاب/٤٣). ت

٤ . المِلِكُ: أي أنَّ الله موصوفٌ بِتَمامِ المُلكِ، ومُلكه أزلي أبدي، وأما المُلك الذي يعطيه للعبد في الدنيا فهو حادث يزول قال تعالى:{فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ} (سورة طه/١١٤). ت

٥ . القُدُّوسُ: فهو المنزَّهُ عن الشريكِ والوَلَدِ وصفاتِ الخلقِ، كالحاجةِ للمكانِ أو الزمانِ فهو خالقُهما وما سِواهُما، وهو تباركَ وتعالى المُنزه عن النقائِص الظَّاهِرُ من العُيوبِ قال تعالى:{الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ} (سورة الحشر/٢٣). ت

٦ . السَّلامُ: أي الذي سَلِمَ من كُلّ عيبٍ فلا يوصفُ بالظُّلمِ أو الوَلَدِيَّةِ أو الزَّوجِيَّةِ، قال تعالى:{السَّلامُ الْمُؤْمِنُ} (سورة الحشر/٢٣). ت

٧ . المؤمِنُ: وهو الذي يَصدُقُ عبادَه وعدَه ويفي بما ضَمِنَهُ لهم قال تعالى:{السَّلامُ الْمُؤْمِنُ}(سورة الحشر/٢٣). ت

٨ . المهيمنُ: أي الشاهدُ على خلقِهِ بما يكونُ منهم من قولٍ أو فعلٍ أو اعتقادٍ، قال تعالى:{الْمُهَيْمِنُ} (سورة الحشر/٢٣). ت

٩ . العزيزُ: هو القويُّ الذي لا يُغلَبُ لأنه تعالى غَالِبٌ على أمرِهِ، قال تعالى:{وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (سورة إبراهيم/٤). ت

١٠ . الجبَّارُ: هو الذي جَبَرَ مفاقِرَ الخَلقِ، أو الذي قَهَرَهُم على ما أرادَ، قال تعالى:{الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ} (سورة الحشر/٢٣). ت

١١ . المتكبِّرُ: هو العظيمُ المتعالي عن صفاتِ الخَلقِ القاهِرُ لعُتَاةِ خَلقِهِ، قال تعالى:{الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ} (سورة الحشر/٢٣). ت

١٢ . الخالقُ: هو مُبرِزُ الأشياء من العَدَمِ إلى الوجودِ فلا خالِقَ إلا هو عَزَّ وجَلَّ، قال تعالى:{هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ} (سورة فاطر/٣). ت

١٣ . البارئُ: أي أنه هو خلق الخَلقَ لا عَن مِثالٍ سَبَقَ قال تعالى: {الْبَارِئُ} (سورة الحشر/٢٤). ت

١٤ . المصوِّرُ: الذي أَنشَأَ خَلقَهُ على صُوَرٍ مختلفَةٍ تَتَمَيَّزُ بها على اختلافِها وكَثرَتِها، قال تعالى:{هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ} (سورة الحشر/٢٤). ت

١٥. الغفَّارُ: هو الذي يَغفِرُ الذنوبَ، قال تعالى:{أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ} (سورة الزمر/٥). ت

١٦ . القهَّارُ: هو الذي قَهَرَ المخلوقاتِ بالموتِ، قال تعالى:{وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} (سورة الرعد/١٦). ت

١٧ . الوهَّابُ: هو الذي يجودُ بالعطاءِ من غيرِ استِثَابةٍ، أي يثيبُ الطائعينَ فَضلًا منهُ وكَرَمًا، قال تعالى:{الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ} (سورة ص/٩). ت

١٨ . الرزَّاقُ: هو المتكفّل بالرزقِ وقد وسِعَ رِزقُه المخلوقاتِ كُلَّهُم، قال تعالى:{إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} (سورة الذاريات/٥٨). ت

١٩ . الفتَّاحُ: هو الذي يَفتَحُ على خَلقِهِ ما انغلَقَ عليهم من أمورِهِم فيُيَسّرُها لهم فَضلًا منه وكَرَمًا، قال تعالى: {وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ} (سورة سبإ/٢٦). ت

٢٠ . العليمُ: هو العالِمُ بالسرائرِ والخفياتِ التي لا يدرِكُها علمُ المخلوقاتِ، ولا يجوزُ أن يُسمى الله عارفًا، قال تعالى: {وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (سورة النساء/٢٦). ت

٢١ . ٢٢ . القابِضُ الباسِطُ: هو الذي يَقتُرُ الرزقَ بحكمته ويَبسطُه بجودِهِ وكَرَمِهِ، قال تعالى: {وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ} (سورة البقرة/٢٤٥). ت

٢٣ . ٢٤ . الخافضُ الرافعُ: هو الذي يُخْفِضُ الجبارين ويُذِلُّ المتكبرين ويرفَعُ أولياءَهُ بالطاعةِ فيُعلي مراتِبَهُم. ت

٢٥ . ٢٦ . المعِزُّ المذِلُّ: أي أن الله أعزَّ أولياءَه بالنعيمِ المقيم في الجنةِ وأَذَلَّ الكافرينَ بالخلودِ في النارِ، وفي كتاب الله عز وجل:{وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء} (سورة آل عمران/٢٦). ت

٢٧ . السميعُ: هو السَّامعُ للسِّرِّ والنَّجوى بلا كيفٍ ولا آلةٍ ولا جارحةٍ، وهو سميعُ الدعاءِ أي مجيبُهُ، قال تعالى: {إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} (سورة غافر/٢٠). ت

٢٨ . البصيرُ: أي أنه تعالى يرى المرئيات بلا كيفٍ ولا آلةٍ ولا جارحةٍ، قال تعالى:{وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} (سورة الشورى/١١). ت

٢٩ . الحَكَمُ: أي الحاكِمُ بين الخلقِ في الآخرةِ ولا حَكَمَ غيرُه وهو الحَكَمُ العَدلُ، قال تعالى:{وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} (سورة يونس/١٠٩). ت

٣٠ . العَدلُ: هو المنزَّهُ عن الظُّلمِ والجَورِ لأن الظُّلمَ هو وَضعُ الشّيءِ في غَيرِ مَوضِعِهِ. ت

٣١ . اللطيفُ: هو المحسِن إلى عبادِهِ في خَفاءٍ وسترٍ من حيث لا يحتسِبون، قال تعالى:{وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} (سورة الأنعام/١٠٣). ت

٣٢ . الخبيرُ: هو المطَّلع على حقيقةِ الأشياءِ فلا تخفى على الله خافيةٌ وهو عالم بالكلّياتِ والجُزئياتِ، ومن أَنكَرَ ذلك كَفَرَ، قال تعالى:{وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} (سورة الأنعام/٧٣). ت

٣٣ . الحليمُ: هو ذو الصَّفحِ والأناةِ الذي لا يَستَفِزُّهُ غَضَبٌ ولا عِصيانُ العُصاةِ، والحليمُ هو الصَّفوحُ مع القُدرَةِ، قال تعالى:{وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ} (سورة الحج/٥٩). ت

٣٤ . العظيمُ: فهو عظيمُ الشأنِ مُنَزَّهٌ عن صفاتِ الأجسامِ، فالله أعظمُ قدرًا من كلّ عظيمٍ، قال تعالى:{وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} (سورة الشورى/٤). ت

٣٥ . الغفورُ: هو الذي تكثُر منه المغفرةُ، قال تعالى:{أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} (سورة الحجر/٤٩). ت

٣٦ . الشَّكورُ: هو الذي يُثيبُ على اليسيرِ من الطَّاعَةِ الكثيرَ من الثَّوابِ، قال تعالى:{إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ} الآية (سورة فاطر/٣٤). ت

٣٧ . العليُّ: هو الذي يَعلو على خَلقِهِ بقهرِهِ وقدرَتِهِ، ويستحيلُ وصفُه بارتفاعِ المكانِ، لأنه تعالى منزّهٌ عن المكانِ والله خالِقُهُ، قال ابن منظور في لسانِ العربِ: العلاءُ الرِّفعة. قال تعالى:{وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} (سورة الشورى/٤). ت

٣٨ . الكبيرُ: هو الجليلُ كبيرُ الشأنِ، **والله أكبرُ معناه أنَّ الله أكبرُ من كلّ شيءٍ قدرًا**، قال تعالى:{وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} (سورة سبإ/٢٣). ت

٣٩ . الحفيظُ: معناه الحافِظُ لمن يشاءُ من الشَّرِّ والأذى والهَلَكَةِ، قال تعالى:{وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ} (سورة سبإ/٢١). ت

٤٠ . المقيتُ: هو المقتدِرُ وهو رازقُ القوتِ، قال تعالى:{وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا} (سورة النساء/٨٥). ت

٤١ . الحسيبُ: أي هو المحاسِبُ للعبادِ بما قدَّمَت أيديهِم، قال تعالى:{وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا} (سورة النساء/٦). ت

٤٢ . الجليلُ: أي الموصوفُ بالجلالِ ورِفعةِ القدرِ. ت

٤٣ . الكريمُ: هو الكثيرُ الخيرِ فيبدأُ بالنعمةِ قبلَ الاستحقاقِ، ويتفضّلُ بالإحسانِ من غيرِ استثابةٍ، قال تعالى:{مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ} (سورة الانفطار/٦). ت

٤٤ . الرقيبُ: هو الحافظُ الذي لا يغيبُ عنهُ شيءٌ، قال تعالى:{إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} (سورة النساء/١). ت

٤٥ . المجيبُ: هو الذي يجيبُ المضطَرَّ إذا دعاهُ ويغيثُ الملهوفَ إذا استغاثَ به، قال تعالى:{قَرِيبٌ مُجِيبٌ} (سورة هود/٦١). ت

٤٦ . الواسعُ: هو الذي وَسِعَ رِزقُهُ جميعَ خَلقِهِ، قال تعالى:{وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} (سورة النور/٣٢).

٤٧ . الحكيمُ: هو المحكِمُ لخلقِ الأشياءِ كما شاءَ لأنه تعالى عالِمٌ بِعواقِبِ الأمورِ، قال تعالى:{وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } (سورة النساء/٢٦). ت

٤٨ . الودودُ: هو الذي يَوَدُّ عبَادَهُ الصالحين فيرضى عنهم ويتقبَّلُ أعمالَهم، قال تعالى:{وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ} (سورة البروج/١٤). ت

٤٩ . المجيدُ: هو الواسعُ الكرمِ العالي القدرِ، قال تعالى:{إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ} (سورة هود/٧٣). ت

٥٠ . الباعثُ: هو الذي يبعثُ الخلقَ بعد الموتِ ويجمَعُهُم ليومٍ لا ريبَ فيه، قال تعالى:{وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ} (سورة الحج/٧). ت

٥١ . الشَّهيدُ: هو الذي لا يغيبُ عن علمِهِ شيءٌ، قال تعالى:{إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} (سورة الحج/٧). ت

٥٢ . الحَقُّ: هو الثابتُ الوجودِ الذي لا شَكَّ في وجودِهِ، قال تعالى:{وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ} (سورة النور/٢٥). ت

٥٣ . الوَكيلُ: هو الكفيلُ بأرزاقِ العِبادِ والعالِمُ بأحوالِهم، قال تعالى: {وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً} (سورة النساء/٨١). ت

٥٤ . القَوِيُّ: هو التَّامُّ القُدرَةِ الذي لا يُعجِزُهُ شيءٌ، **ولا يقالُ الله قوةٌ أو قدرةٌ إنما هو ذو القوةِ والقدرةِ**، والقوة بمعنى القدرة، قال تعالى:{إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} (سورة الحج/٤٠). ت

٥٥ . المتينُ: هو الذي لا يَمَسُّهُ تَعَبٌ ولا لُغوب، قال تعالى:{إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} (سورة الذاريات/٥٨). ت

٥٦ . الوليُّ: هو الناصرُ ينصُرُ عبادَه المؤمنينَ، فالأنبياءُ وأتباعُهم هم المنصورون في المعنى لأن عاقبَتهم حميدةٌ، قال تعالى:{وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ} (سورة الشورى/٢٨). ت

٥٧. الحميدُ: هو المستحقُّ للحمدِ والثناءِ والمدحِ، قال تعالى:{إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} (سورة لقمان/٢٦). ت

٥٨ . المحصِي: هو الذي أحصى كل شيء علمًا وعددًا، قال تعالى:{وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا} (سورة الجن/٢٨). ت

٥٩ . ٦٠ . المُبدئُ المُعيدُ: هو الذي ابتدأ الأشياء فأوجدها عن عدمٍ، والمعيدُ هو الذي يعيد الخلق بعد الحياة إلى الممات ثم يعيده بعد الموت إلى الحياة، قال تعالى:{هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ} (سورة البروج/١٣). ت

٦١ . المُحيِي: هو الذي يحيي النطفةَ الميتةَ فيخرجُ منها النَّسَمَةَ الحيةَ ويحيي الأجسامَ الباليةَ بإعادة الأرواح إليها عندَ البعثِ.

٦٢ . المميتُ: الذي يميتُ الأحياءَ ويوهِنُ بالموتِ قوةَ الأصحاءِ الأقوياءِ، قال تعالى:{ قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ} (سورة الجاثية/٢٦). ت

٦٣ . الحيُّ: هو الذي لم يَزَل موجودًا وبالحياةِ موصوفًا، قال الطحاويُّ: "**ومن وَصَفَ الله بمعنًى من معاني البشر فقد كَفَر**". قال تعالى:{هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ} (سورة غافر/٦٥). ت

٦٤ . القَيّومُ: هو الدائمُ الذي لا يتغيَّر وهو القائمُ بتدبيرِ أمورِ الخلائِق، قال تعالى:{اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} (سورة البقرة/٢٥٥). ت

٦٥ . الواجِدُ: هو الغنيُّ الذي لا يفتقر الى شيء. ت

٦٦ . الماجِد: هو عظيمُ القدرِ واسعُ الكرمِ. ت

٦٧ . الواحِدُ: هو الواحد الذي لا ثاني له في الأزلية والألوهية، قال تعالى:{وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} (سورة ص/٦٥). ت

٦٨ . الصَّمدُ: هو الذي يُصمَدُ إليه في الأمورِ كلِّها ويُقصَدُ في الحوائِجِ والنَّوازِل، قال تعالى:{اللهُ الصَّمَدُ} (سورة الإخلاص/٢). ت

٦٩ . القادرُ: هو الذي لا يعتريه عجزٌ ولا فُتورٌ وهو القادرُ على كل شيءٍ لا يعجزِه شيءٌ، قال تعالى:{إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (سورة الأحقاف/٣٣). ت

٧٠ . المقتَدرُ: هو القادرُ الذي لا يمتنعُ عليه شيءٌ، قال تعالى:{فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ}(سورة القمر/٤٢). ت

٧١ . ٧٢ . المقدِّم المؤخِّر: هو المنزِلُ للأشياء منازلَها يقدِمُ ما يشاءُ منها ويؤخرُ ما يشاءُ بحكمتِه، روى البخاري ومسلم في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أنت المقدم وأنت المؤخر". ت

٧٣ . الأوَّلُ: هو الأزليُّ القديمُ الذي ليسَ له بدايةٌ، قال الله تعالى:{هُوَ الأَوَّلُ} (سورة الحديد/٣). ت

٧٤ . الآخِرُ: هو الباقي بعدَ فناءِ الخلقِ وهو الدائمُ الذي لا نهايةَ له، قال تعالى:{هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ} (سورة الحديد/٣). ت

٧٥ . الظَّاهِرُ: هو الظاهرُ فوقَ كلّ شيءٍ بالقهرِ والقوةِ والغَلَبَةِ لا بالمكانِ والصورةِ والكيفيةِ فإنها من صفاتِ الخلقِ، قال تعالى:{هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ} (سورة الحديد/٣). ت

٧٦ . البَاطِنُ: هو الذي لا يستولي عليه تَوهُّمُ الكيفيةِ، وهو خالقُ الكيفيَّاتِ والصُّوَرِ، قال تعالى:{وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ} (سورة الحديد/٣). ت

٧٧ . الوالي: هو المالكُ لكلّ شيءٍ ونافذُ المشيئةِ في كلّ شيءٍ. ت

٧٨ . المُتعَال: هو المنزَّه عن صفاتِ المخلوقينَ والقاهرُ لخلقِهِ بقدرتِهِ التَّامَّةِ، قال تعالى:{الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ} (سورة الرعد/٩). ت

٧٩ . البَرُّ: هو المحسِنُ إلى عبادِهِ الذي عَمَّ بِرُّهُ وإحسانُه جميعَ خلقِهِ فمنهُم شاكِرٌ ومنهم كافر، قال تعالى:{إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ} (سورة الطور/٢٨). ت

٨٠ . التَّوابُ: هو الذي يَقبَلُ التوبةَ كلَّما تكرَّرَت، قال تعالى:{وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}(سورة التوبة/١٠٤). ت

٨١ . المنتقمُ: هو الذي يبالغُ في العقوبةِ لمن يشاءُ من الظَّالمين وهو الحَكَمُ العَدلُ، قال تعالى:{وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ} (سورة آل عمران/٤). ت

٨٢ . العفوُّ: هو الذي يصفَحُ عن الذنوبِ ويتركُ مجازاة المسيءِ كَرَمًا وإحسانًا، قال تعالى:{إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ} (سورة الحج/٦٠). ت

٨٣ . الرَّءوفُ: هو شديدُ الرَّحمةِ، قال تعالى:{إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} (سورة النحل/٧). ت

٨٤ . مالكُ المُلكِ: الذي يعود إليه المُلك الذي أعطاه لبعض عباده في الدنيا، قال تعالى:{قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء} (سورة آل عمران/٢٦)، وليس هذا المُلك الذي هو صفةٌ له أزليةٌ أبديةٌ، لأن الذي وصف نفسه به بقوله {مَالِكَ الْمُلْكِ} (٢٦) هو المُلكُ الذي فَسَّرَ به البخاري وغيره وجه الله في قوله تعالى:{كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ} (سورة القصص/٨٨) إلا ملكه أي سلطانه. ت

٨٥ . ذو الجلالِ والإكرامِ: أي أن الله مستحِقٌّ أن يُجَلَّ فلا يُجحَدَ ولا يُكفَرَ بِهِ، وهو المكرِمُ أهلَ ولايتِهِ بالفوزِ والنورِ التَّامِ يوم القيامةِ، قال تعالى:{وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرَامِ} (سورة الرحمن/٢٧). ت

٨٦ . المقسِطُ: هو العادِلُ في حُكمِهِ المنزَّهُ عن الظُّلمِ والجَورِ لا يُسألُ عما يَفعَل. ت

٨٧ . الجامِعُ: هو الذي يجمَعُ الخلائقَ ليومٍ لا ريبَ فيه، قال تعالى:{رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ} (سورة آل عمران/٩). ت

٨٨ . الغنيُّ: هو الذي استغنى عن خلقِه والخلائقُ تفتقِرُ إليه، قال تعالى:{وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء} (سورة محمد/٣٨). ت

٨٩ . المغني: هو الذي جَبَرَ مفاقِرَ الخلقِ وساقَ إليهم أَرزاقَهُم، قال تعالى:{وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى} (سورة النجم/٤٨). ت

٩٠ . المانِعُ: هو الذي يمنعُ من يشاءُ ما يشاء. ت

٩١ . ٩٢ . الضَّارُّ النَّافِعُ: هو القادرُ على أن يَضُرَّ من يشاءُ وينفعَ من يشاءُ. ت

٩٣ . النُّورُ: أي الذي بنورِهِ أي بهدايَتِهِ يَهتدِي ذو الغَوَايَة فيرشَدُ، قال تعالى:{اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ} (سورة النور/٣٥)، أي أن الله تعالى هادي أهل السموات والأرض لنور الإيمان، فالله تعالى ليس نورًا بمعنى الضوء بل هو الذي خلق النور. ت

٩٤ . الهادي: هو الذي منَّ على مَن شاءَ من عبادِهِ بالهدايةِ والسَّداد، قال تعالى:{وَيَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} (سورة يونس/٢٥). ت

٩٥ . البديعُ: هو الذي خَلَقَ الخلقَ مبدِعًا له ومخترِعًا لا على مِثالٍ سَبَقَ، قال تعالى:{بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ} (سورة البقرة/١١٧). ت

٩٦ . الباقي: هو الواجب البقاء الذي لا يجوز عليه خلافُه عقلًا، قال تعالى:{وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالْإِكْرَامِ} (سورة الرحمن/٢٧).

٩٧ . الوارثُ: هو الباقي بعد فناءِ الخلق، قال تعالى:{وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ} (سورة الحجر/٢٣).ت

٩٨ ـ الرّشيدُ: هو الذي أَرشَدَ الخَلقَ إلى مصالحِهِم. ت

٩٩ ـ الصَّبورُ: هو الذي لا يعاجِلُ العصاةَ بالانتقامِ منهم بل يُؤَخِّرُ ذلك إلى أجلٍ مُسَمّى ويُمهِلُهُم إلى وقتٍ معلومٍ. ت

١٠٠ ـ الأحدُ: هو الواحدُ المنزَّهُ عن صفاتِ المخلوقاتِ، فالله لا شريكَ له في الأزليةِ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كان الله ولم يكن شيء غَيرُه" رواه البخاري، وقال تعالى:{قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ} (سورة الإخلاص/١). جه

١٠١ ـ الرَّبُّ: هو السَّيِّدُ المالِكُ، ولا يقالُ الرَّبُ أي بالألفِ واللامِ إلا لله عزَّ وَجَلَّ {الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (سورة الفاتحة/٢). جه

١٠٢ ـ القاهِرُ: فالله القاهِرُ والقَهَّارُ أي الغالِبُ لجميعِ خلقِهِ بقدرتِهِ وسلطانِهِ، قال تعالى:{وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ} (سورة الأنعام/٦١). جه

١٠٣ ـ المجيبُ: هو الذي يقابِلُ الدّعاءَ والسؤالَ بالعطاءِ والقَبولِ بفضلِه ومَنِّه وكرمِهِ، قال تعالى:{ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ} (سورة هود/٦١). ت، جه

١٠٤ ـ الكافي: هو الذي يكفي المُهِمَّ ويدفَعُ المُلِمَّ، وهو الذي يُكتَفَى بمعونتِهِ عن غيرِهِ، قال تعالى:{أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} (سورة الزمر/٣٦). جه

١٠٥ ـ الدائمُ: الباقي. جه

١٠٦ ـ الصادقُ: هو الذي يَصدُقُ قولُه ووعدُه فما أخبرَ الله عن وقوعِهِ فلا بدَّ من وقوعِهِ، قال تعالى:{وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً} (سورة النساء/١٢٢). جه

١٠٧ ـ المحيطُ: هو الذي أحاطَت قُدرَتُهُ بجميعِ خَلقِهِ، وأحاطَ بكلّ شيءٍ عِلمًا فلا يَغيبُ عن علمِهِ شيءٌ قال تعالى:{أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ} (سورة فصلت/٥٤). نج

١٠٨. المُبينُ: بمعنى الظاهر، قال تعالى:{وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ} (سورة النور/٢٥). جه

١٠٩ . القريبُ: أي قريبٌ بعلمِهِ من خلقِهِ، فالمطيعُ قريبٌ من الله بلا كيفٍ كما قالَ الإمامُ أبو حنيفة، قال تعالى: {إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ} (سورة سبإ/٥٠). كم

١١٠ . الفاطِرُ: هو الذي فَطَرَ الخَلقَ أي اختَرَعَهُم وأَوجَدَهُم، قال تعالى:{الْحَمْدُ للهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ} (سورة فاطر/١). جه

١١١ . العَلَّامُ: بمعنى العليمِ، قال تعالى:{وَأَنَّ اللهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ} (سورة التوبة/٧٨). كم

فصل فيما يجوز أن يسمى الله به وما لا يجوز

لا يجوز تسمية الله بما لم يَرِد به توقيف، أي لم يرد الإذن به شرعًا، فلا يجوز تسميته جسمًا أو جوهرًا لأنه لم يَرِد ذلك في الكتاب والسنة إذنٌ به، هذا على القول بأن أسماءه تعالى توقيفية. قال الحافظ اللغوي مرتضى الزبيدي: "وأما على القول بجواز إطلاق المشتق مما يثبت سمعًا اتصافه بمعناه وما يُشْعِرُ بالجلال ولم يوهِم نقصًا، وإن لم يَرِد توقيف كما ذهبت إليه المعتزلة وأبو بكر الباقلاني، فخطأ أيضًا، لأنه لم يوجَد في السمع ما يُسَوّغ إطلاقه، ولأن شرطه بعد السمع أن لا يُوهِم نقصًا، فيكتفون حيث لا سمع بدلالة العقل على اتصافه تعالى بمعنى ذلك اللفظ. ومن قال بإطلاق الألفاظ التي هي أوصاف دون الأسماء الجارية مجرى الأعلام كالمصنِّف، (يعني الغزالي في المقصد الأسنى والإمام الرازي)، فالشرط عنده كذلك فيما أجازه دون توقيف. واسم الجنس يقتضي النقص من حيث اقتضائية الافتقار إلى أجزائه التي يتركب منها وهو أعظم مقتض للحدوث، فمن أطلقه عليه تعالى فهو عاص، بل قد كفره الإمام ركن الإسلام فيمن أطلق عليه إسم السبب والعلة وهو أظهر، فإن إطلاقه عليه وهو غير مُكْرَه عليه بعد علمه بما فيه من اقتضاء النقص استخفاف بالربوبية وهو كفر إجماعًا". اهـ.

فيُعلم من ذلك حرمة إطلاق الروح على الله، وفساد قول بعض الناس "ءاه" اسم من أسماء الله، لأن "ءاه" باتفاق علماء اللغة لفظ وضع للشكاية والتوجع. وقد قرر أهل المذاهب الأربعة أن الأنين والتأوه يُفسد الصلاة، وءاه من جملة ألفاظ الأنين، وقد عدَّها الزبيدي في شرح القاموس اثنتين وعشرين كلمة. وما يروى أن الأنين إسم من أسماء الله فلا أصل له، أخرجه الرافعي في تاريخ قزوين بإسنادٍ تالفٍ وهو مناقض لقول الله تعالى:{وَلِلهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى} (سورة الأعراف/١٨٠)، فقد فسَّروا الحسنى بالدالة على الكمال، فلا يجوز أن يكون إسم من أسماء الله تعالى دالا

على خلاف الكمال. وما يدل على العجز والشكاية والتوجع مستحيل أن يكون اسمًا لله تعالى، وذلك دليلُ أن الحديث المذكور موضوع.

وأما الروح فقد ورد في بعض كتب المتصوفة اسمًا ولا عبرة بذلك، لأن الروح إسم جامد ليس من الأوصاف حتى ينطبق عليه قول الغزالي، ولأنه يدل على النقص لأن الروح جسم لطيف محدَث يتعلق بالبدن، والله منزه عن أن يكون كذلك، وتعالى الله أن يسمى جسمًا. ولا يجوز أيضًا إطلاق الفم على الله أو الأذن أو نحو ذلك لأنها من قبيل الأجسام. ويستحيل أن يكون الله تعالى جسمًا، إذ لو كان جسمًا لجاز عليه ما يجوز على الأجسام من الفناء والتغير ونحو ذلك، ووجب له ما يجب للأجسام كالحدوث، ولصحت الألوهية للشمس والقمر والسماء والملائكة والجن وغير ذلك، وذلك محال، وما أدى إلى المحال وهو كونه جسمًا محال.

وأما الوجه فقد ورد في القرآن إطلاقه على الله بمعنى الذات كقوله تعالى:{وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرَامِ} (سورة الرحمن/٢٧). وهنا يتعين تفسيره بالذات لأنه ورد مرفوعًا موصوفًا بذو الجلال والإكرام، وذو مرفوع أيضًا لأن الصفة تتبع الموصوف في الإعراب. والذات المقدَّس هو الموصوف بالجلال والإكرام. وليس في ذلك حجّة للمجسمة الذين يعتقدون أن الله تعالى له وجه بمعنى الجزء المعهود. أما العين واليد إذا أضيفتا إلى الله فلا يراد بهما الجارحة التي للإنسان ونحوه. قال البيهقي في كتابه الاعتقاد وغيره، إنهما صفتان ليستا جارحتين، قال أبو حنيفة: ولكن يده صفته بلا كيف، وقال في الفقه الأبسط: ليست بجارحة. وقال البيهقي في كتابه الأسماء والصفات ما نصه: "وقال أبو سليمان الخطابي رحمه الله: ليس فيما يضاف إلى الله من صفة اليدين شمال لأن الشمال محل النقص والضعف، وقد روي: "وكلتا يديه يمين"، وليس معنى اليد عندنا الجارحة إنما هو صفة جاء بها التوقيف فنحن نطلقها على ما جاءت ولا نكيّف، وننتهي إلى حيث انتهى بنا الكتاب والأخبار المأثورة الصحيحة وهو مذهب أهل السنة والجماعة. **وأما السّاق فلم يرد مضافًا إلى الله في حديث صحيح**، والرواية الصحيحة هي الموافقة لما جاء في الكتاب من قوله تعالى:{يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ} (سورة القلم/٤٢). وقد فسر ابن عباس الساق بالكرب والشدة، ولا يُعَوَّلُ على رواية ساقه بالضمير". انتهى. **وأما القَدَمُ والرجل فمعناه الجماعة الذين يُقَدّمهم الله للنار فتمتلئ بهم وذلك فيما رواه البخاري وغيره: "لا تزال جهنم تقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه فتقول قَطِ قَطِ". وكذلك ما ورد أن النار لا تمتلئ حتى يضع الله فيها رِجْلَهُ فتقول قط قط المراد بالرجل الفوج الذي يملأ الله بهم النار، ولغة العرب صالحة لهذا المعنى. ولا يجوز جعل القدم والرجل من باب الصفات بل الإضافة فيهما إضافة مِلْكٍ. فمن جعل لله قدمًا ورجلًا بمعنى الجزء فقد جعل الله مثل خلقه وذلك كفر**، وكذب قول الله تعالى: {لَوْ كَانَ هَؤُلاء ءالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا} (سورة الأنبياء/٩٩)، فقد أفهمنا أن كل شيء يَرِدُ النار فهو مخلوق ليس بإله. وأما العين واليد والرضا والغضب ونحو ذلك مما جاء به الكتاب أو الحديث الثابت الصحيح الإسناد المتفق على توثيق رواته فمحمول على أنه صفة أزلية، بخلاف ما أضيف إليه تعالى إضافة مِلكٍ وتشريف كالروح. قال أبو حنيفة في الفقه الأكبر: "**ورضاه وغضبه من صفاته بلا كيف**". يعني أن رضاه وغضبه ليس من الانفعالات التي

تحدث في ذاته تعالى، لأنه لو كانت تحدث له صفة لكان ذاته حادثًا وهذا مستحيل. وكذا يقال في محبته لما يحب وكراهيته لما يكره ليس انفعالا حادثًا في ذاته بل جميع ذلك ونحوه مما يضاف إليه تعالى من الصفات الأزلية ليس حادثًا في ذاته، هذا فيما يضاف إلى الله على أنه صفة. قال أبو حنيفة: "والتغير والاختلاف في الأحوال من صفات المخلوقين" اهـ. أما ما يضاف إليه إضافة مِلك فالأمر ظاهر. وهناك ما لا يصح أن يضاف إليه لا على معنى الصفة ولا على معنى الملك، كقول بعض المفترين على الله: "كلمة خرجت من فم الله" زعمًا منه أنها من الإنجيل، وهو نقلها من بعض هذه الأناجيل المحرفة، ولا يدري أنه لا يصح النقل منها. ومن ذلك قول بعض المتهورين إن إطلاق الأب على الله كان في الإنجيل بمعنى أن الله متولي المسيح بالعناية لا بمعنى الأبوة الحقيقية، والحق الذي لا محيد عنه أنه لم يرد في كتاب سماوي إطلاق الأب عليه تعالى. وأما هذه الكتب المحرفة فلا اعتماد على نقلها، وقد ألف الحافظ السخاوي في الزجر عن ذلك كتابه المسمى "الأصل الأصيل في تحريم النقل من التوراة والإنجيل". وقد ورد في الزجر عن الاعتماد على النقل من التوراة والإنجيل بعد التحريف حديث أخرجه الطبراني وغيره بإسناد قريب من الحسن على ما يفهم من كلام الحافظ ابن حجر.